

أكذوبة الملحد الطيب

إثبات فساد الأخلاق فى غياب الدين

أبريل 2020



أكذوبة الملحد الطيب

إثبات فساد الأخلاق فى غياب الدين



دكتور/ محمد سعيد المكاوى

الناشر: منصة أمازون للكتب الرقمية

ASIN: B087FB4QD7 :رقم أمازون

22 أبريل 2020

المؤلف



دكتور/ محمد سعيد المكاوى ، باحث فى قضايا الفكر الإسلامى. ولد عام 1976م بمحافظة المنوفية فى مصر. تخرج من كلية الطب عام 2000م. حصل على الدكتوراة فى طب الأطفال عام 2011م ، ويشغل حاليا منصب أستاذ مساعد طب الأطفال بكلية طب المنوفية. نشرت للمؤلف عدة أبحاث فى المجلات الطبية العالمية ، وعدد من الكتب فى الفكر الإسلامى. يؤمن المؤلف أن ظهور الإسلام هو أعظم حدث شهدته البشرية قاطبة ، ورغم مرور أكثر من 1400 سنة على مجيء هذا الدين العظيم إلا أن ما نعرفه عن الإسلام أقل كثيرا مما نجهله ، ولا يزال هذا الدين يحمل فى جعبته ما لا يحصى من الكنوز والأسرار والبراهين التى ادخرها الله عز وجل للبشرية فى آخر الزمان توازيا مع الصعود المضطرد لمنحنى الضلال الذى يقترب بالإنسانية من النهاية المحتومة.

هذا الكتاب

لما عاود الإلحاد الظهور مؤخرا لوحظ أن الملحدين قد سحبوا قوتهم الرئيسية من أهم ميادين الصراع مع الإسلام ، فتجنبوا خوض معركة فاصلة على جبهة العلم والعقل التى بدا واضحا أن خسارتهم لها محققة ، مكتفين بمناوشات محدودة ، وفى المقابل حشد الملحدون قوتهم الضاربة على الجبهة السهلة: جبهة الأخلاق التى كانت دوما أرضا خاصة بالمسلمين ، لا ينازعهم فيها أحد. وفى ذروة المعركة انتزع الملحدون ثوب الأخلاق الأبيض الذى اتشح به الإسلام عبر التاريخ ليغطوا به عوراتهم الفكرية والنفسية ، وأعلنوا فى زهو أن الإلحاد ثورة أخلاقية تهدف إلى نشر الإنسانية والتسامح والرحمة ، فصدقهم المنحرفون والساذجون. ولا تزال المعركة محتدمة بين الفريقين ، فى ظل خطوط إمداد لا تنقطع ، تنقل للملحدين عتادا بلا حدود من قوى الشر العالمية التى يتزعمها اليهود ، والتى شعرت بأن وجود الإسلام على كوكب الأرض قد طال أكثر من اللازم، وأن المرحلة السياسية الراهنة توفر الفرصة المثالية لإنهاء وجود هذا الدين ، ورفع راية إبليس خفاقة على الأرض. وعلى خلفية هذه المعركة جاء الكتاب الحالى ليسدد بإذن الله طعنة قاتلة للإلحاد على جبهة الأخلاق. ويمكن تلخيص محتوى الكتاب فى ثلاث أفكار رئيسية: الملحد ليس على خلق حقيقى ، ومن يؤمن بدين غير الإسلام فليس على خلق حقيقى، والمسلم غير المتدين ليس على خلق حقيقى. ورغم أن هذا الكتاب موجه أساسا لمقاومة الإلحاد إلا أنه فى غاية الأهمية لكل مسلم حتى لو اختفت ظاهرة الإلحاد فى المستقبل ، فقد قمنا بتشريح النفس الفاعلة للخير وتعرية خباياها، وهذا أمر من الأهمية بمكان حتى يتبين لكل مسلم هل هو حقا خيِّر وصالح أم مجرد آلة صماء تتصرف طبقا لقوانين البيولوجيا والاجتماع. أتمنى أن يخرج القارىء بعد قراءة هذا الكتاب وهو مقتنع بأنه إن غاب الإسلام فمن المستحيل وجود الأخلاق بشكل حقيقى. وليعلم الملحدون أن معركتنا غير المتكافئة معهم ستنتهى بانتصار ساحق للإسلام ، وإن غدا لناظره لقريب.

الفهرس

لماذا هذا الكتاب؟

فى السنوات الأخيرة حدث تغير خطير فى نشاط الإلحاد داخل بلادنا: لقد كانت مظاهر هذا النشاط فى الماضى لا تتجاوز همسات داخل الغرف المغلقة ، أو ندوات يحضرها قلة من المثقفين الذين يصعب فهم كلامهم ، أو تلميحات فى بطون بعض الكتب الأكاديمية قليلة التوزيع ، لكن الآن تغير الوضع ؛ فقد أطلق النظام العالمى الذى يقوده اليهود إشارة البدء لحكومات الدولة الإسلامية كى تزيل كل الحواجز وتفتح كل الأبواب أمام الإلحاد ، فى إطار غزوة أحزاب جديدة ترمى إلى اغتيال الإسلام ، وتحنيطه ، وتحويله إلى سجين أبدى داخل كتب التاريخ. وقد تم تنفيذ المخطط حتى الآن ببراعة منقطعة النظير ، فها هو الإلحاد ينزل إلى الشارع ، ويوجه سهامه إلى عقول ملايين الشباب، وينجح فى ترويج سمومه داخل البيوت والجامعات والمدارس ، فى ظل دعم غير محدود من العملاء والخونة وأصحاب المصالح والأقليات. لقد تحول الإلحاد لأول مرة إلى حركة شعبية ، فتراجع دور المثقفين الملحدين الكبار ، وأُسندت مهمة تخريب عقول الشباب إلى شباب مثلهم من قليلى الثقافة ، فجعل هؤلاء ينفثون سمومهم بين جيل ضائع من المراهقين جرى تدمير أخلاقه بعناية فائقة على مدى خمس عشرة سنة كى يكون مهيئا للتخلى عن دينه حين تأتى اللحظة المناسبة.

وكان من متطلبات هذه المرحلة الإلحادية الشعبية تحسين صورة الإلحاد أمام الرأى العام من خلال الترويج المكثف لفكرة مؤداها أن الملحد ليس شخصا منحلا ، بل هو صاحب خلق ومبدأ وفضيلة. وقد نجح مسعاهم بشكل كبير فى تحسين صورة الملحد ، فبعد أن كانت كلمة "ملحد" تثير الهلع فى النفوس أصبح من المعتاد أن تسمع كلاما من شخصيات سياسية وإعلامية مشهورة تنم عن احترامها للملحدين وأخلاقهم وحقوقهم.

لقد صارت الأخلاق رأس الحربة فى صراع الإلحاد العنيف مع الدين – سواء بإثبات أخلاقية الإلحاد أو نفى أخلاقية الدين – وهذا أمر فى غاية الغرابة لأن الإلحاد فى جوهره حركة إنكار لوجود الله ، فكيف يترك الملحدون قضيتهم الأساسية المتمثلة فى نفى وجود خالق للكون ، ويركزون كل هجماتهم على الجوانب الأخلاقية رغم أنها شىء ثانوى؟ هذا إلحاد يفتقر إلى الجدية. وانظر إلى منشوراتهم على مواقع التواصل الاجتماعى تجدها قليلا ما تتضمن أدلة جادة تنفى وجود الله

استنادا إلى علوم الفيزياء والأحياء ، وفى المرات القليلة التى يفعلون فيها ذلك تسمع منهم كلاما فى غاية الضحالة.

وبالنسبة لى فقد كانت دعوى أخلاقية الإلحاد تقابَل باستخفاف شديد لأن تناقضها أوضح من أن يحتاج إلى برهان. ومن خلال تجربتى الروحية التي تطورت عبر سنوات طويلة أيقنت أن من المستحيل وجود أخلاق حقيقية فى غياب الدين. ولست أخجل من الاعتراف بأننى مررت بمرحلة انحدار أخلاقى نسبى حين ابتعدت عن الله تعالى من سن الثالثة عشرة حتى الثامنة عشرة. حقا حفظنى الله تعالى من ارتكاب الكبائر ، إلا أن الذكريات حين تعود بى إلى تلك المرحلة أشعر بالندم على الحقد والغرور والكذب والتمرد على الكبار ومجاراة المجتمع الفاسد والحرص على إرضاء الناس أكثر من الحرص على إرضاء الله. ولكن لما اتجهت إلى الله تعالى مرة أخرى فى بداية المرحلة الجامعية تحسنت أخلاقى كثيرا، وعادت إلى سيرتها الأولى كما كنت فى فترة الطفولة. لقد فقدتُ الأخلاق لما ابتعدتُ عن الله ، واستعدتُ الأخلاق لما رجعتُ إلى الله. ولست أزعم أننى الآن ملاك طاهر ، فالحرب سجال بين الإنسان والشيطان إلى أن تأتى ساعة الموت.

ورغم هذا اليقين المطلق بأنه لا وجود حقيقى للأخلاق في غياب الدين إلا أننى وجدت صعوبة في صياغة هذا اليقين الباطن في شكل أفكار منظمة قادرة على إقناع الناس ، وعانيت لبعض الوقت كى أنجز هذه المهمة ، وكدت أتراجع ، لكن لم يكن هناك مفر من أمضى على الدرب إلى أن أُجَلى الأمر بشكل كامل ، فالنقاشات بين المسلمين والملحدين تقف فى نفس المكان دون تقدم، حيث يصر الملحد على أنه ذو خلق ، فيرد المسلم راميا إياه بالانحلال ، ثم يعزز كل منهما دعواه بوقائع معاصرة أو تاريخية دون أن يبحث عن الأساس الفلسفى الراسخ الذى أقام عليه بناءه الفكرى. ولذا كان من المهم تحريك المياة الراكدة ، ومناقشة القضية بشكل مفصل بغية الوصول إلى برهان قاطع يسكت ألسنة الإلحاد الطويلة. وربما كان سبب المشقة أن العلاقة بين الدين والأخلاق أوضح من أن تحتاج إلى برهان ، فالحقائق الناصعة يصعب على المرءِ إيجاد إثبات لها ، ولو نظر رجل إلى بقرة ، فقال لك أن هذه البقرة تضع كل يوم بيضة، فإنك ستُبهت، ولن تجد جوابا، وستتركه وتمضى دون أن تناقشه ، فالشك فى البديهيات دليل على مرض عقلى، ومن كان هذا حاله فمن الصعوبة بمكان أن تغير رأيه. بيد أن الإنسان لم يأت لهذه الدنيا كى يضطلع بالمهمات السهلة ، فالدنيا دار ابتلاء ، وعلى قدر التعب يكون الجزاء فى الآخرة بإذن الله.

إن المرء يجد نفسه هذه الأيام مضطرا للرد على أفكار فى غاية الضحالة ، وشبهات فى غاية السذاجة ، يطرحها جيل من الشباب يستقى أغلب معلوماته عن الإسلام من خلال الفيسبوك وتويتر، جيل لا صبر له على القراءة الواسعة والدراسة الجادة والتفكير العميق، جيل تمت برمجته بشكل منظم من قِبل وسائل الإعلام على احتقار الإسلام والنفور منه ، جيل تعرض لمؤامرة دنيئة تهدف لتحطيم أخلاقه ، وطمس هويته ، ووأد دينه ، كتمهيد لا بد منه لتحقيق الهدف القديم للغرب الصليبى اليهودى فى السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية على العالم الإسلام ، وهذه المرة تُشن الحملة بأياد مسلمة تم تدريبها بعناية شديدة على تدمير أوطانها وهويتها ، وهى ترفع شعار التنوير البراق.

وسنقوم فى هذا الكتاب بالرد على دعوى أخلاقية الإلحاد ، مستندين إلى أدلة جديدة ، نتمنى أن تحرك المياة الراكدة ، وتنتصر للدين بالضربة القاضية ، وتعيد له الأخلاق التى اختطفها منه الإلحاد بحركات بلهوانية فى غاية الغرابة. ويمكن تلخيص محتوى الكتاب فى ثلاث أفكار رئيسية: الملحد ليس على خلق حقيقى ، ومن يؤمن بدين غير الإسلام ليس على خلق حقيقى، والمسلم غير المتدين ليس على خلق حقيقى. ورغم أن هذا الكتاب موجه أساسا لمقاومة الإلحاد إلا أنه فى غاية الأهمية لكل مسلم حتى لو اختفت ظاهرة الإلحاد فى المستقبل ، فقد قمنا فى هذا العمل بتشريح النفس البشرية الفاعلة للخير وتعرية خباياها ، وهذا أمر من الأهمية بمكان حتى يتبين لكل مسلم هل هو حقا إنسان خيِّر وصالح أم مجرد آلة صماء تتصرف طبقا لقوانين البيولوجيا والاجتماع. وأتمنى أن يخرج القارىء بعد قراءة هذا الكتاب وهو مقتنع بأنه إن غاب الإسلام فمن المستحيل وجود الأخلاق بشكل حقيقى.

أدعو الله عز وجل أن يكتب لهذا العمل القبول ، ويفتح له القلوب ، ويثبت به المؤمنين ، وينقذ به البسطاء من مكر الإلحاد. اللهم تقبل منا كتابنا هذا ، واجعله شفيعا لنا يوم الدين. اللهم إنا نسألك العفو والمغفرة والرحمة. اللهم اهدنا واهد بنا ، ولا تضل بنا أحدا. اللهم احشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولنبدأ رحلتنا بعون الله.

دكتور/ **محمد سعيد المكاوى**

13 مارس 2020م – 18 رجب 1441 هجرية

mekkawy55@gmail.com
mekkawy5@gmail.com

الباب الأول: ما وراء أخلاق الملحد

لماذا يفضلون الإلحاد ؟

لا حاجة بنا لأن نبرهن على أن من أهم العوامل التى تجذب الشباب للإلحاد رغبتهم فى التحرر الكامل من القيود الأخلاقية التى يفرضها الدين. كلنا نعرف أن الملحد يكون فى العادة إنسانا مستهترا ، أسيرا للشهوات ، يدمن الخمر ، ويغير العشيقات كما يغير ملابسه. الملحد سليط اللسان، محب لفاحش القول ، ويجد متعة فى السب والسخرية من الآخرين. وهذه الصفات عايشتها بنفسى من خلال تتبع طويل للملحدين وأحوالهم فى مصر وغيرها من البلاد العربية والأجنبية.

الملحد شخص يشعر أن تكاليف الدين أصعب من أن تحتمل ، فالدين يفرض عليه أن يصلى ، ويذهب إلى المسجد ، ويغض بصره ، ويتأدب فى كلامه ، ويتصدق على الفقراء ، ويطيع والديه، ويحسن إلى جاره ، ويصفح عمن أساء إليه ، ويعف عن أخذ ما ليس من حقه. الدين يفرض على الإنسان التواضع ، أما الملحد فيحب أن يتباهى بمواهبه ويفتخر بقدراته ، ويرى أن من أشد عيوب الدين دعوته لمحو الفوارق بين البشر ، وتأسيسه لمعيار وحيد للتفاضل بين البشر هو تقوى الله ، وهذا بالنسبة للملحد جنون لا يطاق لأن الملحد لا يستطيع مجاراة المؤمنين فى العبادة، فيكون الحل الأمثل أن يعتنق فكرا يقَيِّم البشر بشكل كامل على أساس الفروق المادية مثل المال والقوة والصحة والذكاء والوسامة والجمال واللباقة ، فيصبح من الأسهل أن يحظى بالمكانة ، وتصبح القمة من حقه ، لا ينازعه فيها أحد من أولئك المؤمنين الذين يراهم مجرد حمقى ليس لهم من مؤهلات التميز سوى الصلاة والذكر والدعاء!

إن من أكبر مهازل العصر أن تسمع الملحد يتهم الدين بأنه لا يضيف للأخلاق شيئا، مع أن **الإلحاد هو أكبر ثورة عرفها تاريخ البشرية على الأخلاق.** نعم **الإلحاد ثورة عاتية على الأخلاق حتى لو رفع الملحدون راية الفضيلة** ، وذلك لأن الملحد يعتقد أن الموت هو النهاية ، وأن جسده سيفنى إلى غير رجعة بعد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وليس ثَم حساب ، ولا جنة ولا نار ، فلماذا إذن يرهق نفسه بعمل الخير؟ ما الذى سيستفيده من التصدق على فقير؟ ماذا سيربح إن تحلى بالصبر ، ولم يرد على إهانة زميل أو غدر صديق؟ ماذا سيجنى إن منع يده من أن تمتد لأموال الدولة؟ ما الذى يعود عليه إن امتنع عن مجاراة امرأة أغرته بجمالها؟ لماذا يزهد فى الدنيا وهو يعتقد أنه لا شىء بعد الدنيا ، وأنه سيحيا مرة واحدة فقط؟ كيف يضيع فرصته الوحيدة للسعادة؟ **إن أخطر**

من اللص شخص يعتقد أنه إن سرق فلن يُسجن ، وأخطر من المرتشى شخص يعتقد أن الرشوة ستمر دون عقاب ، وأخطر من القاتل شخص يرى أنه إن قتل فلن ينال القصاص. إن من يعتقد أن هذه الجرائم لن تجر عليه عقابا فلن يتورع فى الغالب عن المبالغة فيها وتكرارها ما وسعه إلى ذلك سبيل.

إننى فى غاية الدهشة من محاولة الملاحدة لقلب العلاقة بين الدين والأخلاق ، فالارتباط بين الدين والخير وبين الإلحاد والشر أوضح من أى برهان. ومن ينظر اليوم إلى أحوال الشباب الذين وقعوا فى براثن الإلحاد سيجزم بأنه ليس أمام أصحاب فكر ، ولكنه أمام شباب يبحثون عن مبرر لانحلالهم ، والمبرر المثالى الذى يفتح لك كل أبواب الملذات على مصاريعها أن تعتقد أنه لا يوجد إله يؤاخذك على أفعالك. ويبدو أن الله عز وجل أراد أن يفضح هؤلاء الأشقياء –الذين كانوا يعيشون بيننا على أنهم مسلمون متكاسلون – فهيأ لهم حكومات تشجع الإلحاد ، فاندفعوا فى أحضان إبليس معلنين بكل زهو خروجهم من الدين. إن الإلحاد هو الجزاء العادل الذى يستحقه هؤلاء ، فمن القبيح أن يموت هؤلاء العصاة على الإسلام ، وليس لأحدهم حظ منه إلا الاسم ، حتى إذا قامت الساعة سأل الله المغفرة باعتباره مؤمنا. أما وقد كفر هؤلاء العصاة ، فكيف يسألون المغفرة؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الملحد لديه هوايات لا فضائل

كثيرا ما يتباهى الملحد بفضائل ليست فى الحقيقة فضائل. على سبيل المثال تجد الملحد المثقف يتباهى بحبه للفلسفة والأدب والشعر والرسم والنحت والموسيقى والغناء ، ويعتبر أن الانشغال بهذه الأمور من قبيل الفضائل والمثل العليا مع أنها فى الحقيقة مجرد هوايات لا أخلاق. الأخلاق أمر مختلف، الأخلاق تتطلب من الإنسان تحدى النفس ، **وصاحب الخلق الحقيقى كثيرا ما يجد نفسه مضطرا لعمل شيء يكرهه من أجل أنه واجب** ، أما الملحد الذى يحب الموسيقى أو الشعر أو النحت فهو يمارس عملا يحبه على الدوام ، **وفرق كبير من يسير مع هوى النفس وبين من له القدرة على السباحة ضد تيارها العارم.**

إن من مجرد الانفصال عن الواقع المادى ليس دليلا على قوة النفس ويقظة الضمير. كنت منذ صباى شديد العشق للموسيقى العربية ، وغرقت فى فترة المراهقة فى ألحان محمد عبد الوهاب ورياض السنباطى وبليغ حمدى ومحمد الموجى وكمال الطويل ومحمد سلطان وفريد الأطرش وجمال سلامة ، وأدمنت صوت أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وغيرهم ، وكنت كلما استمعت إلى إحدى الأغانى شعرت بأن روحى تحلق فى السماء ، ونفسى ترفرف فى عالم ملائكى. ولكن صدمت لما علمت أن كثيرا من الملحنين البارعين والمطربين العظام –إن لم يكن أكثرهم– على درجة كبيرة من الانحطاط الخلقى ، وسمعت عن بعضهم حكايات يندى لها الجبين، فقد كان منهم الزناة والمنافقون والمتربحون من وراء علاقتهم بالسلطة ، كما كان بينهم صراعات دامية من أجل النجومية والشهرة. وأحد المطربين الكبار لما أحس بدنو أجله عبر عن رضاه بما قدمه لوطنه عبر مشواره الفنى مع أنه كان زانيا ، وفارقته زوجته لما اكتشفت خيانته لها.

وأغلب الممثلين والمخرجين الذى يسميهم الإعلام هذه الأيام "مبدعين" غارقون فى وحل المخدرات، وقرأت لصحفيين كبار مقربين من الوسط الفنى أن الفنانات يلجأن للسحر لتسوية صراعاتهن الفنية. والغالبية العظمى من الفنانين الموجودين على الساحة زناة ، ولهم ملفات جنسية فى حوزة الأجهزة الأمنية ، يتم استغلالها وقت الحاجة للضغط عليهم.

وروى الدكتور مصطفى محمود رحمه الله عن نقاش دار بينه وبين الفنان محمد عبد الوهاب ، جيث كان مصطفى محمود يريد أن يعمل عملا كبيرا من أعمال الخير ينفعه حين يلقى الله بعد الموت، ولهذا شرع فى تأسيس جمعيته الخيرية المعروفة التى عالجت آلاف الفقراء بالمجان، بينما

كان محمد عبد الوهاب مقتنعا بأن الفن نفسه شكل من أشكال الخير ، وكان على ما يبدو مطمئنا إلى أن رصيده من الألحان العذبة يمنحه الحظوة عند الله.

وفى أيامنا هذه أصبحتُ أكره أغلب الشعراء لأن كلامهم كله نفاق واستعراض وتصنع ومحاولة لاكتساب الشعبية وادعاء العمق. وحتى من بدا عليهم شيء من التواضع والعقل رأيناهم يتخذون مواقف فى الشئون العامة والسياسية أقل ما توصف به أنها "منحطة". وكثير من فطاحل الشعراء القدامى ذاع سوء خلقتهم ، واشتهر غدرهم ، فقد كانوا ينظمون الشعر طمعا فى عطايا الملوك والكبراء ، لكنهم كانوا ينقلبون عليهم ، ويهجونهم أشد الهجاء إذا ما رأوا منهم شيئا. وعلى سبيل المثال يقول المرزبانى فى هذ الشأن[1] :

وكثير من أهل الأدب **ينكر خبث لسان علىّ بن العباس الرومى، ويطعن عليه بكثرة هجائه،** حتى جعلوه فى ذلك أوحد لا نظير له، ويضربون عن إضافة البحترى إليه وإلحاقه به، مع إحسان ابن الرّومى فى إساءته، وقصور البحترى عن مداه فيه، وأنه لم يبلغه فى دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته، أعنى الهجاء خاصة؛ لأنّ **البحترىّ قد هجا نحوا من أربعين رئيسا ممن مدحه؛ منهم خليفتان، وهما المنتصر والمستعين؛ وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القوّاد، ومن جرى مجراهم من جلّة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم؛ وحاله فى ذلك تنبئ عن سوء العهد، وخبث الطريقة.** ومما قبح فيه أيضا، وعدل عن طريق الشعراء المحمودة- أنّى وجدته **قد نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفّر حظّه منهم عليها إلى مدح غيرهم، وأمات أسماء من مدحه أولا، مع سعة ذرعه بقول الشعر**، واقتداره على التوسّع فيه. ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقادى فضله وتقديمه؛ ولكننى أحببت أن أبيّن أمره لمن لعله انستر عنه. وحسبنا الله ونعم الوكيل. ومثل حديث البحترى مع المستعين ما أخبرنيه محمد بن يحيى، قال: حدثنى أبو الفيّاض سوّار بن أبى شراعة، قال لى أحمد بن أبى طاهر أنه قال: **ما رأيت أقلّ وفاء من البحترى ولا أسقط؛** رأيته قائما ينشد أحمد بن الخصيب مدحا له فيه، فحلف عليه ليجلسنّ، ثم وصله واسترضى له المنتصر، وكان غضبان عليه، ثم أوصل له

[1]) **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء** (ص: 375). تأليف "أبو عبيد الله المرزباني .

مديحا إليه، وأخذ له منه مالا فدفعه إليه. ثم نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور، فلعهدى به قائما ينشده[2]:

لابن الخصيب الويل كيف انبرى ... بإفكه المردى وإبطاله
كاد أمين الله فى نفسه ... وفى مواليه وفى ماله
ورام فى الملك الذى رامه ... بغشّه فيه وإدغاله
فأنزل الله به نقمة ... غيّرت النعمة من حاله
وساقه البغى إلى صرعة ... للحين لم تخطر على باله

وهنا نتذكر جميعا قول الله تعالى عن نفاق الشعراء: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: 224 – 227]

وبالجملة فالملحدون يحسبون أن كل الهوايات الفكرية والروحية هى من قبيل الأخلاق والفضائل على اعتبار أنها تسمو على الجسد وحاجاته الأساسية الحيوانية من طعام وشراب. والطريف أن هؤلاء الملحدين يستثنون الجنس من الطبائع الحيوانية ، فتجد الرسام أو النحات الملحد يصور أشكالا عارية إباحية، وتجده يتكلم عن صنعه وكأنه إنسان راق ، عميق الفكر ، عاشق للجمال ، معتبرا أن الإحساس بالجمال فضيلة لا يمتلكها إلا قلة من الناس. وقرأنا لملحد مصرى معروف يتحسر على إحجام الفنانين عن رسم جسد المرأة العارى. وتجد الأدباء والشعراء الملحدين يملأون إنتاجهم الأدبى بالتلميحات الجنسية ، والصور البذيئة ، والألفاظ الفاحشة. والغالبية العظمى من الملحدين هذه الأيام يدمنون النطق بأقذر الألفاظ ، ويتباهون بالجرأة على قول الكلام السوقى ، وكأن أحدهم فارس مغوار يتباهى ببطولاته اللسانية!

وهكذا تجد أن الملحد يعيش فى وهم الأخلاق ، وهو فى الحقيقة يمارس هوايات. وقد عبر القرآن فى مواضع عديدة عن اقتناع الكفار بأن الضلال الذى ينغمسون فيه هو الحق والخير ، وأن المؤمنين هم أهل الرذيلة ، فقال تعالى على سبيل المثال: {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} [ص: 62، 63]. وفى آية مشابهة

[2]) اخترنا فقط بعض الأبيات التى أوردها المؤلف مما يسهل على القارىء المعاصر فهمه بعض الشىء.

يخبرنا القرآن أن أكثر الناس خسارة هو من كان يتخيل فى الدنيا أنه من أهل الصلاح والإحسان:{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103، 104].

وفى عدد آخر من الآيات يخبرنا القرآن أن الكفار زين لهم الشيطان أعمالهم ، أى جعل أعمالهم الشريرة تبدو حسنة فى أعينهم. قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف: 36، 37]. وقال: {وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} [غافر: 37]

وفى آية رائعة قال تعالى: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الصافات: 27 – 29]. وهذه الآية الأخيرة تعرض للتلاوم الذى يدور بين الكفار يوم القيامة ، حيث اتهم بعض الكفار أصحابهم بأنهم كانوا السبب فى كفرهم قائلين: (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين). وقوله (عن اليمين) يعنى (من جهة اليمين)[3]. وكلمة (اليمين) كناية عن "الخير". إن هذه العبارة تعنى أن الكفار المضلين كانوا يقنعون ضحاياهم بالكفر من خلال الذهاب إليهم من جهة اليمن ، أى من جهة الخير. الكفار يحاولون أن يُلبسوا عقيدتهم الباطلة بلباس من الخير والحق والجمال حتى تروق فى أعين ضحاياهم ، فيقول بعضهم مثلا أنهم يكرهون الإسلام لأنه دين الإرهاب والعنف ، ويقول آخرون أنهم يفضلون المسيحية لأنها دين الحب والرحمة ، وتقول طائفة أنهم يكفرون بالأديان لأنها تكبل العقل ، وتحرم الإنسانية من الإبداع. وداخل بلاد المسلمين يقول أهل الضلال عن العلمانية مثلا أنها حماية للإسلام من استغلال تجار الدين، وأن السياحة حلال لأنها تزيد الدخل القومى ، وأن فوائد البنوك حلال لأن الدولة تستثمر الأموال، وتعطى المودعين نصيبهم ، ويقولون عن ملحد مثل نصر حامد أبو زيد أنه مجتهد مجدد مثل محمد عبده. خلاصة القول: الملحد يخدع نفسه ويخدعنا حين يظن أن اهتماماته الفكرية والأدبية والفنية تدخل فى باب الأخلاق. هذه هوايات لا أخلاق.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[3]) هذا يشبه آية أخرى يقول فيها الشيطان أنه سيغوى الناس بأن يدخل إليهم من جميع الجهات {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 17]. وقوله: (عن أيمانهم) معناه (من جهة اليمين).

الغرور الأخلاقى للملحد

ما هذا العنوان الغريب؟ كيف يجتمع الغرور والأخلاق ، وهما نقيضان؟

معكم حق ، لكن هذا هو الواقع دون مبالغة. نعم ملحدو هذه الأيام مغرورن بأخلاقهم. ومن تؤدى به أخلاقه إلى الغرور فمثله كمثل من يطلق النار على رأسه. إن التواضع من أسمى الأخلاق، وكلما ارتقت أخلاق الإنسان كلما ازداد تواضعا ، وكلما أحس بالتقصير ، وشعر ببعد أكبر عن حالة الكمال والمثالية. ولكنك حين تنظر إلى الملحد تجده يقول للمؤمن: "أنا لست فى حاجة إلى نصائحك، فأنا أفضل منك خلقا". إن مثل هذا الملحد يذكرنى بأستاذ جامعى أخذ ينصح طلابه بالمذاكرة والاجتهاد ، ويبين لهم أفضل الكتب والمراجع كى يحصلوا على درجات عالية فى الامتحان، ويكونوا ذوى مكانة فى المجتمع ، ولكن لما انتهى الأستاذ من كلامه وقف أحد الطلبة، وقال له ممتعضا: (أرجوك يا سيدى لا تكلمنا مرة أخرى عن الاجتهاد فى الدراسة ، ولا تحدثنا عن مستقبلنا ، فنحن أدرى بمصلحتنا منك ، نحن بطبعنا متفوقون وعباقرة ، ولا نتوانى عن المذاكرة والتحصيل ، وما نحن بحاجة لتوجيهاتك ، فاحتفظ بنصائحك لنفسك لأننا نعرف طريقنا جيدا).

وهنا نسأل: هل أخطأ المدرس لأنه حاول نصح طلبته وإرشادهم أم أن الطالب هو الذى تصرف بغرور وعجرفة؟ قطعا الطالب هو المخطىء ، فحتى لو كان هذا الطالب فعلا متفوق وعبقرى ، فماذا يضيره أن ينصحه مدرسه؟ لماذا لا ينصت إليه لعله يجد فى كلامه شيئا جديدا؟ وهل يلام رئيس أغنى دولة فى العالم إذا حاول تحسين اقتصادها بدرجة أكبر؟ هل الاستزادة من الخير جريمة؟ هل الوقوف فى المكان خير من التقدم على الدرب؟ هل الرضا بالواقع أفضل من السعى نحو الكمال؟ ثم إن هذا الطالب المغرور لو كان حقا لا يحتاج للنصيحة فلماذا لا يترك الأستاذ ليتكلم حتى يستفيد الطلبة الآخرون من نصائحه؟ لماذا يمنع الخير من أن يصل للآخرين؟ إن هذا يذكرنى برجل غنى جلس يصلى حول الكعبة ، ولما اقترب الغروب بدأ زوار البيت الحرام يطوفون على المصلين ويهدونهم بعض التمر والحلوى والمشروبات ، فإذا بالغنى يصرخ فى وجه الرجل الذى يقدم التمر قائلا: "ألا تعلم أننى من أغنى الأغنياء؟" قطعا هذا تصرف أحمق ، فهب أنك غنى ، أفيعنى هذا أن كل الناس أغنياء؟ أليس من الممكن أن يكون هناك فقير تهفو نفسه لتمرة أو لكوب شاى؟

وقياسا على ذلك نقول أن وجود دوافع طبيعية مغروسة فى النفوس البشرية تحدوها لعمل الخير لا يعد مبررا للاستغناء عن الدين. وهب أن هذا المفكر أو ذاك الفيلسوف لديه همة عالية ونفسا قوية تحثه على عمل الخير وفعل الواجب لمجرد أنه واجب ، فهل بقية البشر بالضرورة مثله؟ قطعا لا، ولذا فهم يحتاجون إلى الدين كدافع فعال يحثهم على عمل الخير. أيها الملحد: بفرض أنك إنسان فاضل ، محب للخير ، حريص على الواجب ، فلماذا تحاول منع الدين من أن يساعدك على زيادة انتشار الخير على الأرض؟ أقول هذا على سبيل الجدل ، والذى لا أشك فيه عندى أن الغالبية الساحقة من الفلاسفة والمفكرين والأدباء الملحدين هم من المنافقين وعديمى الأخلاق ، فهم يعتبرون الفلسفة والفكر مجرد رياضات عقلية ومتع ذهنية وسبل للتميز بين الناس ، دون أن يكون لديهم اهتمام حقيقى بتغيير أخلاق الناس ، ونشر الفضيلة على الأرض.

إن الملحد الذى يريد أن ينفى عن نفسه تهمة انعدام الأخلاق يذكرنى بشاب تقدم لخطبة فتاة فرفضته وقالت له أنت غير متعلم ، فرد عليها: "من قال لك هذا؟ أنا معى شهادة محو الأمية". وطبعا شهادة محو الأمية أقرب للجهل منها للعلم. وبنفس الطريقة نقول للملحد: "**أنت تنفى عن نفسك تهمة انعدام الأخلاق بأن تثبت لنفسك أخلاقا ينقصها أهم شكل من أشكال الأخلاق ألا وهو التواضع**"

إن كبار الملحدين مصابون بغرور مرَضِى. أحد الملحدين ذائعى الصيت صرح يوما بأنه لا يجد مفكرا يدانيه فى العالم العربى. ومنذ سنوات حكى شيوعى مصرى عن تصرف نبيل فعله مع رجل كان على خلاف معه ، فلما عبرت المذيعة التى تحاوره عن انبهارها بهذا الموقف فوجئتُ بالرجل يرد بكل غرور قائلا: (طبعا. ولماذا اشتهرتُ؟ لا بد أننى إنسان مختلف عن الآخرين). وملحد ثالث أخذ يتكلم ، وكأنه الرجل الوحيد الفاضل فى العالم ، وعبر عن تفضيله للعزلة والمكوث فى البيت لأن أخلاق الناس ساءت ، مع العلم أن هذا الملحد معروف بجشعه ونهمه الشديد للمال!

هذا الغرور الأخلاقى شديد الانتشار بين الملحدين. وطبعا أنا لا أقول أن أهل الدين لا يصابون بالغرور ، لكن من المؤكد أن نسبتهم ودرجتهم أقل بكثير ، ثم إن هناك فرقا كبيرا هو أن المؤمن قد يشعر بالغرور، لكنه يعلم جيدا أن الغرور من أقبح الصفات التى يمكن أن يتصف بها المسلم لقول الله عز وجل: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: 18]. وقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» رواه مسلم. ولذلك فأى عالم دين يتكلم بلهجة فيها تعالٍ سيتعرض على الفور لهجوم لا يرحم من بقية علماء الدين ، لكننا **لم نر من قبل هجوما إلحاديا على ملحد مغرور** ، والسبب هو أن **الملحدين لا يعتبرون الغرور خلقا بغيضا** ، وذلك لأن كل الملحدين لا يؤمنون بالآخرة ، ولا ينتظرون نجاحا إلا فى الدنيا ، **ومن المستحيل على أحدهم أن يمنع نفسه من التباهى بإنجازاته فى الدنيا لأن الدنيا بالنسبة له هى الفرصة الأولى والأخيرة للنجاح وإثبات الذات ، والتواضع ليس أكثر من حكم بالإعدام**. أما المؤمن فيدرك أن الدنيا ليست هى الغاية ، وأن مَن أظهر التواضع فيها فسيكافئه الله بالجنة فى الآخرة.

إذن يمكننا القول أن **فلسفة الإلحاد تقود بحكم طبيعتها إلى الغرور ، أما فلسفة الإيمان فتقود بحكم طبيعتها إلى التواضع.**

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الإسلام يعترف بأخلاق الآخرين

من النادر أن تجد إنسانا كافرا ، وكل أفعاله شريرة. ومن الشطط القول بأن الخير لم يوجد على الأرض إلا مع مجيء الإسلام. لقد وُجد الخير دوما على الأرض حتى فى ظل غياب الأديان ، ولكنه لم يكن من أجل الله ، وأى خير لا يُبتغى به وجه الله فهو يقف فى وسط بحر على كتلة من الثلج معرضة للذوبان فى أى لحظة؟

إن كل الدوافع الطبيعية الداعية إلى الخير معرضة للتبدد والاختفاء في أي وقت ، والدافع الوحيد الذى يبقى على الدوام لدى المؤمن هو الرغبة في إرضاء الله. إن الموظف الذى اجتهد في عمله كى يثبت لمديره كفاءته ثم فوجىء بأن المدير لا يكترث بما يفعله ، وأنه يثنى فقط على زميلاته الجميلات فإن ردّ الفعل الطبيعى لهذا الموظف أن يتوقف عن الاجتهاد في العمل ، لكن إن كان هذا الموظف يؤمن بالله فسيستمر في الجد في عمله ليس بهدف إرضاء مديره ، ولكن بهدف إرضاء الله. والإنسان الطيب الذى يتعرض لمشكلة عاصفة بسبب استغلال الناس لوداعته فإنه يصمم بعدها أن يتحول إلى وحش كاسر حتى لا تأكله الذئاب مرة أخرى ، أما إن كان هذا الشخص مؤمنا بالله حقا فسيظل وديعا لأنه يبتغى الثواب على وداعته وحسن خلقه من الله وليس من الناس، كما أنه لا يهمه رأى الناس فيه ولا سخريتهم منه ، فالمهم أن يبقى الله راضيا عنه.

وعلى ذلك **فنحن لا نزعم أن الإيمان بالله جاء ليخلق الخير في عالم خال منه تماما ، ولكننا نؤكد أن الإيمان يوجِد أساسا دائما راسخا دافعا للخير حتى إن فقد الإنسان كل الدوافع الطبيعية والفطرية والثقافية التي تحركه نحو هذا الخير**. حقا الإيمان بالله ليس موجودا "**بالفعل**" لدى جميع الناس بنفس التوهج فى كل اللحظات ، ولكنه يظل موجودا "**بالقوة**" ، أي في حالة كمون قابلة للنمو والازدهار في أى لحظة من خلال الدعوة والموعظة والتأمل وهدى الله. **الإيمان بالله هو الدافع الوحيد للخير الذى يمكن استدعاؤه وإيقاظه إن غابت كل الدوافع الأخرى** ، وسنرى أمثلة كثيرة على ذلك فى فصول لاحقة.

وفى إحدى الآيات القرآنية يذكر القرآن أن القيم التى جاء بها الإسلام ليس اختراعا خاصا به ، ولكنها استمرار لما جاء به الأنبياء السابقون: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} [فصلت: 43]. وفى القرآن أيضا نلاحظ تكرارا لعبارة "مصدقا لما بين يديه" ، وهذا يعنى أن القرآن تتوافق تعاليمه مع تعاليم ما سبقه من كتب سماوية.

والرسول الكريم يقول: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[4] ، فالرسول عليه الصلاة والسلام "متمم للأخلاق" وليس "مخترعا للأخلاق". وقال الرسول الكريم أيضا: "خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا ". رواه البخارى ومسلم[5]. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أيضا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قَالَ: " النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا". رواه مسلم. وهذا الحديث يعنى بوضوح أن بعض الخير كان موجودا فى الجاهلية ، وأن الإسلام لم يأت لينشئه من عدم. لقد كان عصر الجاهلية بلا ريب عصر ظلام ، إلا أنك لا تعدم لديهم بعض مظاهر المعروف ، فمثلا وُصف عنترة بن شداد – وهو من شعراء الجاهلية– كما يلى: (وكان جريئا شديد البطش. وكان مع شدة بطشه لين الطباع، حليما، سهل الأخلاق، لطيف الحاضرة. وكان من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يداه. وكان سمحا، أبي النفس، لا يقر على ضيم ولا يغمض على قذى. ولما أنشد للنبي صلى الله عليه وسلم قوله: ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل ، قال عليه الصلاة والسلام: "ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة").[6]

وروى البخارى عن عائشة أن أبا بكر الصديق لما خرج قاصدا الهجرة إلى الحبشة فرارا من اضطهاد قريش لقيه رجل مشرك يقال له ابن الدُّغُنَّة[7] ، وكان سيد الأحابيش[8] حينئذ ، فآلمه أن يُضطهد رجل فى خلق أبى بكر ، وقال له كلاما يظهر احترام المشركين للفضائل والقيم النبيلة رغم قلة انتشارها بينهم. قال ابن الدغنة:

(إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ، فَارْتَحَلَ ابْنُ الدُّغُنةِ ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ

4) حديث صحيح عن أبى هريرة. انظر: **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**. صفحة 118.

5) ولفظ البخارى كما يلى: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا»

6) **رجال المعلقات العشر**. صفحة 212. تأليف مصطفى الغلاييني. المكتبة العصرية- صيدا بيروت. 1418 هجرية- 1998م

7) ابْن الدغنة، بِفَتْح الدَّال الْمُشَدّدَة وَكسر الْغَيْن الْمُعْجَمَة وَالنُّون مُخَفّفَة مَفْتُوحَة، كَذَا ضَبطه الزرقائى، وَهُوَ ضبط الروَاة، وَأهل اللُّغَة يضبطونه بِالدَّال مُشَدّدَة مَضْمُومَة والغين مَضْمُومَة وَالنُّون مُشَدّدَة مَضْمُومَة وَمعنى الدغنة: المسترخية. نقلا عن: **السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)** (2/ 63).

8) ابن الدغنة كان سيد الأحابيش. والأحابيش هم ثلاثة قبائل تَحَالَفُوا بِوَادٍ يُقَالُ لَهُ الْأَحْبَشُ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ ، فَسُمُّوا الْأَحَابِيشَ. وهذه القبائل هى: بَنُو الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ، وَالْهُونُ ابْن خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ، وَبَنُو الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ. انظر: **السيرة النبوية لابن هشام** (372/1).

رَجُلًا يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدُّغُنةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ، وَقَالُوا لِابْنِ الدُّغُنةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا)

وهناك مقولة إسلامية شهيرة هى "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ، قال تعالى على سبيل المثال: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104]. وهذه الآية في غاية الأهمية لأنها تحتوى على **ثلاثة مصطلحات مختلفة هي "الخير" و"المعروف" و"المنكر"**. وفى آية أخرى يتحدث القرآن عن طائفة من أهل الكتاب ، فيستخدم مصطلح "المعروف" بجوار مصطلح "الخيرات": {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 114]. **واستخدام كلمة "الخير" بجوار كلمة "المعروف" يدل على أن بينهما فرقا** لأن القرآن لا يكرر نفسه كما عودنا. ترى ما الفرق بين هذه الكلمات الثلاثة؟

فى رأينا أن "**المعروف" كلمة تشير إلى أفعال الخير المعروفة ، أى تلك التي يشتهر حسنها بين أغلب الناس في مختلف الأمم والشعوب** مثل حنان الأم وإطعام الفقير ومساعدة الضعيف وعيادة المريض وقول الصدق والحكم بالعدل ، فهذه الأفعال وغيرها هي مما تتفق عليه أغلب الشعوب في كل العصور، أو هي القيم الإنسانية المشتركة كما يقولون الآن. **أما "المنكر" فهو الرذائل التي تتفق أغلب الشعوب على كرهها** مثل القتل والسرقة والاغتصاب والأثرة والظلم والسب والحقد.

هذا عن المعروف والمنكر ، **أما "الخير" فهو كلمة أعم من المعروف ، وهى تشمل – إضافة إلى المعروف– تلك القيم التي تعتبر حسنة من وجهة نظر الإسلام لكنها لا تعتبر كذلك من وجهة نظر الأديان الأخرى والشعوب الأخرى** ؛ على سبيل المثال صوم رمضان والحج والصلاة وقراءة القرآن والدعوة إلى الإسلام والجهاد فى سبيل الله لنشر الدين ، كل هذه من أعمال الخير ، لكن المسيحيين واليهود يرون هذه الأعمال شرا. وبنفس الطريقة يعتقد المسيحى أن الاحتفال بعيد الفصح والذهاب إلى الكنيسة بانتظام وتأليف كتاب عن ألوهية المسيح والذهاب في رحلة خطرة داخل أدغال إفريقيا لنشر المسيحية ، كل هذه أعمال من أعمال الخير من وجهة نظر المسيحى ، لكن اليهودى يراها شرا خالصا. وأيضا يعتقد المسلم أن من واجبه تأديب ابنته ومنعها من الخروج بملابس فاضحة في الطريق ، بينما كثير من غير المسلمين لا يرون ذلك من صور الخير ، بل

يعيبون على الإسلام حرصه على العفة والطهارة. وكان أهل الجاهلية يرون أن وأد البنات (أي دفنهن أحياء بعد مولدهن) عمل صالح حتى لا يجلبن لهم العار حين يكبرن ، لكن هذه جريمة من وجهة نظر الإسلام. وكذلك كان أهل الجاهلية يرون أن المبالغة في الثأر فضيلة ، بينما حث الإسلام على العدل في الثأر.

وفى إحدى الآيات يستخدم القرآن مصطلح "المعروف" وليس "الخير" ، وهو يظهر المسلمين على أنهم خير أمة أخرجت للعالم: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران: 110]. وتفضيل القرآن هنا لمصطلح "المعروف" و"المنكر" سببه أن الحكم بتفوق المسلمين على غيرهم يقتضى وجود معيار مشترك للمقارنة ، فمن الخطأ أن تقارن بين شاعر وعالم فى الذرة ، ولكن يمكنك أن تقارن بين عالم ذرة حصل على نوبل وعالم ذرة لم يحصل على أى جوائز. إذن كان من المحتم استخدام مصطلح "المعروف" و "المنكر" ، وليس مصطلح "الخير" لأن المعروف والمنكر لا يختلف عليهما أحد بعكس "الخير" الذى يختلف من أمة لأخرى.

ولا بد أن ننبه إلى أن المعروف لا يشير إلى اتفاق جميع البشر على حسن فعل من الأفعال ، وإنما يشير إلى اتفاق غالبيتهم العظمى على ذلك ، فعلى سبيل المثال بعض القبائل تستسيغ أكل لحوم البشر أو زواج الرجل من أخته ، بينما غالبية الشعوب تمتعض من مجرد سماع هذه الأمور.

إذن **هناك قيم مشتركة بين أغلب البشر تسمى المعروف ، وهناك قيم أخرى تختلف من شعب لشعب ومن دين لدين ومن فلسفة لفلسفة ، ويسميها كل طرف خيرا من وجهة نظره.** ولا شك لدينا أن الدين الوحيد الحق هو الإسلام ، والخير المطلق هو الخير من وجهة نظر الإسلام ، لكننا نهتم الآن فقط بإبراز الفارق بين مصطلح الخير ومصطلح المعروف.

ولكن فى سورة الماعون أورد القرآن صفات الكافر الذى يكذب بالدين الحق وبالحساب والجزاء يوم القيامة، فذكر أنه يقسو على اليتيم ، وأنه لا يحض الناس على إطعام المساكين الجائعين: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون: 1-3]. وكلمة (يدُعُّ) تعنى يدفع بعنف.

وقد استغل بعض الملحدين هذه السورة للطعن فى القرآن على أساس أن بعض الكفار المعاصرين يجوبون العالم لمساعدة الفقراء واللاجئين. فهل أخطأ القرآن حقا حين أخبرنا أن الملحدين المكذبين بالآخرة لا يعملون الخير؟

الحقيقة أن التسرع فى الإجابة يؤدى إلى الخطأ. إن علينا أن ننتبه إلى حقيقة مؤداها أن عبارات القرآن العامة يجب ألا تؤخذ دائما بشكل حرفى كما يتوهم البعض ، فعلى سبيل المثال أخبرنا القرآن أن الله تعالى يدافع عن المؤمنين: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: 38] ، بينما نجد فى سورة البروج كيف أُلقى المؤمنون فى الأخدود ، وأحرقوا بسبب إيمانهم دون أن تتدخل السماء لنجدتهم. فهل القرآن يقول كلاما متناقضا؟ بالتأكيد لا ، لأن طبيعة الكلام البشرى تتطلب صياغة عبارات عامة للتعبير عما هو شائع وغالب فى الواقع ، مع الاعتراف بأن الواقع يتضمن استثناءات لقواعد كثيرة. على سبيل المثال اشتهر قولنا: (الشعب المصرى يتسم بالذكاء) مع أن كثيرا من المصريين ابتلوا بالغباء أو التخلف العقلى. وكثيرا ما يقال للطلبة: (إن تذاكر تنجح) مع أن هناك طلبة يذاكرون ولا ينجحون بسبب مرض مفاجىء أو حادث. ويقول المثل الأجنبى أيضا: "لا ربح بلا ألم" ، مع أن بعض الناس يربحون الأموال دون تعب من خلال القمار والسرقة والنفاق. ويقال أيضا أن (الشعب الفرنسى متحضر) مع أن بعض الفرنسيين لصوص وقتلة وتجار مخدرات ولم يقرأوا كلمة فى حياتهم. وفى العلوم الطبية لا مفر من استخدام العبارات العامة ، فمثلا كثيرا ما يقال أن (مرض الالتهاب السحائى يسبب التشنجات) ، مع أن بعض المصابين بهذا المرض لا تحدث لهم تشنجات. ويقال أيضا أن (مرض السرطان يسبب الوفاة) ، رغم أن بعض مرضى السرطان يُشفون. إذن اللغة لا بد أن تحتوى على عبارات عامة ، وصيغة العموم تشير إلى ما هو غالب ، لكنها لا تنفى بالضرورة وجود استثناءات. ولو امتنعنا عن صياغة العبارات العامة بسبب وجود الاستثناءات لوقعنا فى حرج لغوى لا داع له.

وعلى ذلك فليس بدعا من القول أن يذكر القرآن أن المكذبين بالدين يفعلون الشرور مع أن الواقع يخبرنا أن بعضهم يفعلون الخير أحيانا. إن القرآن يشير إلى الترابط القوى بين إنكار الآخرة وعمل الشر ، وهذه ظاهرة ملحوظة ، ومنكرها جاحد ، ولا يعيب القرآن وجود بعض الحالات التى تشذ عن هذه الظاهرة ، ونحن لا نقول كلاما أجوف ، فهذا هو الطابع العام للقرآن الذى لا يقتصر على سورة الماعون وحدها ؛ فعلى سبيل المثال يتكلم القرآن عن أهل الكتاب موجها إدانة عامة شاملة

لهم فى بعض الأحيان ، كما لو كانوا جميعا عصاة فاسقين ، ولكن فى أحيان أخرى يستثنى بعضهم. واقرأ معى قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44]. وقوله: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [المائدة: 42]. وقوله: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة: 105][9]. ورغم ذلك يذكر القرآن فى آيات أخرى ما يفيد أن أهل الكتاب لم يكونوا جميعا فاسقين ، كما فى قوله تعالى: {مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة: 66] ، وقوله: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } [البقرة: 83][10]

خلاصة القول أن ضحالة معرفة الملحدين باللغة العربية وبنصوص القرآن أدتهم بهم إلى المسارعة إلى الطعن فى القرآن. وأهم من هذا أن الإعلام المعاصر يفرض على المشاهير أداء بعض أعمال الخير بغرض الشهرة ولفت الأنظار وحصاد صيحات الإعجاب ، وخلق مادة تعيش عليها الصحف الفنية، وهذا شىء نعرفه جميعا ، ولا يحتاج لبرهان. إن عالم الفن اليوم هو عالم نفاق قذر إلا ما ندر.

وهكذا أوضحنا أن **المسلم لا توجد لديه أى مشكلة في الاعتراف بوجود الفضائل بين مختلف الأديان والشعوب حتى لو كانت كافرة** ، فعلى الملحد ألا يتوقع منا أن نسقط صرعى من هول المفاجأة حين يواجهنا بأمثلة على وجود الخير لدى هذا الملحد أو ذلك الكافر. لقد سبقك القرآن أيها الملحد وأخبرنا بعدله المعهود ونزاهته الفريدة أن الخير يوجد دائما حتى فى غياب الدين.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[9]) هناك آيات أخرى مشابهة مثل قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } [البقرة: 61]. وقال: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [البقرة: 96]. وقال كذلك: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة: 89].

[10]) هناك آيات أخرى مشابهة مثل قوله تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 27]. وقوله:{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: 88]. وقوله: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: 101]. وقوله:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة: 109]. وقوله: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 75]. وقوله: {وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [آل عمران: 69]. وقوله: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 113 - 115]. وقوله: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [المائدة: 13]. وقوله: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ } [المائدة: 59]

الباب الثانى: الإلحاد جريمة أخلاقية

شاع بين الناس فى هذا الزمان الاستخفاف بالعقائد ، ورأينا منهم تركيزا مصطنعا على الأخلاق حتى صاروا يَحكمون على صحة المذاهب والتيارات الفكرية من خلال الأخلاق التى تنادى بها. لمست هذا فى محاوراتى مع الأجانب غير المسلمين ، كما لمسته بين المسلمين ممن ابتُلوا بطاعون الفكر الغربى. إنهم يقفون على رءوسهم إذ تراهم يُنَحون العقل جانبا وهم يشرعون فى تقييم الأديان، ويبدأون مباشرة من الأخلاق ، فإن راقت لهم أخلاق دين اعتنقوه، وإن لم تعجبهم أخلاقه تركوه. وكان من المفزع بالنسبة لى أن أرى بابا الفاتيكان – أكبر شخصية دينية فى العالم–وهو ينحنى لمنطق الإلحاد القائل بأن العقيدة الدينية ليست ذات أهمية ، وأن الأخلاق والضمير هما كل شىء. لا يهمنى الفاتيكان نفسه بالطبع ، ولكن استسلام الفاتيكان لمنطق الإلحاد بهذا الشكل معناه أن الإلحاد قد كسب معركة حاسمة ، وأنه سيلقى بعدها بكل ثقله على جبهة الإسلام ، وقد بدأ بالفعل يوجه جحافله على بوابة الدين الذى لا يزال يبدى مقاومة كبيرة لمنطق الحداثة وما بعد الحداثة الشيطانى. فتعالوا معنا لنرى كيف تغير فكر الفاتيكان بطريقة جذرية لأول مرة فى التاريخ:

ورد فى صحيفة الإندبندنت البريطانية موضوعا عنوانه: "**البابا فرانسيز يؤكد للملحدين: لا يجب عليكم أن تؤمنوا بالله كى تدخلوا الجنة**". وفى هذا الموضوع قرأنا ما يلى:

[فى تعليقات من المحتمل أن تزيد من سمعته التقدمية كتب البابا فرانسيز خطابا طويلا وصريحا لمؤسس صحيفة "لا ريبابليكا" يوجينيو سكالفارى مصرحا **أن غير المؤمنين سيغفر لهم الله إن هم اتبعوا ضمائرهم**. وفى إجابة على قائمة من الأسئلة المنشورة فى الصحيفة بواسطة الأستاذ سكالفارى –وهو ليس كاثوليكيا رومانيا– كتب فرانسيز : "أنت تسألنى **ما إذا كان إله النصارى يغفر لمن لا يؤمنون** ومن لا يطلبون الإيمان. وأنا أبدأ بالقول – وهذا هو الشىء الأساسى– أن رحمة الله بلا حدود إن ذهبتَ إليه بقلب مخلص تائب. **والقضية بالنسبة لمن لا يؤمنون بالله هى أن يطيعوا ضمائرهم**. والخطيئة – حتى بالنسبة لأولئك الذين لا إيمان لهم – توجد عندما يعصى الناس ضمائرهم"]. [11]

[11]) **Pope Francis assures atheists: You don't have to believe in God to go to heaven.** By Michael Day. The Independent. 11 September 2013. https://www.independent.co.uk/news/world/europe/pope-francis-assures-atheists-you-don-t-have-to-believe-in-god-to-go-to-heaven-8810062.html

وفى تقرير مثير ذكرت صحيفة الجارديان البريطانية أن البابا فرانسيز قد اقترح أن "**من الأفضل للمرء أن يكون ملحدا من أن يكون واحدا من الكاثوليكيين الكثيرين الذين قال أنهم يحيون حياة منافقة مزدوجة**"[12].

وفى تعليقات مرتجلة فى قداسه الخاص الصباحى قال البابا فرانسيز :

[من الفضيحة أن نقول شيئا ونفعل شيئا آخر. هذه حياة مزدوجة. هناك من يقول: "أنا كاثوليكى حتى النخاع. أنا أذهب دائما إلى القداس. أنا أنتمى إلى هذه الرابطة أو تلك". بعض هؤلاء الناس يجب أن يقولوا أيضا: "حياتى ليست مسيحية. أنا لا أدفع لموظفىَّ رواتبهم المناسبة. أنا أستغل الناس. أنا أمارس عملا قذرا. أنا أغسل الأموال. أنا أحيا حياة مزدوجة". هناك كاثوليك كثيرون من أمثال هؤلاء ، وهم يسببون الفضيحة. وكم من مرة سمعنا جميعا الناس يقولون: "**إن كان ذلك الشخص كاثوليكيا فمن الأفضل أن يكون ملحدا**". ويقول التقرير أنه منذ أقل من شهرين قال البابا: "**يجب أن ينظر المسيحيون إلى الملحدين كأناس طيبين إن كانوا يتصرفون بشكل جيد**"[13]

وقبل ذلك أصدر البابا فرانسيز –قبل أن يجلس على كرسى البابوية– كتابا تضمن محاورت مع رجل دين يهودى ربطته به صلة صداقة. ومن بين ما قاله فرانسيز فى هذا الكتاب كلاما يدل على أن رأيه الأخير عن الإلحاد لم يكن مجرد تصريح عارض أو ذلة لسان ، بل يعبر عن قناعة قديمة. يقول فرانسيز :

"عندما أتكلم مع الملحدين أناقش فى بعض الأحيان اهتمامات اجتماعية لكننى لا أطرح مشكلة الله كنقطة بداية إلا إذا طرحوها هم علىَّ. وإن حدث هذا فإننى أخبرهم لماذا أؤمن. لكن ما هو إنسانى شديد الغنى لنشاركه ونعمل على تنميته بحيث **نستطيع بسهولة أن نكمل ثراءنا بشكل متبادل.** بوصفى مؤمنا فأنا أعرف أن هذه الثروات منحة من الله. وأعرف أيضا أن الشخص الآخر – الملحد– لا يعرف ذلك. **وأنا لا أقارب العلاقة من أجل التبشير أو لهداية الملحد. أنا أحترمه وأعرض نفسى كما أنا.** حيث توجد المعرفة يبدأ ظهور الاحترام والمودة والصداقة. لا يوجد لدى أى نوع من التراخى ، **ولن أقول أن حياته مدانة وذلك أننى مقتنع أننى لا أملك الحق للحكم على**

---

[12]) **Pope Francis: better to be an atheist than a hypocritical Catholic**. The Guardian. https://www.theguardian.com/world/2017/feb/23/pope-francis-better-to-be-atheist-than-hypocritical-catholic

[13]) **Pope suggests 'better to be atheist than hypocritical Catholic'.** By Philip Pullella; Editing by Louise Ireland February 23, 2017. https://www.reuters.com/article/us-pope-atheists-idUSKBN1621I3

أمانة هذا الشخص... يجب علينا أن نتمسك بالرسالة التى نتلقاها من الكتاب المقدس: كل إنسان هو صورة الله ، سواء أكان مؤمنا أم لا. لهذا السبب وحده فإن كل شخص لديه سلسلة من الفضائل والصفات والعظمة الخاصة. وإن كان لديه بعض الرذيلة – كما هو حالى– فيمكننا أن نتشارك ذلك من أجل أن يساعد بعضنا البعض بشكل متبادل ونتغلب عليها"[14]. انتهى منطق بابا الفاتيكان البائس.

وقد قرأت منذ سنوات كلاما كتبه المفكر المسلم جيفرى لانج[15] عن صديق له اعتنق الإسلام ، فلما صُدم بسوء أخلاق بعض المسلمين ارتد عن الإسلام ، وأصبح بوذيا لما لمسه من حسن أخلاق الرهبان البوذيين. جن جنونى من هذه الواقعة ، إذ كيف يترك المرء دين العقل ، ويرتمى فى أحضان دين يتناقض بشكل فج مع المنطق والعلم؟ إن من الجائز لهذا الرجل أن يترك الإسلام ويصبح بوذيا فى حالة واحدة فقط هى أن تكون قد توافرت لديه شواهد جديدة برهنت له على أن عقيدة الإسلام غير صحيحة ، كأن يكون قد تبين له أن الله غير موجود ، وأن النفس غير موجودة، وأن وجود الجنة والنار مستحيل. ولكن هذا الرجل لم يترك الإسلام بسبب أى شىء من تلك الأمور بل بسبب سوء أخلاق بعض المسلمين ، وهذا هو الجنون بعينه ، **فحب الإنسان لشىء لا يثبت وجوده ، وكره الإنسان لشىء لا يثبت عدمه ، ولو كان الحكم على الحقائق الوجودية الكبرى بالحب والكره لما احتجنا إلى فلاسفة يدرسون المنطق بل إلى شعراء ذوى عواطف متقدة ونفوس شاعرية.** وهكذا صار المبدأ الأثير لدى الإنسان المعاصر هو: (بما أن عقيدتى تدعو إلى عمل الخير إذن عقيدتى هى الحق). يا لها من مهزلة!

ولما رجعت إلى كتاب جيفرى لانج لأتذكر تفاصيل الواقعة بالضبط شعرت وكأن الرجل قد قرأ ما بقلبى من غضب وما بعقلى من منطق ورمى به هذا الصديق المرتد. لقد قال له صديقه جرانت أنه **دخل وخرج من أديان كثيرة عبر السنين ، وأنه جرب أديانا أكثر من الجوارب التى يرتديها ،** وأنه لم يكن يبحث فقط عن مجموعة من العقائد التى يتفق معها ، بل أيضا عن مجتمع يعيش ويمثل هذه العقائد. وما جذبه أصلا إلى الإسلام هو ما رآه أولا فى بعض المسلمين الذين قابلهم ، ومع مرور الوقت اكتشف أن مجتمع المسلمين يقف بعيدا عن المبادىء النبيلة التى يبشر بها الإسلام ، وأن شوائبه تعتم كثيرا على فضائله. وقال الصديق أنه وجد أخيرا المجتمع الدينى الذى

[14]) **On Heaven and Earth: Pope Francis on Faith, Family, and the Church in the Twenty-first Century.** Chapter 3: On atheists. Translated by Alejandro Bermudez; Howard Goodman. New York: Image Books. 2013.

[15]) **"حتى الملائكة تسأل" قصة الإسلام فى أمريكا.** صفحة 268-269. تأليف دكتور جيفرى لانج. تعريب دكتور زين نجاتى. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة. الطبعة الأولى 2002م

كان يبحث عنه دائما ، مجتمعا يترجمون فيه بصدق عقائدهم الدينية إلى احترام وحب متبادل ؛ لقد أصبح بوذيا. رد عليه جيفرى لانج قائلا: "جرانت. بالتباين معك ، أنا لم أجرب الإسلام كزوج من الجوارب كما فعلت أنت ، أنا –حقيقة وصدقا– **استسلمت لما رأيت أنه الحق.** أنا لم أرغب أن أصبح مسلما أو أنتمى إلى مجتمع دينى. أرجوك جرانت ، لقد كنت ملحدا قبل أن أصبح مسلما **، وسواء كان المسلمون صالحين أو فاسدين لن يكون لذلك أدنى تأثير على اختيارى أن أصبح مسلما، أو على قرارى أن أظل مسلما**....جرانت **أنا قرأت القرآن ، قاتلته وصارعته ، وتحاورت معه ، وأخيرا استسلمت له.** استسلمت لله الواحد الأحد الذى عرفته وآمنت به من خلال قراءة القرآن. أنا لا أستطيع ببساطة أن أبتعد عن كل هذا."

وفى السنوات الأخيرة بدأ الإلحاد فى بلادنا هو الآخر يساير الموجة ، فأصبح الملحد يؤكد أن الإلحاد ليس أقل من الأديان السماوية فى دعوته إلى الأخلاق والفضائل ، وأصبح عامة الملحدين يرفعون شعارا أخلاقيا براقا هو شعار الإنسانية مع أن الإلحاد اختُرِع خصيصا ليخلص الإنسان من الأعباء الأخلاقية الدينية ، ويترك له الحبل على الغارب. وسنقوم فى هذا الفصل بإثبات أن **الإلحاد فى حد ذاته عمل غير أخلاقى** ، وأن دعوى أخلاقية الإلحاد لا يمكن أن تكون ملزمة للمؤمن ، فمن أراد أن يثبت أخلاقية الإلحاد فعليه أولا أن يبرهن بالعقل والعلم على أن عقيدة الإلحاد هى الحق ، أما قبل ذلك فليس للملحد أن يتباهى بأخلاقه وإنسانيته. يجب أن يكون واضحا للجميع أن العقيدة الباطلة فى ذاتها شكل من أفظع أشكال سوء الخلق. وإن قال لك الملحد: "لا يضيرنى الكفر طالما أننى أدعو إلى الشفقة والرحمة والعطف والعدل والسلام" ، فقل له: "**كفرك فى حد ذاته عمل فى غاية الانحطاط**". وإليكم الدليل على ما نقول:

الإلحاد نكران للجميل

عزيزتى الملحدة: أنت من أنصار الحركة النسائية ، ومثلك الأعلى نوال السعداوى. والآن أطلب منك أن تتخيلى أنك فى يوم من الأيام حظيت بشرف صحبة نوال السعداوى ، فقربتك منها ، وعطفت عليك ، وأعارتك كتبها، ونقلت إليك خبرتها ، وساعدتك على نشر كتب من تأليفك ، وأجرت اتصالات بالإعلاميين والصحفيين كى يتواصلوا معك ، ويتعرفوا على أفكارك ، ويُسمعوا صوتك للجماهير. ولما مرت الأيام وكبرتِ وعلا نجمك سألك أحدى الصحفيين: (مَن مثلك الأعلى، وصاحب الفضل الأكبر عليك؟) فكان جوابك: (لم يكن لأحد فضل علىَّ. نبوغى هو الذى قادنى لما أنا فيه من الشهرة) ، ولما سألكِ الصحفى: (ولكن ماذا عن الدور الذى لعبته نوال السعداوى

فى مشوارك الفكرى؟) كانت إجابتك: (بصراحة لم يكن لها تأثير ذى بال على مشوارى الفكرى. لقد كان لنوال السعداوى تلاميذ كثيرون ، لكن لا أحد يذكر أسمائهن ، وهذا يؤكد أن نبوغ التلميذ أهم من تشجيع الأستاذ). وفيما بعد قابلتكِ نوال السعداوى فى مكان عام ، وعاتبتكِ على تصريحاتك الصحفية ، وطلبت منك تكذيبها ، فما كان منك إلا أن أصررتِ على كلامك ، وقلتِ لها بصوت عال أمام جميع الحاضرين: (أنا مصممة على موقفى: أنتِ لم يكن لك فضل علىَّ قط ، وأنا مَن صنعت شهرتى).

والآن أطلب منكِ أيتها الملحدة أن تصِفى موقفك ، وتحكمى على تصرفك.

قطعا ستسارعين لإنكار هذه التهمة التى يستحيل أن تسمح بها أخلاقك الرفيعة ، وستؤكدين أن هذه وقاحة وغرور ونكران للجميل. وأنا معك ، وأزيدك القول بأننا فى مصر نصِف مثل هذا الشخص بأنه "قليل الأصل". ولا أظن أن أحدا على وجه الأرض يكره شخصا مثلما يكره ناكر الجميل ، فهو فعلا شخص وقح مهما كانت صفاته الأخرى.

والمفاجأة أن هذه الصفة المثيرة للاشمئزاز هى أهم صفات الملحد. الملحد لا يرى أن الله صاحب فضل عليه ، ولذا فهو ناكر للجميل ومنحط مهما حاول الظهور بمظهر حسن. **ولا تحاول أن تقنعنى بأنك شخص طيب لأنك تعطف على الفقراء والجائعين، بينما أراك تغفل عن أهم من عطف عليك ألا وهو الله.** الملحد شخص يفتقر إلى أهم صور الأخلاق ، وإن ارتدى ثياب الملائكة.

والآن ماذا تتوقعين أيتها الملحدة من أستاذتكِ؟ تُرى هل تعاملك بنفس الطريقة التى تعامل بها تلاميذها الأخريات؟ مستحيل، فمن الظلم التسوية بين شخص موقِّر لأساتذته وشخص يهين من علموه. وهب أن نوال السعداوى أوشكت على الموت ، وطُلب منها أن توصى بوصية ، فهل توصى بمكتبتها الكبيرة التى تضم آلاف الكتب النفيسة لكِ بعد أن تجرأت عليها وأهنتيها أم توصى بها لتلميذة كانت تحفظ لها فضلها ؟ أجيبى واحكمى على نفسك. وليجب علينا كل ملحد: ما الفرق بين إنكار التلميذ الجاحد لفضل أساتذته وإنكارك لفضل الله عليك؟ بل أليس الله أكبر فضلا وأعظم نعمة؟ الله منحك السمع والبصر واليد والرجل والعقل والفم والأسنان والمعدة والأمعاء والرئة والقلب وخلق لك المطر والنبات والحيوان والهواء والشمس والقمر.

كنت فى يوم من الأيام عائدا من عملى وكان البرد قارصا، فرأيت قطة ترقد تحت السيارة، فانتبهت إلى نعمة كبرى لا يحس بها أحد منا: إنها نعمة السكن. إننا نعيش فى بيوت ، ونغلق علينا الأبواب، ونطفىء الأنوار ، ونرقد على فراش لين، ونتغطى ، وننام فى أمان ، لنستيقظ فنجد الأكل.

أما القط فليس أمامه إلا العراء والبرد والخوف والجوع. ولا فضل لأحد منا فى ذلك ، فعقولنا وأجسادنا التى مكنتنا من بناء البيوت والتميز على الحيوانات ليست من صنع أيدينا، ولكنها من صنع الله ، أفلا يستحق منا الله شيئا من شكر النعمة والاعتراف بالجميل؟ ألستم معى فى أن الكفر جريمة أخلاقية حقيرة؟

الإلحاد تزييف للحقيقة

فطر الإنسان على الرغبة فى طلب **الحقيقة من أجل الحقيقة ذاتها بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى** ؛ على سبيل المثال كثيرا ما نرى العلماء يختلفون بشكل حاد حول قضايا نظرية لن يفيد إثباتها أو نفيها أحد منهم ، وذلك لأن الحقيقة لها قيمة مستقلة عن أى شىء آخر ، ولهذا تجد العلماء يختلفون مثلا حول وقائع التاريخ وشخصياته مع أن كثيرا من هذه الخلافات لن تفيد أحدا اليوم ، وذلك مثل اختلافهم حول تاريخ ميلاد أحد الزعماء وعدد أبنائه وأسماء زوجاته ، كما تراهم يختلفون حول أسماء المدن ، وأعداد القتلى فى الحروب ، بل إنهم يختلفون حول طريقة كتابة أسماء الأعلام والطريقة الصحيحة لنطقها. وتجد علماء المصريات يختلفون بشكل حاد حول فرعون موسى ، وهل هو رمسيس الثانى أم مرنبتاح أم شخصية ثالثة غيرهما. وتجد علماء الفلسفة قد اختلفوا حول طبائع الأشياء ، وهل الأشياء المادية (كالمصباح مثلا) موجودة فى الواقع بشكل حقيقى (فلسفة الواقعية) أم أنها مجرد وهم لا وجود له إلا فى الذهن (الفسفة المثالية)[16]. ويختلف علماء الفيزياء حتى بشدة حول تفسير نظرية الكَم Quantum theory ، ومعنى الدالة الموجية. كما يختلفون حول طبيعة الجسيمات الأولية، وهل هى جسيمات مختلفة كل منها مثل النقطة أم أنها جميعا مصنوعة من شىء واحد اسمه الوَتَر ، لكنه يهتز بطرق مختلفة ، فيترتب على الاختلاف فى الاهتزاز اختلاف فى الخصائص كالكتلة والشحنة وغيرها. وعلوم الأحياء تفيض بالاختلافات النظرية بين العلماء ، كالاختلافات فى تصنيف أنواع الكائنات الحية ، والعوامل التى ساهمت فى تطورها. وإذا ذهبت إلى أوروبا وأمريكا لوجدتهم قد أنفقوا بلايين الدولارات على بحوث علماء الفيزياء التى تحاول الإجابة على أسئلة نظرية تماما مثل نظرية تعدد الأكوان ، ونظريات نشأة الكون (مثلا هل نشأ الكون فى لحظة الانفجار العظيم أم أنه مر بدورات خالدة من الانفجار والتمدد والتقلص؟)، وكذلك النظريات التى توحد بين ميكانيكا الكم والنسبية العامة (وهل هى نظرية الوتر أم نظرية

---

[16]) انظر فى تفاصيل هذه القضية كتاب: **نظرية المعرفة**. تأليف دكتور/ ذكى نجيب محمود. الباب الأول: طبيعة المعرفة. صفحة 11.

الجاذبية الكمية الحلقية؟). كما أنفقوا بلايين الدولارات على محاولة اكتشاف أشكال للحياة (حتى لو كانت كائنات مجهرية دقيقية) على القمر والمريخ وغير ذلك من الكواكب البعيدة.

وبنظرة عامة إلى كل هذه الخلافات تلاحظ أنها جميعا ذات طابع نظرى ، لا يترتب عليها ضرر ولا نفع يذكر لأحد ، ورغم ذلك **تمول الدول المتقدمة هذه الأبحاث بسخاء شديد ، وذلك لأن معرفة الحقيقة قيمة عليا فى ذاتها.**

والآن عزيزى القارىء انظر إلى إحدى القضايا المحتدمة التى يختلف حولها العلماء المعاصرون مثل طبيعة المادة المظلمة[17] Dark amtter ، وهى المادة الخفية التى تكون أغلب كتلة الكون. إنك ستجد أن بعض العلماء يرون أنها مكونة من جسيم النيوترينو العقيم Sterile neutrino ، بينما يرى آخرون أنها مكونة من جسيم اسمه نيوترالينو Neutralino. وتخيل أن أحد العلماء نشر بحثا يؤيد فيه الفرض القائل بأن المادة المظلمة مكونة من النيوترالينو ، ولكن فيما بعد تبين أن هذا العالم لفق هذا البحث، وأن ما ورد به من تجارب ومعلومات كاذب تماما ، فماذا يكون موقف المجتمع العلمى منه؟ قطعا سيتعرض هذا العالم المزور لعاصفة من الهجوم ، وقد يُفصل من عمله ، وستظل هذه الحادثة وصمة عار فى تاريخه إلى الأبد. لماذا حدث هذا رغم أن هذا البحث لم يضر أحدا ، ولم يؤذ إنسانا؟ الإجابة هى أن **الحقيقة لها قيمة فى ذاتها ، الحقيقة شىء مقدس ، ومن يغير الحقيقة متعمدا فهو شخص عديم الخلق.**

وبالمثل يدخل الترويج للعقيدة الخاطئة فى باب الكذب والتزوير ، ولهذا فنحن نؤكد أن الإلحاد فى ذاته يمثل جريمة خلقية توجب المحاكمة حتى لو رفع الملحدون شعارات الإنسانية والتسامح والسلام والجمال. الإلحاد جريمة فى حق الحقيقة ، والحقيقة هى الشىء الذى لا يمكن أن يختلف اثنان فى العالم على قدسيته. وحتى أولئك الذى يتعمدون المغالطة وإخفاء الحقائق لا يمكنهم أن يجاهروا بتزييفهم للحقائق. وبعبارة أخرى نقول أن **"الحقيقة" هى القيمة الوحيدة التى يتفق عليها كل البشر من كل الأديان والمذاهب والتيارات.** إن هناك دولا لا تؤمن بالسلام ، وشعوبا لا تعتد بالجمال ، وثقافات ترى فى التسامح ضعفا ، ومذاهب – مثل عبادة الشيطان– تعشق السواد وتهيم بسفك الدماء، لكنك يستحيل أن تعثر على مجتمع يجاهر بالدعوة إلى تزييف الحقائق. وبناء على هذا نقول بأعلى الصوت: **الإلحاد واحد من أكبر الجرائم التى عرفها التاريخ لأنه يمثل طعنة فى القيمة التى يشترك كل البشر فى تقديسها: قيمة الحقيقة.** ومن أهمل أمر العقيدة فاعلم أن فى

17) **What Is Dark Matter**? By Nola Taylor Redd. July 19, 2019. **https://www.space.com/20930-dark-matter.html**

خُلقه خللا ، وإن قال لك قائل: "ما لنا والمعتقدات؟ الأخلاق تكفى" ، فقل له: (أنا لا أرضى أن أكون مزيفا ومزورا ، ولذا فأنا أتمسك بالعقيدة الصحيحة ، وأرفض ما سواها. أخلاقى لا تسمح لى بقبول عقيدة غير صحيحة حتى لو كانت تدعو إلى مكارم الأخلاق).

لقد كان أهل الكتاب ينتهجون نفس الأسلوب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يتفاخرون بأنهم أهل الخير ، وأنهم وحدهم الحاملين للواء الفضيلة وسط غابة يسكنها العرب الأميين الذين لا يعرفون قيما ولا يراعون خلقا. ونفس هذا الغرور نراه اليوم من النصارى فى بلادنا حيث يحاولون الظهور بمظهر الأتقياء الأنقياء. والقرآن الكريم يرد على أولئك وهؤلاء بآية رائعة تقول:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا} [النساء: 49، 50]

إن هذه الآية الأخيرة تضع العقيدة فى نفس سلة الأخلاق ، ولذا فمن كان لديه كل الفضائل من رحمة وحب وإحسان وتسامح ولكنه فى نفس الوقت يكفر بالله وينسب إليه صفات ليست فيه فهو ليس نقيا ولا زكيا كما يدعى.

إن الله تعالى هو إله الكون وخالقه وحافظه. ومن ينكر وجود الله ، وينسب الفضل فى وجود الكون بنظامه البديع إلى الطبيعة العمياء يشبه من يتهم العالم ستيفن هوكنج بأنه سرق أبحاثه بحذافيرها من زميل له فى العمل ، وأنه لا يستحق كل هذه الشهرة. إذن الإلحاد يدخل فى باب قول الزور وترويج الباطل.

إنك ترى الواحد من العلماء يقضى أغلب سنوات عمره وهو يحاول أن يثبت الأصالة الفكرية لأحد الفلاسفة ، فيسهر ، ويظل يقرأ ، ويجمع المراجع ، ويفحص المخطوطات ، ويوازن بين الآراء ، وفى النهاية يصل إلى نظرية تؤكد له قيمة هذا الفيلسوف ، فيتحمس لها ، ويجتهد فى نشرها ، ويؤلف فى سبيل ذلك الكتب ، ويلقى المحاضرات ، ويعقد المناظرات ، ويشارك فى الندوات. ولقد رأيت كثيرا من هؤلاء. منهم من كان شغله الشاغل إثبات أصالة فكر ابن رشد ، وتبرئته من التبعية لأرسطو ، والتأكيد على أنه لم يكن مجرد شارح لفيلسوف اليونان. ورأيت من يعد المؤلفات ليثبت أن ابن خلدون ليس الرائد الحقيقى لعلم الاجتماع. وسمعت من يحاول أن يرجع الفضل فى تحرير المرأة المصرية إلى شخصيات سبقت قاسم أمين. وفى كل هذه الحالات تجد المرء يفنى عمره من أجل كشف الحقيقة وفضح الكذب، فكيف يأتى الملحد لينشر الكذب عن الله ورسله ، ويدعى فى نفس الوقت أنه ذو خلق؟

لقد عايشتُ وسائل الإعلام المصرية عقب وفاة الموسيقار محمد عبد الوهاب ، ولا حديث لها إلا عن قيمته الفنية الحقيقية وما إذا كان قد اقتبس ألحانا غربية ونسبها لنفسه أم لا. ورأيت إعلاميا مهرجا اشتهر فى وقت من الأوقات فى الفضائيات لكونه من المعادين للمشروع الإسلامى، ثم شاء الله أن يفتضح أمره ، ويعرف الناس أن المقالات التى كان يكتبها منقولة بالنص من آخرين. وقرأت مرة لأحمد صبحى منصور زعيم القرآنيين[18] وهو يتحدث بأسى كيف أنه كان أول من تطرق لمسألة اضطهاد الأقباط فى عهد الخلفاء الراشدين ، وكيف أن أحد الأقباط سرق بحثه ونسبه لنفسه. ولقد علمونا ونحن نعد رسائل الماجستير والدكتوراة أهمية كتابة المراجع، وكيف أن من الواجب علينا أن نذكر المصدر الذى استقيناها منه كل معلومة ، فلا ننسب لأنفسنا جهود الآخرين وإبداعاتهم.

وإذا كانت السرقات الفكرية من أكبر الجرائم التى يمقتها العالم المعاصر ، ويعتبرها من قبيل اللصوصية والتزوير ، فبم تسمى الملحد الذى يسرق من الله قدرته ، ويجرده من إبداعه فى صنع الكون وخلق الإنسان؟

إن الرجل منا تثور ثائرته إن ادعت زوجته أنه بدون شخصية ، والزوجة تغضب إن قال عنها زوجها أنها محبة للنكد ، ورئيس الدولة لا يستفزه شىء أكثر من أن يقال أنه غير قادر على تصريف أمور الدولة دون كبير مستشاريه ، والشيخ الجليل يغضب إن أشيع عنه أنه يدير وكرا للرذيلة ، والمفكر الكبير يغضب إن ادعى أحد الفاشلين أنه تلميذه المدلل الذى لا يفارقه. وهكذا تجد أن كل من اتُهم بما ليس فيه فمن حقه أن يغضب لنفسه ، ومن واجبنا أن نغضب له ، فكيف بعد هذا تريدون منا أن نسكت حين يشاع عن الله ما ليس فيه؟ وأسوأ ما يمكن أن يقال عن الله أنه غير موجود كما يفعل الملحدون. وما رأيكم فى فتاة انفصل والديها ، فلما سُئلت عن أبيها قالت أنه مات منذ سنوات ، مع العلم أنه لا يزال حيا؟ أليس من حق الأب أن يحزن من تنكر ابنته له؟ رددوا معى: الإلحاد كذب وتزوير وخداع.

الإلحاد غرور واستكبار

الإيمان تواضع ، والإلحاد غرور. حقا من المؤمنين من كان مغرورا ، ومن الملحدين من كان لديه شىء من التواضع ، لكن أنا هنا أتكلم عن قرار الإيمان نفسه ، وأؤكد أنه ينم عن تواضع ، بينما قرار الإلحاد ينم عن غرور. الملحد يكابر ، ويرفض الاعتراف بوجود إله عظيم يأمره وينهاه ويقول

[18]) القرآنيون فى الحقيقة ليسوا معادين للسنة فقط كما يزعمون، ولكنهم معادين للقرآن نفسه. هم مثلا يعارضون الجهاد فى سبيل الله والجزية ، ويطالبون بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث.

له: "افعل هذا، ودعك من ذاك". الملحد يظن أنه بعلمه وماله ومكانته ونفوذه أفضل من عامة المؤمنين ومن رجال الدين ، ومن العار عليه أن ينزل إلى مستوى الدهماء والغوغاء الذين يصدقون كل ما يقال لهم دون تفكير أو تمحيص. وقد عبر القرآن عن هذا المعنى فى أكثر من موضع ، فقال على سبيل المثال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ} [البقرة: 13] ، وقال: {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون: 47] ، وقال: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [الشعراء: 111]. والأرذلون هم الفقراء والمحتقرون وغير السادة[19]. وقال تعالى أيضا: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [هود: 27] . وقال: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31] [الزخرف: 31].

إن عالم الفيزياء الملحد يشعر أن من المستحيل عليه أن يجلس فى مسجد ليستمع إلى خطبة يلقيها شخص ليس له مثل ما لديه من العلم والأبحاث والاختراعات. والفيلسوف الملحد يشعر أن العقيدة الدينية أقل كثيرا مما تموج به رأسه من أفكار وفلسفات ومذاهب، وأنه أكبر من هذا الفكر الدينى السهل الموجه للبسطاء. ورجل الأعمال الثرى الذى تعود أن يأمر فيطاع ، وأن ينحنى له الخدم والموظفون سيجد غضاضة فى أن ينصت باهتمام إلى رجل دين يأمره بتقوى الله. ومقدم البرامج المشهور الذى يتلاعب بالرأى العام كما يشاء سيجد حرجا فى أن يترك داعية بسيط يوجه فكره ، ويقنعه بتغيير حياته. وصدقونى أنه ما من ملحد إلا وفى نفسه قدر غير قليل من الغرور ، كثيرا ما يصل إلى حد مَرَضِى يستحق الرثاء.

والقرآن الكريم يصف الكفار فى مواضع كثيرة بالذين استكبروا ، ويعبر عن كفرهم بفعل الاستكبار ، فقال على سبيل المثال: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ } [الأعراف: 75]. وقال: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأعراف: 36]. وينقل لنا القرآن فى موضع آخر حوارا دار بين الكفار فى الآخرة حيث انقسموا إلى فريقين: الذين استكبروا والذين استضعفوا ، أى الوجهاء والنبلاء من جهة ، والعامة والفقراء من جهة أخرى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ

[19]) الرَّذْل والرَّذِيل والأَرذَل: الدُّون مِنَ النَّاسِ، وَقِيلَ: الدُّون فِي مَنْظَره وَحَالَاتِهِ، وَقِيلَ: هُوَ الدُّون الخَسيس، وَقِيلَ: هُوَ الرَّديء مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَرَجُلٌ رَذْل الثِّيَابِ وَالْفِعْلِ، وَالْجَمْعُ أَرْذَال ورُذَلاء ورُذُول ورُذَال والأَرْذَلون. قَالَ الزَّجَّاجُ: نَسَبُوهُمْ إِلى الحِياكة والحِجامة (انظر: لسان العرب)

اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [سبأ: 31، 33].

إن فعل (استكبر) يعنى (طلبَ الكبر) ، أى أن الشغل الشاغل لهؤلاء الكفار كان البحث عن المكانة الاجتماعية والحفاظ عليها، وقد دفعهم ذلك إلى الكفر بالله لما حسبوا أن الإيمان يغض من قدرهم لأنه يسوى بينهم وبين الفقراء والضعفاء والعبيد، بل يجعل هؤلاء الصغار أقرب إلى الله منهم إن هم تفوقوا عليهم فى التقوى والهمة فى العبادة.

إن الاستكبار آفة من أكبر الآفات التى ابتلى بها البشر. الاستكبار جريمة شنيعة ، ولكنها مع الأسف جريمة خفية من الصعب كشفها. إن كثير من الناس يستهينون بالاستكبار ، ويسمونه "حرص على الكرامة" و "حفظ لماء الوجه" ، ولكن فى كثير من الأحيان يؤدى حرص الإنسان على كرامته إلى كوارث بالغة لأنه يحول بينه وبين الرضوخ للحق. لقد رأيت أطباء يصرون على آرائهم الخاطئة ، ويستكبرون أن يعترفوا لزملائهم بصواب الرأى ، فتكون النتيجة موت المريض بسبب القرار الخاطيء. وقد يحدث الطلاق لأن كرامة المرأة منعتها من أن تعتذر لزوجها عن خطأ فعلته. وقد يخاصم الأخ أخاه لسنوات طويلة بسبب الاستكبار. وقد تشتعل حرب بيد دولتين بسبب الاستكبار. وأخطر جريمة تسبب فيها الاستكبار على مدار التاريخ كله كانت جريمة الكفر ، وكان أول من ارتكبها إبليس الذى ظن نفسه أعظم من آدم وأحق منه بخلافة الله على الأرض ، فطرده الله عز وجل جزاء على تكبره: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } [الأعراف: 13].

والآن عزيزى القاريء إن سمعتَ عن حفل افتتاح مستشفى خيرى للفقراء بتمويل من مؤسسة خيرية إلحادية (على شاكلة الروتارى[20]) فلا تنبهر بأخلاق غير المتدينين ، وتذكر أن كل هؤلاء مستكبرين، يرفضون الاعتراف بأن الله موجود وأن الإسلام هو الحق ، وإخفاء الحق ليس بالخلق القويم؟

20) نحن لا نقول أن كل أعضاء أندية الروتارى ملحدين ، ولكننا نؤكد أن أقل ما يقال فيها أنها مؤسسة علمانية تدعو إلى عمل الخير بشكل منفصل على الدين ، وكفى بها جريمة. أما عن علاقة هذه الأندية بالماسونية فشان آخر ليس هذا مقامه.

الملحدون يتعمدون المغالطة

على الإنسان المعاصر أن يفيق من غفلته ، ويعود إلى رشده ، ويرد للعقل دوره المسلوب فى الحكم على العقائد بعد أن عُطل عن عمد ، وعلاه الصدأ ، وأُخذ منه حقه الشرعى فى تقييم الأديان والمعتقدات. إن أخلاق الملحد المزعومة وحدها لا تكفى ، وعلى الملحد أن يبرهن لنا أولا على صدق عقيدته بالعقل ، لكن الذى يحدث عندنا شيء فى غاية الغرابة ، فأنت ترى الملحد يتجنب الخوض فى البراهين التى تنفى وجود الله ، ويكتفى بالطعن فى أخلاق الدين وشرائعه ، بينما يرد عليه المسلم بالعقل والعلم مناقشا نظرية التطور والنظريات الفيزيائية الحديثة ، فأصبحنا أمام مشهد عبثي أشبه بدولتين تختلفان على أحقية كل منهما فى مقاطعة كبيرة ، فتنقل إحداهما قواتها العسكرية الضاربة لتحتل تلك المقاطعة ، وتستعد لمجيء قوات الدولة الأخرى ، لكنها تفاجأ بأن الدولة الأخرى قامت بعملية إنزال جوى إلى قرية حدودية صغيرة خارج نطاق المقاطعة المتنازع عليها ، ورفعت رايات النصر ، مع أنها لم تجرؤ على خوض المعركة الحقيقية فى المقاطعة الشاسعة محل الخلاف. ونفس هذا المشهد العبثى نراه فى بلادنا ، حيث يصنع المسلم أسلحته الفكرية من نظريات الأحياء والفيزياء والفلسفة، بينما يشهر الملحد سلاح الأخلاق ، مع أن المعركة على الأديان معركة عقيدة فى المقام الأول. حقا من المقبول الاختلاف حول الأخلاق ، لكن من السفه أن نترك لب القضية ، ونخوض غمار قضية فرعية. هذا تعمد سافر للمغالطة. وتعمد المغالطة ليس من الأخلاق فى شيء.

لقد حاورت كثيرا من الملحدين على مواقع التواصل الاجتماعى، ورميتهم بسهام الإسلام الفكرية القاتلة ، فكانوا يرفضون الاعتراف بالحق ، ويلجأون لحيل غير أخلاقية بل منحطة. كان بعضهم يحول النقاش إلى سخرية لاذعة من شخصى كى يجعلنى أغضب وأثور ، وأترك القضية الدينية الأساسية ، وأنشغل بكرامتى الجريحة. وكان بعضهم يرد على الحجة البالغة بردود كثيرة متتالية حتى تتوه حجتى ، وتصبح كإبرة داخل كوم قش. وكان بعضهم يصر على أن يكتب أى رد على تعليقى حتى لا يكون تعليقى القوى هو آخر شيء يقرأه البسطاء ويتأثرون به. وفى إحدى المرات كنت فى مجموعة ملحدة أجنبية فسبونى بشكل جماعى بكلمات فى غاية الانحطاط والسوقية ، فلما سكتُّ وامتنعت عن الرد لم يجدوا أمامهم إلا أن يطردونى من مجموعتهم. والطرد من مجموعات الإلحاد صارا بالنسبة لى أمرا مألوفا، وفى كل المرات التى طُردت فيها لم أكن أنا السبب ، فلم يحدث أبدا أن سخرت من أحدهم أو رددت على الإهانة بإهانة ، وكنت فقط أرد على الحجة

بالحجة. وفى إحدى المرات حذفوا لى منشورا مهما ، فرددت عليهم بعتاب هادىء ، وطلبت منهم أن يردوا على الحجة بمثلها ، فما كان منهم إلا أن أطاحوا بى كالعادة.

ومغالطات الإلحاد لا تنتهى. أذكر أنه فى إحدى المرات ألف بعضهم قصيدة إلحادية تهاجم الإسلام، ونسبوها إلى الأديب المعروف طه حسين ، وروجوا لها بكثافة على مواقع التواصل الاجتماعى. طبعا اكتشفت بسرعة أن القصيدة ملفقة ، وذلك من أسلوبها الركيك ، إضافة إلى قرائن أخرى قوية. ولما طرحت أسباب تشككى على أحد الملحدين أحالنى إلى فيديو بصوت طه حسين وهو يتلو القصيدة ، فلما سمعت الفيديو ضحكت على الفور لأن الفيديو لم يظهر وجه طه حسين ، كما أن صوت المتكلم كان يختلف عن صوت طه حسين المميز ، والأدهى والأمر أن قارىء القصيدة وقع فى أخطاء فادحة وهو ينطق كلماتها ، وهذا لا يمكن أن يصدر من عميد الأدب العربى ، بل يستحيل أن يصدر حتى من مدرس لغة عربية متوسط المستوى. ولما واجهت الملحد مرة أخرى بهذا الكلام لم يجد ما يقول غير السخرية والسب كى يغطى على مغالطته التى افتضحت.

ومغالطات الملحدين أكثر من أن يسعها الحصر ، وهى تصيب المرء بالاشمئزاز ، وتجعلنى أتساءل فى دهشة: كيف يرفع أناس على هذا القدر من الانحطاط راية الأخلاق والفضيلة؟ ألا يخجلون؟

الاستخفاف بالعقول جريمة أخلاقية

لا أحد منا يحب أن يكون مجنونا ، ولا أحد يرضى أن يكون غِرا ساذجا ، ولا أحد يحب أن يخدعه الآخرون ويتعاملون معه كما لو كان طفلا يستمع إلى حكايات ألف ليلة وليلة. والأمر أعظم إن كنت من أصحاب العقول ، فأكثر ما يكرهه الأذكياء أن يتعرضوا للخداع ، ومن الصعب جدا أن يسامح المرء من استخف بعقله ، وجعله يصدق أشياء وهمية لا وجود لها. ويمكنك أن تضع نفسك مكان رجل اشترى قطعة أرض ، ثم اكتشف أن البائع باعها لعشرة أشخاص آخرين غيره فى نفس الوقت ، وقبض الأثمان وهرب. قطعا ستشعر بالكمد والغيظ الشديد. وهب أنك ذهبت يوما تشترى ثوبا ، فوقع بصرك على قميص فى أحد المحال ، فأعجبك لونه ، فلما رآه صديقك أثنى عليه ، وشجعك على شرائه ، فاشتريته ، ثم ارتديته فى اليوم التالى ، فلما قابلك زملاؤك فى العمل سخروا منك بسبب رداءة القميص وعدم تناسق ألوانه وغرابة طرازه الذى لا يليق بمكانتك العلمية. وهب أنك بالمصادفة سمعت صديقك الذى شجعك على شراء القميص وهو يقول لشخص آخر أنه تعمد

أن يوهمك بأن القميص أنيق حتى تكون أضحوكة بين الناس ، فماذا يكون موقفك من هذا الصديق؟ قطعا ستستشيط غضبا ، وقد تعتدى عليه.

والآن نقول بنفس المنطق أن الدعوة إلى الإلحاد استخفاف بالعقول ، ولذا فالإلحاد لون من ألوان الشر. إن الرجل الذى ارتدى قميصا حسبه أنيقا لكنه أثار سخرية الآخرين لا يختلف عن الملحد الذى خدعوه وأخبروه أن الإلحاد يعبر عن رأى العقل والعلم والعصر: كلاهما تعرض للخداع والاستخفاف بالعقل. إن الملحد يتصرف كالمجنون لأنه ينكر وجود صانع لهذا الكون الرائع ، وهذا شيء لا يقول به إلا معتوه ، ألا ترى أن من الجنون القول بأن السيارة أو الطائرة أو السفينة أو المصباح أو القلم أو الهاتف أو غير ذلك من الآلات قد وجدت بمحض المصادفة دون صانع؟

إن الدعوة إلى الإلحاد هى دعوة لنشر الجنون بين العقلاء ، فهل نشر الجنون من الخير؟

الإلحاد أكبر الجرائم الأخلاقية

الإلحاد ليس فقط جريمة أخلاقية ، ولكنه أكبر الجرائم الأخلاقية. لقد أثبتنا أن الإلحاد نكران للجميل، ولكن إذا كان المرء ينكر جميل أعظم شخصية فى الكون أى الله ، وإذا كان ينكر المرء أكبر جميل تلقاه فى حياته ، فهذا يدل على أننا أمام أكبر جريمة على ظهر الأرض.

وأثبتنا أيضا أن الإلحاد يمثل تزييفا للحقيقة ، فما بالك إذا كان الملحد يقوم بعملية تزوير تتعلق بالكون كله حيث يدعى أن هذا الكون الشاسع البديع قد صُنع بلا إله؟ وما بالك إذا كان التزوير يترتب عليه سلب أعظم شخصية فى الكون (الله) من حقها ، وعزو جهدها إلى آليات مادية تافهة أو أوثان حقيرة؟

وقلنا كذلك أن الإلحاد ينطوى على غرور واستكبار ، فما بالك إذا كان الملحد يتكبر على الله؟ إنه إذا كان من المعتاد أن يتكبر الزميل على زميله فإن من غير القبول على الإطلاق أن يتكبر الصغير على الكبير أو التلميذ على الأستاذ. لا شك أننا جميعا نحتقر هذا النوع من البشر. وأعترف الآن نادما أننى فى يوم من الأيام كنت من هذا النوع ، فقد كنت فى بداية عملى كطبيب أقرأ كثيرا، أكثر من كل زملائى ، وكنت أشعر أن ما عندى من معلومات أكثر من أساتذتى والأطباء الأكبر سنا ، ولذا كنت أتخذ كثيرا من القرارات من نفسى دون أن أرجع إليهم وأستعين بخبرتهم ، حقا كانت جهودى الخاصة تنجح فى بعض الأحيان ، لكن لما أتذكر تلك الأيام أشعر بأن كثيرا من الأخطاء الطبية كان من الممكن تلافيها لو تحليت ببعض التواضع ، واستفدت من خبرات الكبار. والآن انقلب الوضع ، وصرتُ أستاذا جامعيا ، وأصبحت من حين لآخر أقابل طالبا شديد الثقة بالنفس إلى حد الغرور والتعالى على أساتذته ، فأشعر بمدى حقارة صفة الاستكبار ، وأزداد ندما على ما بدر منى. وكل الأطباء يعرفون جيدا ذلك النوع من المرضى الذى اطلع على معلومات كثيرة عن مرضه أو مرض ابنه ، فظن أنه أكثر قدرة من الطبيب على التشخيص وتحديد نوع العلاج ، وترى بعضهم يذهب إلى الطبيب خصيصا ليثبت له أنه خبير بمرضه ، وعليم بحالته. ولا زلت أذكر أحد الآباء المغرورين من هذا النوع الذى ظل يعطى ابنه دواء من نوع الثيوفللين لعلاج الكحة دون استشارة الطبيب حتى أصيب الطفل بتسمم من الدواء نتيجة الجرعة الزائدة، فكان درسا قاسيا لأب جاهل مغرور.

وهكذا فإذا كان من أقبح الأمور أن يتكبر الصغير على الكبير فما رأيك إذا كان المتكبر إنسانا يتعالى على الإله الذى خلقه وصوره؟ كيف يعقل أن يغتر الإنسان بقدراته ، فيتكبر على الإله الذى

منحه تلك القدرات؟ هذا يشبه فقيرا أنعم عليه غنىٌّ بمال كى يشترى ثوبا بدلا من ثوبه المهلهل ، فلما ارتدى الفقير الثوب أخذ يقول لله: (هذا الغنى ليس أكثر أناقة منى ولا أغلى ثوبا). ما أحقر هذا الفقير !

إن المرء ليتعجب حقا من مدى حقارة الإنسان ، وكثيرا ما أتساءل: من أين أتى الملحد بكل هذا الغرور؟ إنك إن نظرت إلى الإنسان لوجدت أنه مخلوق شديد الضعف شديد الحقارة ، فهو يسكن كوكب واحد وسط بلايين البلايين من النجوم والكواكب فى الكون الشاسع ، والملحد هو مجرد واحد من بلايين الناس على هذا الكوكب الصغير. والأرض بلا شك كوكب حقير ، ويمكنك أن تقارنها بالشمس ، لتكتشف أن قطر الشمس أكبر من قطر الأرض ب 109 مرة. والشمس بدورها مجرد نجم متوسط الحجم ، فبعض الأجرام السماوية – كالعمالقة الحمراء– أكبر منها حجما بمقدرا 700 ضعفا ، وأشد إضاءة بمقدار 14000 مرة. وجاذبية الأرض شديدة التفاهة بالنسبة لجاذبية النجوم النيوترونية ، وبالنسبة للثقوب السوداء التى تمنع حتى الضوء من الفرار من أسر جاذبيتها الرهيبة. والشمس مجرد نجم واحد ضمن 100–400 بليون نجم فى مجرة درب التبانة. وهذه المجرة تدور حول ثقب أسود عملاق فى مركزها اسمه ساجيتاريوس أ (Sagittarius A*) ، تبلغ كتلة 4 مليون ضعف كتلة الشمس. ودرب التبانة بدورها مجرة واحدة ضمن 2 تريليون (2 مليون مليون) مجرة فى الكون[21]. أما الكون كله فذو حجم يصيب المرء بالدوار. لقد قدر العلماء أن نصف قطر الكون المنظور يبلغ 13.8 بليون سنة ضوئية ، وقطره حوالى 28 بليون سنة ضوئية ، أى أن الإنسان لكى يرحل عبر الكون كله فعليه أن يسافر بسرعة الضوء ، ورغم هذه السرعة الخرافية التى لا يقدر عليها أحد من البشر إلا أن الإنسان سيحتاج من حيث المبدأ إلى 28 بليون سنة كى يتم رحلته. والأدهى أن هذا المسافر سيكتشف أثناء الرحلة أن الكون يتمدد بسرعة تفوق سرعة الضوء، أى أن القطر الحقيقى للكون يبلغ حوالى 92 بليون سنة ضوئية[22]. يا إخوانى الإنسان بالنسبة للكون أقل كثيرا من الحشرة أو النملة بالنسبة للديناصور. والغريب أن نفس هذا المخلوق التافه الحقير يتعالى ويتكبر ويتجرأ على الإله الذى خلق هذا الكون الشاسع. هل أدركتم الآن حجم الجرم الأخلاقى للإلحاد؟

---

[21]) **Galaxies, explained**. BY Michael Greshko. National Geographic. https://www.nationalgeographic.com/science/space/universe/galaxies/ ; accessed March 12, 2020.

[22]) **How big is the Universe**? By Nola Taylor Redd June 07, 2017, https://www.space.com/24073-how-big-is-the-universe.html; accessed March 12, 2020.

إن الجريمة تكبر كلما كبر من ارتكبت فى حقه. الصحف تمتلىء يوميا بمئات الوقائع عن اعتداء مواطن على مواطن ، لكن فى أحد الأيام تصدر أحد الأخبار صدر كبريات الصحف فى العالم ، وذلك حين تعرض الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن للقذف بالحذاء أثناء مؤتمر صحفى مع نظيره العراقى.

وكما قلنا أن الإلحاد جريمة لأنه يتضمن إنكار فضل الله ، وينطوى على التكبر على الخالق ، فكذلك الإلحاد يمثل استخفافا بالعقول. والإلحاد ليس فقط خدعة ، ولكنه أكبر خدعة فى التاريخ لأنه يؤدى يوهم الإنسان بأنه حر فى أن يفعل ما يشاء فى الدنيا ، وأن لن يحسب على أى جريمة يقترفها ، ولكن لما تقوم الساعة يكتشف الإنسان أنه تعرض لخديعة كبرى ، وأن مصيره إلى النار ، وأنه قد خسر الجنة ، فهل هناك خسارة أفدح من تلك؟ إن المرء قد يتعرض للاحتيال فيخسر منزلا أو قطعة أرض أو أموالا ادخرها ، فما بالك بمن يخسر كل شىء فى الآخرة؟ وهو لن يخسر فقط كل شىء بل سيذوق من العذاب صنوفا لم ير مثلها قط. ألستم معى فى أن الإلحاد أكبر خدعة فى التاريخ؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الثالث: كيف تزدهر الأخلاق فى وجود الدين؟

1-عمل الخير بدوافع غير دينية

لكى نفهم المشكلة الخلقية جيدا فلا بد أن نعلم أن هناك **دوافع طبيعية غير دينية** موجودة عند كل البشر ، بل أحيانا عند بعض الحيوانات ، وهذه الدوافع تسوق الإنسان إلى فعل الخير سواء أكان مؤمنا أم كافرا. وبعبارة أخرى نقول أن الإنسان كثيرا ما يفعل الخير ، وهو لا يبتغى وجه الله. وبعد معاناة فى التصنيف استطعت أن أحصى كل هذه الدوافع غير الدينية. وربما كان هناك دوافع غيرها لم أفطن إليها ، وربما كان هناك بعض التداخل بين الدوافع ، بيد أن هذا لا يغير من الفكرة العامة شيئا. وإليكم هذه الدوافع:

أولا: عمل الخير بدافع الشفقة

هذا من أهم الدوافع لعمل الخير ، وكثير من الناس يظنون أنه الدافع الوحيد رغم أن هناك دوافع أخرى كثيرة. ومن صور الشفقة أن المارة إن رأوا رجلا صدمته سيارة في الطريق ، فسالت من رأسه الدماء ، وأخذ يصرخ من الألم ، فإنهم يسارعون إلى إنقاذه. وإن رأى الناس أما تبكى على شاشة التلفاز بسبب عجزها عن علاج ابنها المريض فإن الاتصالات تنهال على البرنامج من آلاف المشاهدين الذى رقت قلوبهم لحالها ، فقرروا أن يقدموا لها المساعدة. وإن مات أبوان في حادث وتركا ابنهما الرضيع حيا فإن الأقارب يبكون لهذا اليتيم ، ويتسابقون لكفالته. والأمثلة على عمل الخير بدافع الشفقة لا تحصى.

ثانيا: عمل الخير بحكم الخِلْقة والتكوين

من المعروف أن طبائع البشر تعتمد إلى حد كبير على التركيب الدقيق للمخ والطريقة التى يعمل بها ، وهذا بدوره يتأثر بالجينات الموروثة والعوامل المكتسبة ، فبعض الناس وهبه الله تعالى جينات (ورثها عن آبائه وأجداده) ، فجعلته رقيقا لينا ودودا مطيعا مؤدبا حنونا محبا للتعاون مع الناس ، وبعضهم على العكس قاسيا غليظا. وكلنا نلاحظ أن ابنة المرأة الرقيقة تكون فى العادة رقيقة مثل أمها، أما المرأة المشاكسة فكثيرا ما تكون ابنتها مشاكسة مثلها.

ومن الأمثلة الطريفة أننى عملت فى إحدى المستشفيات مع بعض الممرضات ، فكانت إحداهن فى غاية الأدب والطاعة والهدوء ، بينما كانت ممرضة أخرى تتسم بالعنف والشراسة والتمرد. وبعد عدة سنوات اكتشفت بالمصادفة أن الأولى مصابة بنقص فى نشاط الغدة الدرقية ، بينما الثانية لديها نشاط مفرط للغدة الدرقية ، ومعروف أن الخلل فى نشاط الغدة الدرقية يؤثر على الحالة المزاجية للإنسان ، فيصيبه بالهدوء الذى يصل لحد البلادة ، أو يؤدى إلى التوتر والعصبية. وأذكر كذلك أن أحد زملائنا كان يتسم بالعصبية ، لكن حدث له حادث سيارة ترتب عليه نزيف فى المخ، ففوجئنا بأن مزاجه قد تغير بعد الحادث ، فأصبح شديد الهدوء، ولم يعد عصبيا. ومن المعروف أيضا أن هناك أدوية تؤثر على عواطف الإنسان وسلوكه ، فتقلل من التوتر أو الخوف أو الخجل أو الاكتئاب ، وهذا يثبت وجود أجزاء من المخ مسئولة عن هذه المشاعر ، ولولا ذلك لما كان لهذه الأدوية من تأثير. حقا دور الجينات ودور مراكز المخ فى التأثير على السلوك غير مفهوم تماما حتى الآن إلا أن الدلائل على وجود الأثر لا تُنكر.

باختصار: كثير من الناس يفعلون الخير بشكل آلى بسبب الشكل الذى خُلقت عليه عقولهم دون أن يكون في بالهم أنهم يرضون ربهم.

ثالثا: عمل الخير بحكم العادة والعرف

فى كثير من الأحيان يفعل الإنسان الخير لمجرد أن سائر أفراد المجتمع يفعلونه. على سبيل المثال منذ حوالى خمسين سنة كان الأبناء في القرى المصرية يحترمون الآباء ، وكانت النساء تلتزمن بالحشمة والوقار ، وكانت الزوجة تخضع لزوجها وتعتبره سيدها. وهذه العادات الحسنة كانت تتم بحكم العرف ، وليس رغبة في إرضاء الله ، بدليل أنه حتى الإنسان سيء الخلق كان يحذر من مخالفة ما درج عليه قومه. وفي بلاد الغرب الكافرة يتسم البحث العلمى الطبيعى بالأمانة والدقة لأن العلماء هناك نشأوا في بيئة تأخذ البحث العلمى بجدية، وتعتبره أداة التقدم الأولى ، والطالب الذى يتربى في هذا المناخ يتصرف بشكل آلى كما يتصرف المحيطون به بنفس الأمانة دون أن يشعر أنه يعمل عملا أخلاقيا.

رابعا: عمل الخير طلبا للمنفعة الدنيوية

بعض أصحاب المحال يعاملون زبائنهم باحترام شديد ولين مفرط ، ليس لأنهم يحبون الخير ، ولكن بهدف استمالة المشترين وزيادة الأرباح. وعرفت رجلا يحرص على زيارة أقاربه ليس محافظة على صلة الرحم ، ولكن لأن هؤلاء الأقارب أغنياء ، ويكرمونه بالطعام والشراب والهدايا كلما حل عليهم ضيفا. وقد تعرضت شخصيا لمواقف كثيرة مع أصحاب المناصب والنفوذ الذين كانوا يعرضون عليّ الخدمات والتسهيلات ، وفى البداية كنت أتخيل أنه كرم منهم ، لكننى اكتشفت أنهم يعرضون خدماتهم كى أرد الجميل بأن أقدم لهم خدمات ليست من حقهم في المستشفى التي أعمل بها. وبالمثل إذا مات والد أحد الوزراء فإن كل الناس تذهب لتعزيته ، ليس لأنهم حزنوا لوفاة الرجل ، ولكن لأنهم يريدون أن تكون لهم يد عند الوزير، فيلبى لهم مطالبهم إن احتاجوا منه شيئا فيما بعد. وكما هو واضح ففى هذه الحالات نجد أن الهدف من وراء الخير هو أن يحصل الإنسان على مقابل أو منفعة دنيوية دون أن يكون قاصدا لعمل الخير.

خامسا: عمل الخير رغبة فى رؤية الآخرين سعداء

هذا الدافع قليل الوجود ، لكننى قابلت بعضا من الأمثلة عليه ، ومنهم أناس من أقاربى ممن كانوا يشعرون بنشوة كبيرة إن رأوا البسمة على وجوه الآخرين. أحد أقاربى كان يستمتع جدا حين يرى السرور على وجوه الفقراء ، وهو يمنحهم الصدقات. وكان لى قريب آخر يحب الثناء على الناس لأنه يحب أن يراهم سعداء. ومن الأمثلة على هذا النوع ملحن معروف كان مشهورا بمجاملاته للناس ، بما فى ذلك بعض المطربين غير الموهوبين. وهذا الصنف من الناس لا يبتغى بعمله الصالح وجه الله ، ولكنه يشبع رغبة داخلية في نفسه.

سادسا: عمل الخير رغبة في ملء وقت الفراغ

من هذا النوع كثير من الأثرياء المرفهين الذين ينضمون لعضوية الجمعيات الخيرية أو المنظمات غير الحكومية أو أندية الروتارى التي تساعد المحتاجين والمرضى والمظلومين ، وذلك لأنهم لو لم يشاركوا في هذه الأنشطة لخنقهم الفراغ وقتلهم الملل. وكان عندنا فى كلية الطب أستاذ يتفاخر بأنه يذهب إلى المستشفى أياما أكثر مما هو مطلوب منه ، وكنا نعرف – كما اعترف هو ذات

مرة– أنه يفعل ذلك لأنه يكره البقاء فى البيت دون نشاط ، أى أن ما دفعه للاهتمام بالعمل ليس الحرص على مصلحة المرضى.

سابعا: عمل الخير خوفا من العقاب

قد تجد الموظف يبتسم في وجه العملاء حتى لا يفصله مدير الشركة. وقائد السيارة يلتزم بقوانين المرور خوفا من الغرامة المالية ، وليس حبا النظام. والمرأة قد تحرص على ألا تضايق جارتها بأى شكل من الأشكال ، ليس حبا فى هذه الجارة ، ولكن لأن هذه الجارة سليطة اللسان ، وتسارع إلى الشجار كما تسارع النار نحو البنزين. وفى كل هذه الحالات يفعل الإنسان الخير ليس لأنه على خلق ، ولكن لأنه يخشى العقاب.

ثامنا: عمل الخير رغبة في سماع المديح.

بعض الناس يسكرون من سماع كلمات الشكر التي تغذى القلوب وتشبع النفوس. وهذا النوع من فاعلى الخير يسعى دائما للحصول على مقابل لما فعله من خير ، والمقابل الذى يريده ليس مالا ولكنه ثناء وعرفان. ومثل هؤلاء الأشخاص يُكثرون من الحديث عن خدماتهم وأفضالهم ، وكأنهم يتسولون الشكر من الآخرين.

تاسعا: عمل الخير تجنبا لمذمة الناس

كثيرا ما يشعر الإنسان برغبة عارمة في أن يسب إنسانا بأقبح الألفاظ ، ولكنه يمسك لسانه حتى لا يقال أنه غير مؤدب. وقد يتورط الغنى فيتبرع لمسجد فى قريته إن فُتح باب التبرع علنا بعد صلاة الجمعة حتى لا يقال أنه بخيل ، لكنه إن صلى في مسجد في بلد بعيد ، ووُضع فى نفس الموقف فإنه لا يتبرع بشيء. وربما يود الرجل أن يسلب ميراث أخته ، لكنه يخشى أن يقول عنه الناس أنه جشع. وكثير من الأشخاص الذين لديهم شخصية قلقة يلازمهم هاجس بشأن صورتهم فى أعين الآخرين، وتجدهم يشعرون بتوتر شديد إن أحسوا أن الناس ترى فيهم عيبا. وقد يصل بهم القلق إلى حد عدم القدرة على النوم إلا بعد أن يفعلوا ما يحسن صورتهم أمام منتقديهم.

والحرص على تجنب ذم الناس يكون فى أشد حالاته حين نقابل أناسا نعرفهم لأول مرة أو لا نلتقى بهم كثيرا ، فهنا يكون المرء شديد الحرص على ألا يظهر بمظهر غير لائق أمام الآخرين.

عاشرا: عمل الخير رغبة في إظهار النفوذ

بعض الأطباء كلما رأى أهل قريته في المستشفى التى يعمل بها رحب بهم ، وظل يرافقهم ويساعدهم على قضاء حوائجهم ، وكل ذلك حتى يثبت للناس أنه طبيب كبير ، وذو نفوذ وكلمة مسموعة في المستشفى ، وهذا سينعكس على عيادته الخاصة حيث سيقبل المرضى عليه كى يسهل دخولهم للمستشفى للعلاج إن تطلبت حالتهم ذلك. وعرفت أيضا موظفا كبيرا كان يسعى بكل جد في إتمام مصالح أهل قريته والقرى المجاورة ، ويشعر بسعادة غامرة كلما لجأ إليه إنسان فى مأزق. كان هدف هذا المسئول أن يعرف الناس أنه صاحب سلطة ونفوذ كى يجد منهم التأييد حين يرشح نفسه فى انتخابات البرلمان. وواضح أن هؤلاء المسؤلين لا يفعلون الخير لكونهم يحبون الخير ، ولكن لأنهم يريدون إظهار النفوذ.

أحد عشر: عمل الخير من أجل تحقيق الذات

كثير من المسئولين يجتهدون في أعمالهم لأنهم يريدون أن يشعروا أنهم نجحوا في حياتهم العملية، وحققوا كثيرا من الإنجازات. مثلا لما تولى أحد الأطباء إدارة المستشفى قام بإصلاحات كثيرة مهمة أدت إلى راحة المرضى والأطباء ، ولكن هذا المدير لم يكن يدفعه لذلك الرغبة في مصلحة الناس، بل كان كل همه أن يثبت لنفسه وللآخرين أنه رجل كفء وناجح وقادر على صنع المعجزات. ويدخل فى هذا الباب أيضا الغالبية العظمى من رؤساء الدول والسياسيين وزعماء الأحزاب الذين يعتبرون العمل العام مجالا لإثبات كفاءاتهم ، وليس وسيلة لتحقيق مصالح العباد.

اثنا عشر: عمل الخير استجابة لإلحاح الآخرين

يمكن للرجل أن يشترى لزوجته ثوبا ليس لأنه يحبها ، ولكن لأنه يريد أن يتخلص من إلحاحها ونكدها. والأب يمكن أن يشترى لابنه لعبه حتى لا يقابل بنوبة من البكاء لدى عودته إلى البيت كل يوم. ويمكن للمرء أن يتصدق على فقير لمجرد أنه ظل ماشيا وراءه ومتعلقا بثيابه في الشارع. والبرلمان يمكن أن يمرر قانونا عادلا استجابة لضغوط الصحافة والإعلام ووسائل التواصل الإجتماعى. وبالجملة فكثير من قراراتنا تنبع من رغبتنا في التخلص من الإلحاح الذى لا يحبه أحد. وواضح أن هذا النوع من الخير يتوقف تماما إن غاب الإلحاح.

ثالث عشر: عمل الخير حرصا على بقاء الجماعة

يتجلى هذا الدافع وقت الكوارث والأزمات الكبرى. على سبيل المثال إن تعرضت إحدى المدن لزلزال مدمر أو فيضان أو إعصار أو حرب ، وسقط الآلاف من الضحايا فإن كل فرد يتحول إلى شعلة نشاط ، ليس فقط لينقذ نفسه ، بل لينقذ كل من لا يعرفه. ومن قبيل ذلك ما رأيناه فى حرب أكتوبر عام 1973 م حين توقفت الجرائم تماما فى مصر كلها. وأثناء ثورة 25 يناير المصرية حدث انفلات أمنى كبير ، وانسحبت الشرطة ، فخرج الناس إلى الشوارع ، يحرسون البيوت والممتلكات ، وينظمون المرور ، ويطاردون المجرمين ، وكان الحب يملأ القلوب ، وكل واحد يخاف على جاره كما يخاف على نفسه. إن وقت الأزمات الكبرى وقت ملهِم ، حيث يصير الجميع جسدا واحدا ، ويتناسون الخلافات الشخصية خوفا على مصير وطن فى مهب الريح. وهنا نذكر اتحاد زعماء المماليك ، ووقوفهم يدا واحدة فى مواجهة قوة التتار الكاسحة ، فانتصروا فى معركة عين جالوت ، ولكن مع الأسف لما زال الخطر طفت الأحقاد مرة أخرى ، فانقلب بيبرس على قطز ، وقتله بعد أيام من النصر على التتار[23]. وبالمثل لما تحقق النصر لثوار 25 يناير فى مصر بدأت الخلافات بين أصحاب الميدان الواحد لأسباب لا داعى للخوض فيها الآن. والمهم أن حالة الخطر تؤدى إلى كمون الشر ، وظهور الخير[24].

رابع عشر: عمل الخير بدافع الفرح

حين يشعر الإنسان بسعادة غامرة فإنه يميل إلى إسعاد من حوله. مثلا كان من عادة الناس فى القرى أنه إن نجح طالب فى الامتحان فإن أباه يوزع الحلوى والهدايا على الأقارب والجيران والفقراء، ليس لأن الله يحب هذا العمل ، ولكن لمجرد أنه سعيد ، وسعادته تفيض على من حوله. ومن أمثلة ذلك أيضا رجل تشاجر مع زوجته ، وظل يهجرها لعدة أيام ، لكن لما جاءه خبر فوزه فى

---

[23]) يروى ابن خلدون مقتل قطز كما يلى: (كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثاره وكان قطز هو الّذي تولى قتله فكان مستريبا بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدّمون فيهم يومئذ بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني وبليان الرشيديّ وبكتون الجوكنداري وبند وغار التركي فلما انهزم التتر من الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثار أقطاي فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه وتقدّم إليه أنز شفيعا في بعض أصحابه فشفعه فأهوى يقبل يده فأمسكها وعلاه بيبرس بالسيف فخرّ صريعا لليدين والفم ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه وتبادروا إلى المخيم وقام دون فارس الدين اقطاي على ابن المعز أيبك وسأل من تولى قتله منكم فقالوا بيبرس فبايع له وأتبعه أهل المعسكر ولقبوه الظاهر وبعثوا أيدمر الحلي بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك). نقلا عن: **تاريخ ابن خلدون** (5/ 438).

[24]) ليست هذه القاعدة عامة ، فالخطر لما يزيد أكثر وأكثر ، ويصل إلى حدود لا تطاق يقول الإنسان وقتها: (نفسى نفسى) ، فمثلا إن شب حريق فى أحد الأماكن العامة ، وحوصر الناس ، ولم يجدوا أمامهم إلا مخرج من باب وحيد ، فإنهم سيتقاتلون ، وسيدفع كل واحد الآخر كى ينجو بنفسه أولا ، ولن يفكر الرجل وقتها وهو يدوس على شيخ أو طفل أو مريض.

إحدى المسابقات عاد إلى البيت سعيدا ، وأخذ يسترضى زوجته. ومن قبيل ذلك نهى القرآن للمرأة المطلقة أن تكتم خبر حملها[25] ، وذلك لأن الرجل إن علم أن امرأته حبلى فإن فرحته بالولد قد تنسيه الدواعى التى حملته على تطليقها ، فيردها.

خامس عشر: عمل الخير على سبيل الهواية

أحيانا يظن الناس أن أحد الأشخاص رجل خير مع أنه فى الحقيقة لا يقصد أن يفعل الخير بل يمارس هواية من الهوايات. وقد رأينا من هذا النوع نماذج عديدة: مثلا كان بعض زملائنا من الأطباء شديد الاهتمام بالمرضى فى المستشفى الحكومى الذى يعمل به ، وكان يتابعهم متابعة لصيقة ، وكان بعضنا ينظر إليه على أنه إنسان صالح متفان فى عمله ، لكن نحن المقربين منه كنا نعلم جيدا أنه ليس من ذلك النوع الذى يحب أن يتقرب إلى الله بالإخلاص فى رعاية المرضى، ولكنه كان شديد الحب للعلوم الطبية ، مولعا باكتساب الخبرة فيها ، وكان يجد متعة شديدة ، وهو يستمع لشكوى المريض ويجرى له التحاليل كى يشخص مرضه الغامض أو يعالج حالته المستعصية. وأعترف أننى وقعت فى بداية عملى فى الطب فى هذا الفخ ، ففى إحدى المرات اشتبهت فى إصابة أحد الأطفال فى الرعاية المركزة بعيب خلقى فى الرئة ، ورغم حالة الطفل الحرجة إلا أننى أصررت على أن أنقله بسيارة إسعاف إلى مركز للأشعة خارج المستشفى ، وذهبت معه بنفسى إلى أن أجريت الأشعة ، ثم عدت به. وقتها كان البعض ينظر بإعجاب إلى التفانى الذى أظهره تجاه المرضى فى مستشفى حكومى لا يحس فيه أحد بجهد المخلصين ، ولكن الحقيقة أننى كنت أفعل شيئا أحبه وأستمتع به ، لقد كنت أمارس رياضة ذهنية يعرفها الأطباء جيدا ، ألا وهى تشخيص الحالات الغامضة. وأذكر أيضا أننى كنت كلما رأيت أشعة غامضة لا يعرف أحد أن يفسرها فإننى كنت أجد فى نفسى نشاطا كبيرا ، فأذهب إلى قسم الأشعة البعيد كى أسأل أحد الأساتذة كى يحل لى اللغز. كان هذا فى بداية حياتى العملية حين كنت حديث عهد بالطب ، فقد فطرت على الحب الشديد لكل ما هو جديد أو غامض. والحمد لله أننى صرت أكثر عقلا مع تقدم العمر ، وأصبحت أبتغى بعملى رضوان الله أكثر من إشباع الرغبة فى الاستمتاع بإثارة الطب. ومن الأمثلة الأخرى على هذا النوع من الدوافع ما نراه من حرص بعض الأساتذة على التدريس للطلبة ونقل خبراتهم إليهم ، وربما وجدتَ مدرسا أكثر حرصا من الطلبة على أن تعقد المحاضرة

[25]) {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا} [البقرة: 228]

فى موعدها ، وقد يتحامل على نفسه وقت المرض حتى لا تضيع المحاضرة. ورغم ذلك فهذا المدرس المجتهد فى الحقيقة يمارس هواية التدريس، وربما لو كان يحسن هواية أخرى لما اهتم بتعليم أحد. وأحيانا تجد مدرسا متخصصا فى مجال لا يهتم به أحد من عامة الناس ، وفى أحد الأيام يقابل هذا العالم رجلا مهتما بنفس مجال تخصصه ، فهنا تجد العالم ينبرى ليعرض أفكاره ، ويتكلم عنها باستفاضة ، وينزل لمستوى ضيفه ، ويعرض عليه تقديم أى مساعدة فى أى وقت ، ويعطيه رقم هاتفه الخاص مع أنه لا يتصرف بهذا التواضع مع عامة الناس ، وكل ما فى الأمر أنه يجد لذة فى الكلام عن موضوعات يعشقها.

سادس عشر: عمل الخير كتعبير عن الحب والإعجاب

هذه الحالة منتشرة بشكل كبير ، وهى بالغة الأهمية ، حيث تجد الخير نابعا من الحب وتابعا له، فالمرء إن أحب إنسانا رحمه ، وعطف عليه ، وأحسن معاملته ليس لأنه رجل فاضل ذو خلق ، ولكن كتعبير عن الحب والإعجاب وتقدير الجمال. ومن المواقف التى أذكرها أننى كنت أنهى بعض الإجراءات فى إحدى المصالح الحكومية ، وكان الزحام كبيرا ، والجو شديد الحرارة ، وكان أحد المواطنين يرجو الموظف أن يدخل قبل دوره بسبب ظروف خاصة ، لكنه لم يأبه لرجائه، وفجأة أقبلت شابة جميلة متبرجة ، وطلبت من الموظف أن تدخل، فسمح لها على الفور بالدخول دون أى اعتراض ، فما كان من الرجل الذى كان يريد الدخول إلا أن صرخ قائلا للموظف: (اعتبرنى أمراة وأدخلنى. أنا امرأة. أدخلنى).

وعمل الخير بدافع الحب شديد الانتشار بين الشباب ، حيث يحاول الشاب التقرب إلى الفتاة ، وتحاول الفتاة التقرب إلى الشاب من خلال حسن المعاملة والأدب والرقة. ولنفس السبب ينبهر الرجل بأخلاق المرأة ، وتنبهر المرأة بأخلاق الرجل فى فترة الخطبة حين يكون الحب متوقدا ، ولكن لما يفتر الحب بعد الزواج تسوء الأخلاق لأن الدافع لوجودها وقت الخطبة قد اختفى.

وهذا النوع من دوافع الخير لا يقتصر فقط على الحب بين الرجل والمرأة ، ولكنه يشمل أيضا حب الصديق لصديقه والأخ لأخيه والأم لطفلها وكل أنواع الحب. على سبيل المثال يقف الرجل بجوار صديقه إن مرض ابنه ، ويقدم له المساعدة المادية والمعنوية ليس لأنه يقصد عمل شكل من أشكال الخير ، ولكن لأنه يحب هذا الصديق ، بدليل أن هذا الشخص لم يفكر فى مواساة صديق آخر مات ابنه لأن هذا الصديق ليس مقربا منه مثل الأول.

سابع عشر: عمل الخير رعاية لأولى الأرحام

هذا الدافع شائع للغاية إلى درجة أننا لا نعتبره من قبيل الخير بل مجرد فعل آلى طبيعى. إن كل إنسان يجد نفسه ملزما برعاية أفراد أسرته المسئولين منه: الأب يطعم أولاده، ويكسوهم ، ويكد من أجلهم. والأم تخدم أبناءها ، وتسهر على راحتهم ومرضهم. والعم يعول أولاد أخيه بعد موت أبيهم، والخال يتكفل بنفقات زواج بنت أخته اليتيمة. وكل هذا يتم دون مقابل ، ودون أن يحس أحد أنه يؤدى شكلا من أشكال الخير والخلق الحميد، لكن هذه هى الحقيقة بدليل أنه يمكن تصور وجود أب ينشغل عن أولاده بلذاته ، أو أم تنشغل عن بنيها بدراساتها العليا وعملها.

ثامن عشر: عمل الخير بدافع ضعف الشخصية

هذا الدفع موجود بكثرة ، فبعض الناس تلقى منهم الأدب والرقة والطاعة والكرم ليس لأنهم أصحاب خلق قويم ، ولكن لأنهم ضعاف الشخصية أمام الآخرين. على سبيل المثال زار أحد وجهاء القرية رجلا فقيرا كى يتوسط فى حل إحدى المشاكل ، فقابله الفقير بالحفاوة والترحاب ، واستجاب لوساطته، وتنازل عن حقه إكراما لتشريف هذا الوجيه له فى بيته ، مع أن هذا الفقير سبق أن رفض كل دعوات التصالح ، وأظهر من سوء الخلق وسلاطة اللسان ما تحاكى به أهل القرية. وفى أحد أقسام كلية الطب كان هناك رئيس قسم شهد له عميد الكلية ورئيس الجامعة بحسن الخلق ، وكان رئيس القسم بالفعل يلتزم بتعاليم الرؤساء ، ويظهر لهم الود والمجاملة ، وكنا نعرف أن ذلك ليس بسبب حسن خلقه، ولكن لأنه ذو شخصية ضعيفة ، ولا يحتمل نفسيا أن يُغضب الكبار رغم أنهم لا يستطيعون أن يضروه ضررا حقيقيا. وفى أحد الأيام نشب شجار بين امرأتين كلتاهما معروفة بسوء خلقها ونزوعها نحو الشر والعراك ، فرأينا مشهدا عجيبا ، حيث انطلقت إحداهن موجهة سيلا من الإهانات للأخرى ، بينما وقفت الأخرى منكسرة ، ومحاولة بشتى السبل استرضاء الأولى ، ومن رأى المشهد لأول مرة ظن أن من غُلبت فى الشجار كانت امرأة فاضلة ، مع أن كل ما حدث هو أنها كانت أضعف نفسيا من غريمتها ، فلم تقدر على مجاراتها فى الصوت العالى والحجة القوية والإهانات المبتكرة.

* * * * * * * *

كانت هذه هي الدوافع التي تمكنت من أن أحصيها ، والتي أرى أنها تحرك الإنسان لعمل الخير. وأكرر أنه ربما وجدت دوافع أخرى لم التفت إليها ، لكن هذا لا يغير من مجمل الصورة الفكرية. كما أنه فى بعض الأحيان يلاحظ وجود شىء من التداخل بين هذه الدوافع ، فبعض أعمال الخير يكون المحرك لها ليس دافع واحد بل أكثر من دافع. على سبيل المثال الأم التى ترعى أولادها يمكن أن نقول أن لديها عدة دوافع مثل 1- رعاية أولى القربى 2- دافع العادة والعرف (لأن كل أم فى المجتمع ترعى أولادها ، ومن تشذ عن ذلك تخالف أعراف المجتمع) 3- دافع الطبع والخلقة (باعتبار أن حنان الأم سببه مراكز معينة فى المخ) 4- دافع الحب

وبعد هذه النظرة المجملة للدوافع غير الدينية للخير يمكننا أن ندرك الدور العظيم الذى يلعبه الدين في الأخلاق ، وهذا ما سنسوقه فى الفصل التالى.

2-دوافع المؤمن للخير أكثر من دوافع الملحد

يولد الإنسان ولديه دوافع طبيعية تقوده إلى الخير ، فإذا كبر وعقل وعلم بأمر الدين صار لديه دافع جديد للخير ، ألا وهو الرغبة في إرضاء الله. وعلى هذا بفرض أن الدوافع الثمان عشر الطبيعية المذكورة آنفا ذات كفاءة كبيرة في حث الملحد على عمل الخير ، فالمؤمن سيكون لديه تسعة عشر دافعا تسوقه لعمل الخير ، أي أن دوافع المؤمن أكثر ، وهذا تفوق كمى لا ينكر للدين. ومن الخطأ أن يقال أن زيادة قدرها واحد على 18 هى شيء يسير لأننا سنرى فيما بعد أن هذا الواحد يمكن أن يتفوق على الثمان عشر الأخرين بشكل كاسح. الآن نكتفى بالقول أنه في ظل الدين يُتوقع انتشار الخير بدرجة أكبر على الأرض.

3- كل دوافع الخير تذهب ويبقى الدين

إن الاعتقاد في وجود الله يملأ الفراغ الناشئ عن غياب الدوافع الطبيعية غير الدينية لعمل الخير. إن **كل الدوافع الطبيعية للخير يمكن أن تغيب أو تتعطل في بعض الأحيان ، وهنا يلعب الإيمان بالله دورا عظيما في استمرار الرغبة في عمل الخير**. واسمحوا لى أن أتكلم فى هذه اللحظة مع الملحد بتواضع ، وأطلب منه أن ينظر إلى الدين على أنه دافع احتياطى لعمل الخير. والقول بأن الدين دافع احتياطى لا يقلل أبدا من قدر الدين ، **فأحيانا يكون من المستحيل الاستغناء عن الاحتياطى**. خذ مثلا مملكة يحكمها ملك دون أن يكون له ولى للعهد ، وهذه المملكة تخوض حربا، وفى أثناء الحرب قتل الملك ، ففى هذه الحالة ستكون المملكة معرضة للهزيمة والانهيار ، أما لو كان هناك ولى للعهد فإنه سيمسك بزمام الأمور ، ويقود مملكته إلى بر الأمان ، وهذا موقف يثبت أن الاحتياطى فى بعض الأحيان لا يقل أهمية عن الأساسى. وانظر كذلك إلى فريق كرة القدم تجد أن من المستحيل أن يلعب أى مباراة دون أن يكون لديه حارس مرمى احتياطى وإلا تعرض لهزيمة ثقيلة فى حالة إصابة الحارس الأساسى ، وهنا يكون حارس المرمى الاحتياطى أهم وحده من اللاعبين الاحتياطيين الستة. ومثال ثالث نجده فى أجسادنا ، فمن المعروف أن الوقود الرئيسى الذى يستخدمه الجسم هو النشويات والسكريات الموجودة فى الطعام ، بينما يعتبر الجليكوجين المخزن داخل الكبد وقودا احتياطيا. ورغم أن الجليكوجين وقود احتياطى إلا أنه لا يقل أهمية قط عن الوقود الأساسى ، بدليل أن عدم قدرة الجسم على تصنيع الجليكوجين أو تكسيره للاستفادة منه

قد يؤدى إلى انخفاض خطير فى مستوى السكر بالدم ، وقد يؤدى إلى الوفاة. وبالمثل نقول أن **الدين يمثل الاحتياطى الذى لا يمكن للأخلاق أن تستغنى عنه** ، وذلك لأن الدوافع الطبيعية لعمل الخير كثيرا ما تتبدد وتختفى ، وستكون كارثة ألا يوجد دافع يسد هذا الفراغ.

خذ مثلا **حالة عمل الخير بُغية التخلص من إلحاح الآخرين:** إن الغنى يضطر إلى التصدق على فقير يلح عليه أثناء توقفه في إشارة المرور كى يتخلص من إلحاحه ، أما إن مر على فقير خجول يمد يده دون أن يلح في السؤال فإنه يتركه ويمضى دون أن يعطيه مالا. لكن لو كان هذا الغنى يؤمن بالله حق الإيمان لساعد الفقير حتى لو لم يلح عليه لأنه يبحث عن رضا الله وثوابه ، خاصة وأن الله تعالى حث المسلم على التصدق على الفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا } [البقرة: 273]. ومن الظواهر المحزنة التي نقابلها أن الموظف المسالم يتعرض للظلم ، أما الموظف المشاغب الذى يضغط باستمرار على رؤسائه لنيل حقوقه فلا أحد يقدر على سلب حقه ، بل إنه قد يحصل على ما لا يستحق. ولكن لو كان المدير يؤمن بالله حقا لما رضخ لإلحاح الموظف المشاغب مهما كانت الضغوط. وهكذا تجد كيف أن المرء كثيرا ما يتراخى عن عمل الخير بمجرد ما يتوقف الإلحاح والضغط ، أما المؤمن فهو يسعى إلى الخير فى ذاته ، سواء ألح عليه الآخرون أم لم يلحوا.

وهناك مثال آخر ألا **وهو عمل الخير رغبة في إثبات الذات والكفاءة:** كثيرا ما يجد المرء – خاصة فى البلاد المتأخرة– أن الكفاءة لا قيمة لها ، فمثلا قد يجد الموظف أن رئيسه فى العمل لا يهمه اجتهاد الموظف ولا تفانيه فى أداء المهام المطلوبة منهم بقدر ما يهمه أن يكون الموظف مواليا له، ساعيا إلى التقرب والتودد منه ، وأن يكون منافقا ومبالغا فى المديح. وهنا يفتُر نشاط الموظف المتحمس حين يرى أن الكفاءة لن ترفع من قدره فى مكان عمله ، وأن الأساليب الحقيرة الملتوية التى لا يجيدها هى التى تنفع. وحينئذ يكون أمامه خياران: إما أن يجارى التيار ، فيصبح منافقا مثل الآخرين ، أو يستسلم للإحباط فيمارس عمله بإهمال ، ولا يؤدى واجبه كما ينبغى. لكن إن كان هذا الموظف مؤمنا بالله حقا فسيشعر بأن من المحتم عليه أن يؤدى عمله على أكمل وجه لأنه يبتغى رضا الله وليس رضا المدير.

وأيضا من يفعل الخير بدافع الرغبة في إظهار النفوذ ، فإنه كثيرا ما يفقد حماسه لعمل الخير بعد أن يعلو شأنه ، ويتبوأ المناصب الرفيعة ، فلا يعود بحاجة لأن ينال اعترافا من أحد بمكانته. أما

الإنسان الذى يؤمن بالله فسيفعل الخير حتى لو لم يكن فى حاجة إلى الناس لأن الله الذى يراقبه موجود دائما ولا يغيب، بل إنه ما كان ليهتم أصلا بإبراز نفوذه ومكانته لأحد لأن الله لا يحب كل مختال فخور.

وكذلك من يضطر لعمل الخير خوفا من ذم الناس وانتقادهم له فإنه ينكشف بسرعة حين تبتعد عنه العيون ، فتجده يعمل في السر خلاف ما يصدر منه في العلن ، وعلى سبيل المثال ستجد أن أغلب الفنانين يظهرون أمام الشاشات كما لو كانوا ملائكة أطهارا ، يدعون إلى القيم والفضائل، لكنهم إذا خلوا إلى أنفسهم وإلى أصدقائهم شربوا الخمور ، وتعاطوا المخدرات ، وارتكبوا الفواحش، وعملوا الموبقات. ولو كان هؤلاء يؤمنون بالله لكان خُلقهم فى سرهم مثل خلقهم في علانيتهم ، فالله يعلم السر وأخفى. وستجد أيضا أن من يتصدق على الفقراء خوفا من أن يُتهم بالبخل فإن حقيقة خلقه تنكشف إن سأله سائل في غيبة من الناس ، حيث ستجده يبخل عليه وينهره. ولو كان هذا الغنى يؤمن بالله لتصدق سواء رآه الناس أم غفلوا عنه.

وكما قلنا من قبل سنجد أن الحرص على تجنب ذم الناس يكون فى أشد حالاته حين نقابل أناسا نعرفهم لأول مرة أو لا نلتقى بهم كثيرا ، أما الأشخاص الذين نلتقى بهم كل يوم فلا نهتم كثيرا برأيهم ، ولهذا تجد المرأة تتزين حين تخرج من البيت لكنها تهمل مظهرها داخل البيت أمام زوجها لأن رأي زوجها فيها لم يعد يهمها كثيرا بسبب اعتيادها لمقابلته عبر سنين طويلة. ولو كانت هذه الزوجة تؤمن بالله لكانت أشد حرصا على جمالها أمام الزوج حتى لو يكن يهمها رأيه. ونفس الكلام ينطبق على الزوج الذى يظهر حسن الخلق تجاه الآخرين خارج البيت ، ويتعامل مع أهل بيته بكل غلظة دون خطأ فعلوه. ولو كان الرجل يؤمن بالله حقا لامتثل لحديث الرسول الكريم الذى يقول: "خيركم خيركم لأهله"[26] حتى لو لم يكن يهمه رأي زوجته فيه.

وبالنسبة لمن يفعل الخير رغبة في سماع المديح من الناس فإنه إن وجد أن من أحسن إليه لم يقدم له الشكر الكافى توقف عن الإحسان إليه. ولو كان هذا الرجل يؤمن بالله لأحسن إلى الناس دون انتظار للشكر ، أسوة بأولئك الصالحين الذين قال عنهم الله تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: 9]

---

[26]) أخرجه الدارمي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا به. وهذا سند صحيح على شرط البخاري كما قال الألبانى فى: **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** (3/ 169).

ومن كان دافعه لعمل الخير الرغبة في تجنب عقاب السلطة فإن خيره يكون مقتصرا على مكان عمله أو منطقة نفوذ السلطة ولا يتعداها ، فتجده فى العمل مهذبا وقورا ، يبذل قصارى جهده كى يساعد العملاء ، أما إن ترك العمل وذهب إلى بيته أو سار فى الشارع أو ركب المترو فإنه يتشاجر مع الناس ويسب ويلعن. وهذا النوع من فاعلى الخير يتحين الفرصة كى يتصرف بحريته إن أحس أن مديره قد غفل عنه. وقد يتحايلون أثناء عملهم ، ومن أمثلتهم موظفو خدمة العملاء الذين كانوا يردون على شكاوى العملاء بخصوص أعطال الإنترنيت ، فقد كان بعضهم يتهرب من مساعدة صاحب الشكوى ، بل يزيدها تعقيدا ، رغم أنه يتكلم بمنتهى الود والاحترام دون أن يتمكن العميل من أن يمسك عليه أي خطأ. ولو كان هؤلاء يؤمنون بالله لفعلوا الخير حتى لو لم يراقبهم أحد.

وبالنسبة لمن يفعلون الخير لمجرد ملء وقت الفراغ فإنهم ينكشفون بمجرد ما يعثرون على شيء آخر يملأ عليهم حياتهم. على سبيل المثال عرفنا امرأة طُلقت لأنها لا عاقر ، فعرضت على جيران فقراء لها أن تتكفل بتربية ابنتهم فى بيتها ، ولكن بعد سنوات قليلة أصيبت الطفلة بمرض السكر ، وصارت تحتاج إلى حقن الإنسولين وقياس السكر عدة مرات كل يوم ، وأصبحت تحتاج لزيارة الأطباء ، وأحيانا لدخول الرعاية المركزة بسبب غيبوبة السكر. وهنا تحولت مشكلة المرأة من وقت فراغ طويل يحتاج لأن يُملأ إلى انشغال وتعب كبير وقلة راحة بسبب مرض السكر ومتاعبه ، فقررت المرأة أن تعيد الطفلة إلى أهلها مع زيارتها من حين لآخر. وهنا نلاحظ كيف توقف عمل الخير لما زال الشعور بالفراغ والملل ، أو بعبارة أدق لما تبين أن الفراغ أهون من رعاية مريض.

وبشكل عام سنجد أن كثيرا من المهتمين بالعمل العام والأعمال الخيرية يتوقف نشاطهم بعد أن تُملأ أوقات فراغهم بالزواج أو الأولاد أو الدراسة أو غيرها من الأشغال والمشروعات. ولا أظن أن أحدهم يمكن أن يضحى بالذهاب للمصيف أو السياحة أو حضور حفل توزيع جوائز الأوسكار من أجل إنقاذ أطفال حصدتهم المجاعة فى إفريقيا. ولو كان هؤلاء يؤمنون بالله لداوموا على فعل الخير حتى لو لم يكن لديهم معاناة من الفراغ والملل.

وبخصوص من يفعلون الخير لأنهم يحبون أن يروا البسمة على وجوه الناس ، فهذا النوع كثيرا ما ينكشف حين يلقى فتورا ممن أحسن إليه ، فتراه يشعر بخيبة شديدة لأنه لم يَلْق بغيته ، فقد كان يريد أن يستمتع برؤية السعادة على وجوه شخص ، لكنه لم ير منه إلا كل إهمال. وأكثر من ذلك يحدث إن قوبل إحسان المرء بالإساءة ، فهنا تجد المرء يندم أشد الندم على ما فعله من خير

للآخرين ، وكثيرا ما يرد على إساءتهم بأن يمن عليهم بالخير الذى سبق أن أنعم به عليهم. أما من يبتغ وجه الله فسيحسن إلى من أساء إليه لأنه لا يريد الأجر من الناس. أعرف امرأة كانت تحرص بشدة على أن ترضى حماتها وتدخل السرور على قلبها لكنها كانت باستمرار تلقى من الحماة كل فتور وتجاهل ، وبمرور الوقت فقدت المرأة الرغبة في إسعاد حماتها ، ولم تعد تهتم بها. ولو كانت هذه المرأة تبتغى وجه الله وحده لدوامت على الإحسان إلى حماتها حتى لو لم تنل الأجر النفسى الذى كانت تنتظره منها ، عملا بقوله تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: 9].

وحين نأتى لدافع الشفقة والرحمة ، فإننا نجزم أن هذا الدافع كثيرا ما يضيع من قلوب الطيبين الرحماء. مثلا أغلب الأطباء والممرضات يصابون بالبلادة وهم يعالجون المرضى بسبب تعودهم على رؤية عشرات المرضى الجدد كل يوم ، فيفقدون الإحساس بالشفقة والرحمة داخل المستشفيات مع أن قلوبهم كانت رقيقة جدا قبل امتهانهم لهذه المهنة ، كما أنها تعود للرقة بعد خروجهم من المستشفى. ومع الأسف تؤدى هذه البلادة إلى كوارث مروعة وإهمال شديد من جانب بعض الأطباء والممرضين في حق المرضى ، فهم يتعاملون مع المريض على أنه قطعة حجر لا تشعر ولا تتألم. ولو كان هؤلاء يراعون الله في عملهم لتفانوا في خدمة مرضاها حرصا على رضا ربهم حتى لو خلت قلوبهم من الشفقة. وسنجد كذلك أن بعض المهن تسلب من الإنسان الشعور بالشفقة مثل مهنة الجزار الذى تعود على رؤية الدماء عبر عشرات السنين ، فيفقد كثيرا من الرحمة والرقة مقارنة بالشخص العادى الذى قد ينهار ويقع بمجرد رؤية نقطة دماء تسيل من جسد مصاب. وفى بعض الأحيان يموت الرجل ، فيترك زوجة وأولادا يتامى ، فيراهم الناس ويرأفون لحالهم ، لكن حين يتطوع البعض لجمع تبرعات لهذه الأسرة ترى كثيرا ممن كانوا يشعرون بالشفقة يبخلون ولا يدفعون إلا القليل لأن دافع الشفقة تَراجَع أمام دافع الحرص على المال ، أما المؤمن الحق فيقتطع من ماله وقوت أولاده من أجل إطعام هؤلاء الجوعى. وفضلا عن ذلك فإن الشفقة ل توجد فى قلب الإنسان الرقيق دائما ، فمثلا كثير من الناس لا يرقون لحال امرأة طُلقت ظلما ، ولا يشفق عليها إلا امرأة مطلقة مثلها. وكثير من الناس يرون ماسح الأحذية فى الطريق (وهى مهنة راكدة لم تعد تدر دخلا يذكر) فلا يرقون لحاله ، ولا يرثى لأمره إلا رجل عانى مثله فى أحد الأيام من البطالة،

وكان يستدين للإنفاق على أسرته. وهكذا تغيب الشفقة فى كثير من الأحيان ، وهنا يبرز دور الإيمان الذى يوجب على الإنسان السعى لعمل الخير حتى إن خلا قلبه من الشفقة.

أما عن عمل الخير بدافع الإعجاب والحب ، فهذا النوع أيضا لا يتسم بالاستقرار ، بل يدور وجودا وعدما مع العاطفة. ومن يفعل الخير بسبب الحب فقط ، فستجده كثيرا ما يتوقف عن عمل الخير إن فتر الحب بينه وبين من يحب ، ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك تغير معاملة الرجل للمرأة ومعاملة المرأة للرجل بعد الزواج ، ففى فترة الخطبة يكون كل منهما فى قمة الأخلاق وهو يتعامل مع الآخر ، لكن بعد الزواج يعتاد كل واحد على وجود الآخر ، فيبدأ الملل ، وتتغير المعاملة ، وتسوء الأخلاق، ومع الأسف كثيرا ما تجد الزوج فى قمة الأخلاق خارج بيته ، لكنه وحش كاسر داخل بيته ، أو تجد امرأة فى قمة الرقة خارج بيتها ، لكنها حية رقطاء مع زوجها. ولو كان الزوج مؤمنا بالله لأحسن معاملة زوجته حتى لو كان لا يحبها عملا بآيات القرآن الكثيرة التى تحث على معاملة الزوجة بالمعروف مثل قوه تعالى: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة: 229]. ومن الآيات الرائعة فى هذا المقام قول الحق سبحانه وتعالى مخاطبا الرجال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [النساء: 19]. إن هذه الآية مدهشة حقا ، فهى تطلب من الرجل الذى يكره زوجته أنه يعاملها بالمعروف ، وهذه حكمة بالغة لا يمكن أن تلقى لها مثيلا فى غير تعاليم الدين ، ولو طبقها الأزواج لخلت بيوتنا من كثير من المشاكل. وبالمثل لو كانت الزوجة تؤمن بالله لأحسنت معاملة زوجها حتى لو لم تكن تحبه ، باعتبار أن طاعة الزوج واجبة عليها عملا بقول رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: «لَو كُنْتُ آمُرُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَة أَن تسْجد لزَوجهَا»[27]. ومن الأمثلة الأخرى التى تتعلق بعمل الخير بدافع الحب أنك قد تجد امرأة تهمل رعاية أطفالها ، وتسلمهم إلى دار حضانة أو خادمة لترعاهم كى تتفرغ من أجل إثبات ذاتها فى عملها. ولو كانت هذه السيدة تؤمن بالله حقا لفضلت رعاية أولادها رغم أن قلبها يميل أكثر إلى العمل والإنجاز خارج البيت. ومن الأمثلة المهمة جدا فى هذا المقام ما يقال عن أن قلوب الشعوب الغربية فى أوروبا وأمريكا تتسم بالرحمة والشفقة رغم أنهم يحيون بلا دين. والحقيقة أن هذه أكذوبة. إن الناس فى أوروبا وأمريكا يمكن أن يذرفوا الدموع

[27]) نص الحديث كاملا كما يلى: (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولا تؤدي المرأة حق زوجها؛ حتى لو سألها نفسها على قتب لأعطته) . أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير". وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات رجال البخاري؛ غير القاسم سلسلة الشيباني، وهو صدوق يغرب؛ كما قال الحافظ في "التقريب "، وهو من رجال مسلم. انظر: **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** (7/ 1097) لمحمد ناصر الدين الألبانى.

من أجل حيوان مهدد بالانقراض بينما ملايين البشر يموتون حولهم كل عام بسبب المجاعات والحروب دون أن يهتز لهم ضمير. إن الشفقة عندهم تعتمد بقدر كبير على الجمال والرقة بمعنى أن منظر حيوان جميل رقيق ضعيف كالكلب أو القطة يثير فى نفوسهم شفقة بالغة، أما الطفل الأسود الجائع المشرد فى البرد فلا يلقى منهم شيئا. ولو كان هؤلاء يؤمنون بالله لسارعوا إلى نجدة الإنسان الأسود مثل مسارعتهم لنجدة الحيوان اللطيف.

وبالنسبة لمن يفعلون الخير من أجل المصالح الدنيوية سنجد أنهم يتوقفون عن فعل الخير إن غابت من ورائه المنفعة ، فمثلا تجد مرشح البرلمان يكثر من القيام بأعمال البر كبناء المدارس والمساجد أثناء حملته الانتخابية ، فإن خسر الانتخابات توقف عن عمل الخير. وكذلك تجد الراشى يتوقف عن التودد للموظف المرتشى بعد أن يترك منصبه. أما من يؤمن بالله فهو يفعل الخير دون انتظار لمنفعة من ورائه ، فأى منفعة فى الدنيا لا تقارن بجزاء الآخرة.

وبخصوص من يفعلون الخير بحكم العادة أى اتباعا لتقاليد المجتمع ، فهؤلاء كثيرا ما يتصرفون كالبهائم التى تسير وراء صاحبها دون تفكير ، فيتركون العادات الحسنة ويتبعون عادات سيئة لمجرد أن المجتمع قد تغير. وهذا ليس شأن المؤمن الذى يفكر قبل أن يقْدِم على الفعل ، ويسأل نفسه: هل يرضى الله عما أفعل أم لا؟ المؤمن يعلم أن مجتمعه لن يحمل عنه العذاب ، ففى الإسلام لا تزر وازرة وزر أخرى. حكى لى مرة أحد الموظفين بإحدى الشركات المصرية أن شركته انتقلت إدارتها إلى شركة يابانية ، ولما جاء اليابانيون إلى مصر فوجئوا ببعض العادات السيئة مثل النفاق واحتقار الأعلى للأدنى وعدم الحرص على النظافة ، ولكن بعد عدة أشهر تأقلم اليابانيون مع العادات الجديدة ، وأصبحوا يلقون أعقاب السجائر في الطرقات وليس في سلال المهملات. وهكذا تخلى اليابانيون عن سلوكهم الحسن لأنهم كانوا يفعلونه بحكم العادة ، وليس عن اقتناع بأنه يرضى الله ، ولو كانوا يبتغون رضا الله لتمسكوا بالنظافة عملا بقول الرسول الكريم: (وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) ، متفق عليه. وأذكر أيضا أننى عرفت طالبا كان فى غاية الأدب فى المرحلة الابتدائية والإعدادية ، فلما وصل إلى المرحلة الثانوية وجد أن هناك روحا عامة تسود بين الطلبة تجعلهم يحاولون إثبات رجولتهم بأن يضايقوا أساتذتهم ويتمردوا عليهم ، فانساق الطالب وراء زملائه ، وقلدهم ، وساءت أخلاقه مع مدرسيه. ولو كان هذا الطالب يؤمن بالله حقا لما ساءت معاملته لمدرسيه حتى لو كان كل شباب جيله يعتبرون سوء الأدب رجولة ، فاحترام

الكبير فريضة إسلامية لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حق كبيرنا، فليس منا"[28].

أما عن أولئك الذين يفعلون الخير بحكم الطبع والجينات وخِلقة المخ ، فكثير من هؤلاء يتغيرون بشدة. لقد عرفت أشخاصا كانوا منذ طفولتهم مثالا للرقة والأدب والنقاء ، لكنهم تغيروا بمقدار 180 درجة لما كبروا. بعضهم تعثر في إحدى سنوات الدراسة في كلية الطب فأراد أن يثبت لنفسه وللآخرين أن ما حدث له ليس شيئا خطيرا ، فقرر أن يتقمص دور الشاب العصرى المستهتر ، وكأنه يقول لمن حوله: "لقد فشلت في الدراسة ليس لنقص فى قدراتى الذهنية ولكن لأنى مستهتر، ولا يهمنى النجاح ، ولو كنت أحرص على النجاح لحققته بكل سهولة". إن الإنسان الذى يفعل الخير بحكم طبعه وليس من أجل إرضاء الله هو من أضعف أنواع البشر لأنه في كثير من الأحيان يكتشف أن العالم من حوله لا يستحق منه أي خير ، وهؤلاء يصدقون المثل الشيطانى القائل: "الطيب في هذا الزمان لا مكان له". إن الواحد منهم قد يشعر أن الناس يفسرون حسن خلقه على أنها سذاجة وضعف وطيبة زائدة وقلة خبرة ، فيكون رد فعله أن يتوقف عن الخير حتى لا يكون هدفا للسخرية ، وحتى يثبت أنه قوى الشخصية. ولو كان هذا الشخص يفعل الخير من أجل رضا الله لما توقف عن عمله مهما كان موقف الناس منه ، فالمؤمن لا يأبه لسخرية المجرمين لأن المؤمن ينتصر فى النهاية: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)} [المطففين: 29 – 36]

ومن يفعلون الخير بدافع الفرح فهؤلاء خيرهم لا يتسم بالاستقرار ، فهو يدور وجودا وعدما مع حالتهم المزاجية ، وقد تجد الواحد منهم فى غاية الرقة والأدب فى لحظة السعادة ، وبعد ثوان يتحول إلى ثور هائج أو وحش مدمر إن حدث له شيء غير مزاجه ، فهو لا يتصرف بدافع من مبدأ حقيقى ثابت ، بل كرد فعل آلى لعاطفة تغدو عليه وتروح.

أما عن أولئك الذين يفعلون الخير بدافع ممارسة الهواية ، فسأتكلم عن نفسى وأقول أننى فى بداية عملى كطبيب أطفال كنت مغرما بالطب بشكل كبير ، وكنت أجد متعة كبيرة فى أن أجمع

---

[28]) **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**. صفحة 142.

الأطباء الصغار ، وأنقل لهم معلوماتى وخبرتى. ولكن بمرور الوقت أَلِفتُ طب الأطفال ، ولم تعد المعلومات تثير اهتمامى كما كان يحدث لى أول مرة ، فوجدت أننى لم أعد أستمتع بشرح ما أعرف لأن ما أقوله سبق أن قلته من قبل عشرات المرات ، ولولا أننى شعرت أن من الواجب علىَّ كمسلم أن أنقل علمى للآخرين لما تكلمت مع أحد ، ولكنى لم أفعل لأن نشر العلم الطبى يؤدى بعون الله إلى إنقاذا أرواح المرضى ، وهو شىء عظيم عند الله لقوله تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: 32].

وبالنسبة لمن يفعلون الخير لأبنائهم وبناتهم فإن هؤلاء أيضا يضعفون فى بعض الأحيان، ومن أمثلة ذلك ما حدث فى غزوة حُنين حين اصطحب مشركو الطائف أولادهم ونساءهم إلى أرض المعركة حتى يكونوا حافزا لهم على القتال، فلما انهزم المشركون فروا ، وتركوا أبناءهم ونساءهم ، ليقعوا أسارى فى أيدى المسلمين. والحقيقة أن كثيرا من الآباء والأمهات نُزع الإحساس بالمسئولية من قلوبهم ، خاصة فى هذه الأيام التى خرجت فيها المرأة إلى العمل ، وتراجع اهتمامها بأولادها، وأصبح نجاحها الشخصى فى الدراسة والعمل أهم عندها من نجاح أولادها ، فتخلت عن رعايتهم وأوكلت الأمر لخادمة أو مربية فى دار حضانة لا يعنيها من التربية الحقيقية شىء. وكثيرا ما سمعنا أيضا عن أم هجرت بيتها وأولادها ، وذهبت مع عشيقها. وكم من رجل ينفق أمواله على المخدرات وأصدقاء السوء ، ويترك أولاده فى فقر وضياع. وقد رأينا بأعيننا طفلة فى الرعاية المركزة لحديثى الولادة رفض أبوها تسجيلها واستخراج شهادة ميلاد لها لأنها خامس أنثى تنجبها زوجته ، وهو يريد ابنا ذكرا. ورأينا أيضا طفلة مولودة بعيب خلقى فى المخ فتركها أبواها فى المستشفى دون أن يسعوا فى إجراءات عمل جراحة عاجلة لها ، فقد كانوا غير حريصين على حياتها لأن عندهم من الأبناء خمسة غيرها. ورأيت أيضا أما راودتها بشكل جدى فكرة خنق طفلها بسبب مشكلة طارئة مع زوجها، جعلتها تحس برغبة عارمة فى التخلص من فلذة كبدها لأنه الشىء الوحيد الذى يربطها بهذا الزوج. وجاء إلى المستشفى فى أحد الأيام شاب يتشاجر لأنه يصر على إدخال أخته الطفلة المريضة بالسكر إلى العناية المركزة للأطفال ، ولما وجدنا مستوى السكر منخفضا قبلنا طلبه ، ولكن لاحظنا أن مستوى السكر ظل منخفضا لمدة عشرة أيام دون سبب واضح ، وفوجئنا بأن السبب هو أن الطفلة تحقن نفسها بجرعة زائدة من الإنسولين فى خلسة عن أعين الأطباء

والممرضات حتى تصاب بغيبوبة فتشعر بأن من حولها يشفقون عليها ، وما دفعها إلى ذلك أن أبواها الفقيرين تخليا عنها بعد ولادتها ، وأعطوها لجارة لا تنجب ، فلما تزوجت الجارة عادت الطفلة لأهلها الحقيقيين ، فأهملوها لأن حياتها لا تهمهم ، إلى حد أن أحدا منهم لم يفكر مرة واحدة فى زيارتها وهى فى العناية المركزة ، وحتى أخوها الذى أحضرها لم يأت إلا لإنهاء أوراق التأمين الصحى لأنه كان مشغولا بعمله. كانت هذه أمثلة لحالات يموت فيها الشعور بالأبوة والأمومة وصلة الرحم فى قلوب الناس، ولا يعصم الإنسان من الخطأ فى تلك اللحظة إلا الإيمان بالله ، فالإيمان بالله يجبر الإنسان على أن يرعى أولى الأرحام ويحسن إليهم حتى لو لم يكن يُكِنُّ لهم حبا ، وحتى لو أخطأوا فى حقه. والنصوص الدينية الواردة فى الإحسان لأولى القربى كثيرة جدا ، ويعرفها كل المسلمون. إن هذه الأمثلة وغيرها تثبت أن الحنان الطبيعى الموجود فى قلوب الناس لا يكفى وحده لعمل الخير ، ولا غنى عن الدين.

أما من يفعلون الخير وقت الأزمات الكبرى بدافع الحفاظ على بقاء الجماعة ، فهؤلاء كثيرا ما ينسون بنى جلدتهم ويفرون إن بلغ الخطر حدا عظيما كما يحدث فى أتون المعارك ، فحين تجد الطائرة الأباتشى فوقك فسيكون أول ما تفكر فيه هو نفسك، فالإنسان جبل على تفضيل حياته على جماعته. والدين وحده هو الذى يقدر على دفع الإنسان لأن يلقى بنفسه فى المهالك من أجل جماعته ، وأفضل مثال على ذلك ما حدث فى غزوة أحد حين اشتد القتال ، وجاء الموت من كل مكان ، ففر المسلمون ، والكفار من ورائهم يلاحقونهم ، ولم يبق إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل ، ويدعو المسلمين للعودة لمواصلة القتال: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [آل عمران: 153]. وكان حول الرسول نفر قليل من المسلمين منهم أبو دُجَانة وسعد بن أبى وقاص وقتادة بن النعمان وأنس بن النضر الذين فتحوا أذرعهم للموت فداء لله ولرسوله: قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: (وَتَرَّسَ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو دُجَانَةَ بِنَفْسِهِ، يَقَعُ النَّبْلُ فِي ظَهْرِهِ، وَهُوَ مُنْحَنٍ عَلَيْهِ، حَتَّى كَثُرَ فِيهِ النَّبْلُ. وَرَمَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ سَعْدٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنَاوِلُنِي النَّبْلَ وَهُوَ يَقُولُ: ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، حَتَّى إنَّهُ لَيُنَاوِلُنِي السَّهْمَ مَا لَهُ نَصْلٌ، فَيَقُولُ: ارْمِ بِهِ)29. لقد تصرف الرسول وصحابته هنا تصرفا يخالف الطبيعة البشرية ، فالطبيعة البشرية تقضى بتفضيل النفس على الجماعة ، لكن لأن هؤلاء الرجال أصحاب إيمان

[29]) **السيرة النبوية لابن هشام** (2/ 82).

لا يلين فلذا وجدناهم يثبتون ، ويقبل الموت فى سبيل الله. وأذكر أننى قرأت فى عدد قديم لمجلة نيوزويك الأمريكية تحقيقا عن المجاهدين الأفغان الذين قاوموا الاحتلال الروسى (دفاعا عن الإسلام) فوصفتهم المجلة بأنهم شجعان بدرجة جنونية Mad brave.

أما فيما يتعلق بعمل الخير بسبب ضعف الشخصية: أقول أن المرء أحيانا قد تتحول شخصيته من حالة الضعف إلى حالة القوة ، وهنا يجد نفسه غير محتاج لحسن معاملة من كانوا يوما ما أقوى منه شخصية ، ولو لم يكن مؤمنا بالله فلن يجد فى نفسه ما يسوقه لعمل الخير فى حالته الجديدة. وهذه الحالات نراها كثيرا فى الجامعات ، وخاصة فى كليات الطب ، حيث يكبر الأطباء الصغار ، ويحتلون القمة ، ويشغلون المناصب الكبرى ، ويسحبون البساط من تحت أقدام أساتذتهم الذين طالتهم الشيخوخة، وأكل من نضارتهم العمر، وفقدوا كثيرا من قوتهم وقدرتهم على التعلم والتعليم ، فيتطاول التلميذ على الأستاذ، ويكلمه بطريقة غير لائقة ، ويتندر على معلوماته القديمة. ولو كان التلميذ يؤمن بالله لظل يوقر أستاذه حتى لو زال الحاجز النفسى الذى كان يجبره على تبجيله واحترامه ، ولوجدته يقول فى نفسه: (حقا أنا اليوم أفضل من أستاذى علما وأكثر شهرة ، ولم أعد ذلك الطبيب الصغير الضعيف ، لكن الإسلام يفرض علىَّ أن أشكر من أحسنَ يوما إلى لقول رسول الله: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ» [30] ، ويفرض علىَّ دينى أيضا أن أوقر الكبير عملا بالحديث الشريف: « مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حق كبيرنا، فليس منا»[31] ، ولذلك لن أهين أستاذى ، ولن أجرح مشاعره ليس لأننى لا زلت أرهبه ، ولكن لأننى أرهب الله).

ومن الأمثلة المشابهة حالة الرجل الذى يتزوج فتاة صغيرة لا تزال تدرس فى الجامعة ، فتكون فى السنوات الأولى من الزواج فى قمة الأدب والأخلاق والتفانى فى رعاية أسرتها. ولكن بعد تخرجها تعين كمعيدة فى الجامعة ، ثم تحصل على الماجستير والدكتوراة. وبمرو الوقت تشعر المرأة أنها لم تعد تلك الفتاة البسيطة الضعيفة ، فهى الآن عالمة ذات شأن ومكانة ، وتقابل كل يوم كبار المسئولين ، وتحضر الندوات والمؤتمرات. لقد أصبحت الآن أقوى شخصية، فتتغير معاملتها لزوجها ، وتصبح أكثر عجرفة وعنفا ، وأقل ودا وحرصا على إسعاد زوجها. وكثير من حالات الطلاق كان سببها تحول الزوجة من فتاة ضعيفة الشخصية إلى امرأة قوية الشخصية تشعر أنها

[30]) حديث صحيح عن أبى هريرة. انظر: **مشكاة المصابيح** (911/2). تأليف أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

[31]) حديث صحيح. انظر **صحيح الأدب المفرد**. صفحة 142

لم تعد محتاجة لحسن معاملة زوجها. ولو كانت هذه الفتاة تؤمن بالله حقا لتذكرت قول الله تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: 18] ، ولظلت كما هى متواضعة ، تحسن معاملة زوجها ، وترعى أسرتها ، ولا تتكبر على الرجل الذى أمرها الله بطاعته.

****

نستنتج مما سبق أن الإنسان يمكن أن يكون لديه دوافع طبيعية غير دينية لعمل الخير ، لكن هذه الدوافع قاصرة وضعيفة ، وكثيرا ما تتهاوى أمام الظروف ، والدافع الوحيد الذى يظل موجودا باستمرار هو الإيمان بالله. إن من يفعل الخير بدافع إرضاء الله فلن يتراجع مهما كانت الظروف. حقا الإيمان بالله يظهر ويغيب ، ويزيد وينقص ، وكثير من المؤمنين ينسون ربهم فى بعض الأحيان، لكننا لا نتكلم عن عامة المسلمين الذين لا يختلف كثير منهم عن الملحدين فى انعدام تذكرهم لله ، بل نتكلم عن المؤمن الذى يتذكر ربه ويراعى وجوده فى حياته ، فمثل هذا سيظل سائرا على طريق الخير مهما غابت الدوافع الطبيعية للخير. وحتى المسلمون المتهاونون فى دينهم تجدهم كثيرا ما يتذكرون ربهم، فيتحولون إلى فرسان ذوى صولات وجولات فى مجال الأخلاق.

خلاصة القول أن "إرضاء الله" هو الدافع الوحيد لعمل الخير الذى يمكن أن يوجد في كل مكان وكل زمان وكل حال. إرضاء الله موجود باستمرار حتى لو ماتت كل الدوافع الأخرى الداعية للخير. إرضاء الله جاهز دائما لملء الفراغ الأخلاقى. إرضاء الله يشبه مجال هيجز Higgs field الذى يعرفه علماء الفيزياء ، والذى يؤكدون أنه يوجد في كل مكان حتى لو تم تفريغ الكون من كل الجسيمات. ونكرر ما سبق أن قلناه من أن الإيمان بالله ليس موجودا "**بالفعل**" لدى جميع الناس بنفس التوهج فى كل اللحظات ، ولكنه يظل موجودا "**بالقوة**" ، أي في حالة كمون قابلة للنمو والازدهار في أى لحظة من خلال الدعوة والموعظة والتأمل وهدى الله. **الإيمان بالله هو الدافع الوحيد للخير الذى يمكن استدعاؤه وإيقاظه إن غابت كل الدوافع الأخرى.**

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

4- لا غنى عن الدين كرقيب على الأخلاق

الطبيعة البشرية بحاجة إلى الرقابة

الإلحاد مشروع انحلال ، والدين مشروع التزام. الإلحاد يحمل فى أحشائه بذور الانفلات ، أما الإيمان فيُنبت الانضباط. الدين يقوم فى جوهره على فكرة وجود إله يحاسب ويثيب ويعاقب، أما الإلحاد فلا يعترف إلا بالدنيا، ولا يقر بوجود رقابة إلهية على أفعال الإنسان. ورقابة الدين لها فائدة عظمى ، فالطبيعة البشرية تحتم وجود رقابة على السلوك. وبالله عليكم هل سمعتم عن مؤسسة نجحت دون رقابة على الموظفين؟ ترى لو قررت شركة مايكروسوفت العالمية يوما ما أن تلغى كل أشكال الرقابة والتقييم للعاملين بها ، وأعلنت أنها ستتركهم لضمائرهم وأخلاقهم ، فهل ستستمر فى نجاحها؟ إن مايكروسوفت لو فعلت ذلك لانهارت فى لحظات ، إذ ما الذى يجعل المهندس النابغ يبتكر طالما أن أحدا لن يحس بابتكاراته ، ولن يكافأه عليها؟ وما الذى يجعل الموظف المهمل يلتزم بالتعليمات رغم أن أحدا لن يعاقبه على إهماله؟ إن المدير الذى يلغى الرقابة على العمال هو شخص مخبول. **الطبيعة الإنسانية تحتم الثواب والعقاب** ، فالبشر ليسوا ملائكة ، وهم – بحكم تكوينهم– ضعاف، ولديهم ميل دائم للتمرد على القيود ، والتكاسل عن عمل الواجب ، ولذا فهم بحاجة مستمرة للتقييم والثواب والعقاب. ولهذا السبب نحن نؤكد أن غياب الإله عن المنظومة الفكرية للإلحاد لن يؤدى إلا إلى تدهور الأخلاق.

إن المسألة فى غاية الوضوح: **الإلحاد مشروع جنونى للقضاء على الأخلاق**، والقول بأن الأخلاق يمكن أن تزدهر فى ظل انتشار الإلحاد ينطوى على جهل عجيب بطبيعة الإنسان ، أو تعمد مشين للمغالطة. وإن أصر الملحد على الجدال ، فاطلب منه أن يجرى تجربة بسيطة: قل له: (اصنع عددا كبيرا من النسخ لمفاتيح بيتك ، ثم علقها على الباب الخارجى، وضع بجوارها لافتة صغيرة مكتوب عليها: "هذه مفاتيح بيتى ، فإن ضغطتَ على زر الجرس ولم يفتح لك أحد ، فخذ المفتاح، وادخل إلى البيت، وانتظر حتى أعود من الخارج ، لكن أرجوك راع ضميرك ، ولا تسرق شيئا ، ولا تفتش فى أوراقى ومقتنياتى الشخصية ، وأنا واثق فى أخلاقك ، مع العلم أننى لا أثبت كاميرات مراقبة")

فهل يستطيع الملحد أن يفعل هذا؟ هل يقبل التحدى؟

ولكن ربما يقول الملحد: "لكن أنا لا أزعم أن الرقابة ستكون غائبة تماما فى ظل الإلحاد ، فالدولة تراقب المواطنين ، والأعراف والتقاليد تفعل نفس الشيء".

وهذا الكلام محاولة يائسة للهروب من الهزيمة. إننا نتفق معهم فى أن القانون والعرف لهما أهمية كبيرة فى نشر الخير فى المجتمع ، إلا أن بهما أوجه قصور شديدة:

فشل القانون فى الرقابة

لا شأن للقانون بالصغائر

لا تستطيع الشرطة أن تراقب الناس بشكل كامل ، فكثير من الجرائم الأخلاقية –إن لم يكن أغلبها– يقع داخل البيوت بعيدا عن أعين الشرطة. الرجل داخل بيته يقول كلمة جارحة لزوجته دون أن يعاقبه القانون ، والمرأة تكدر حياة زوجها دون أن يعاقبها القانون ، والأخ يسب أخاه دون أن يعاقبه القانون ، والأب يحابى أحد أبنائه دون أن يعاقبه القانون ، والحماة تغيظ زوجة ابنها دون علم من القانون ، والزوجة توغر صدر زوجها على أمه دون علم من القانون. وهذه المشاكل العائلية تُحَول حياة بلايين الناس إلى جحيم لا يطاق، ويقف القانون أمامها عاجزا. وانظر كذلك إلى جريمة أخلاقية شديدة الشيوع مثل الغيبة: ألا ترى طول الساعات التى يقضيها الناس وهم يتكلمون فى حق أصحابهم وجيرانهم وإخوتهم؟ ألا ترى كيف يطعنون فى شرفهم ، ويتندرون على أفعالهم ، وينشرون الشائعات حولهم؟ انظر كذلك إلى مدى انتشار حالات النميمية والوقيعة بين الناس. انظر إلى سخرية الناس من شخص لقصر قامته أو طول أنفه أو بدانته. انظر إلى حالات الخيانة الزوجية. انظر إلى إهانة المدير لموظف مجتهد عنده.

إنك لو أحصيت الجرائم الأخلاقية التى يرتكبها المحيطون بك لوجدت أن **من المستحيل على القانون أن يعاقب عليها لأن الشرطة لا يمكن أن تراها** ، فالشرطة لا يمكن أن تضع كاميرات مراقبة داخل البيوت وداخل غرف النوم لتحصى على كل مواطن حركاته وسكناته. إن **كثيرا من الجرائم الأخلاقية هى فى نظر القانون من الأمور التافهة. ولكن ما يظنه القانون تافها قد يصيب الإنسان بالاكتئاب ، وقد يؤدى به إلى الانتحار**. إن كلمة صغيرة –مثل "ما هذا؟" – يقولها المدير لموظف مجتهد عنده قد تصيبه بالاكتئاب ، وتقضى على مستقبله رغم أن القانون لا يعاقب عليها.

وكلمة "لم أعد أراك جميلة" قد يقولها الرجل لزوجته، فيترتب عليها انهيار الأسرة وضياع الأولاد ، رغم أن القانون لا يعاقب أحدا على إبداء رأيه دون كلام بذىء. وإفشاء سر صديقك قد يطعنه فى مقتل رغم أن القانون لا يعاقب أحدا على إفشاء الأسرار. وهكذا فأغلب الجرائم الأخلاقية التى نقابلها لا شأن للقانون بها ، ولا بد من وجود الدين كى يشعر الإنسان بوجود رقيب يراه كل لحظة.

القانون الحائر

لا يمكن للقانون فى كثير من الأحيان معرفة مَن المخطىء حتى لو عُرضت أمامه كافة الوقائع ، فمثلا من الممكن للقاضى أن يحار فى زوج رفض أن يشترى دواء لزوجته لأن كل الأطباء أخبروها من قبل أنها لا تعانى من مرض عضوى ، وأن الشكوى التى لديها ليست أكثر من أوهام نفسية ، بينما تصر الزوجة على أنها كانت فى تلك اللحظة تعانى من مرض حقيقى. وماذا يفعل القانون أمام رجل ضرب زوجته أو هجرها لأنها أسرفت فى شراء بعض البضائع ، بينما أصرت الزوجة على أن البضائع كانت ضرورية ؟ كيف يحكم القاضى هنا؟ وماذا يفعل القانون أمام رجل دعا زوجته إلى الفراش فتعللت بأنها فى غاية الإرهاق بسبب عملها فى البيت ، مع العلم أن الإرهاق شىء نسبى ، فبعض الناس يحتمل ما لا يحتمله الآخرون؟ وماذا يفعل القانون مع رجل يرفض أن يذهب مع زوجته لزيارة بيت أمها لأنها تحرض ابنتها على خراب البيت؟

التحايل على القانون

حكى لى أحد أساتذة كلية الطب فى بعض الجامعات أنه تعلم استخدام قسطرة القلب فى أحد المراكز لتشخيص العيوب الخلقية للأطفال ، وسعى لدى بعض أهل الخير كى يتبرع بمبلغ 4 مليون جنيه لشراء قسطرة قلب كى يتم تشغيلها فى مستشفى كلية الطب. كانت القسطرة مستعملة لكن حالتها جيدة جدا ، والمكان الذى باعها كان فقط يبغى شراء قسطرة أحدث. المهم أن هذا الأستاذ الذى وفر القسطرة بالمجان للمستشفى الجامعى قوبل بحرب شعواء من بقية الأساتذة الذين رأوا فى تشغيل هذا الأستاذ للقسطرة خطرا على مكانتهم لأنه سيكون الوحيد بينهم الذى يجيد التعامل مع هذه التقنية المتقدمة. وطبعا لم يفصح الأساتذة عن حسدهم للأستاذ ، بل ادعوا أن القسطرة ذات حالة سيئة ، وأنها لن تكون مفيدة للمستشفى. وظلت الصراعات داخل أروقة القسم إلى أن انتهى الأمر بتشكيل لجان ، وعقد اجتماعات ، وعمل تحقيقات ترتب عليها تكهين القسطرة ، أى

إلقائها فى القمامة ، وضياع 4 ملايين جنيه تبرع بها رجل صالح لمكان يضم حثالة البشر. وقد حدث كل هذا بشكل قانونى تماما رغم فداحة الجريمة الأخلاقية. وفى مستشفى جامعى آخر لم يتردد أحد المسئولين فى السعى للتخلص من خمسة أجهزة تنفس صناعى بملايين الجنيهات رغم أن كلا منها يحتاج إلى قطعة غيار بمبلغ صغير كى يعاود العمل ، وينقذ حياة مئات المرضى. وقد كانت الإجراءات التى اتخذها هذا المسئول قانونية تماما، ولولا سعى المخلصين لتم لهذا الوغد ما أراد. لقد تحول الفساد إلى مهنة وحرفة تتطلب عبقرية وبراعة كى يحقق الفاسد ما يريد دون أن يقع تحت طائلة القانون.

والفساد لا يقتصر على الدول النامية فقط ، فهو موجود فى كل بلاد العالم بلا استثناء ، بما فى ذلك أكثر الدول شفافية وديمقراطية. انظر إلى كَم الأكاذيب التى يروج لها رجال السياسة دون أن يستطيع أحد أن يمسك عليهم غلطة واحدة. انظر إلى مرشحى الرئاسة ومجالس النواب الذى يظهرون أمام الناخبين بمظهر الملائكة ، وهم فى الحقيقة شياطين مردة. انظر إلى أولئك المرشحين وهم يتفاوضون سرا مع جماعات الضغط كى تمول حملاتهم الانتخابية مقابل تمرير قوانين فى صالحهم. انظر إلى بعض رؤساء الدول الذين يتخابرون سرا مع بعض الدول الأجنبية ، كما هو الحال مع الرئيس الأمريكى ترامب الذى تحوم شبهات قوية حول عمالته لروسيا. ومهما كانت كفاءة القوانين ، ومهما كانت يقظة الأجهزة الأمنية والاستخباراتية فستظل هناك ثغرات وأبواب خلفية يمر من خلالها الفاسدون.

حين يفسد القاضى

رأينا بأعيننا كيف يصبح القاضى فى بعض الدول النامية ألعوبة فى يد النظام الحاكم يستخدمها للتنكيل بمعارضيه. وسمعنا كثيرا عن قضاة مرتشين ، يتلقون الأموال من الأثرياء كى يحكموا لصالحهم. ولا يقتصر الأمر على القضاة فى المحاكم ، فلجان التحكيم فى المهرجانات والمسابقات قد تفضل متسابقا على متسابق بدافع التعصب القومى والدينى دون أن يلحظ أحد ، وذلك بسبب تقارب مستوى المتسابقين. وأذكر أن فيلم المصير ليوسف شاهين تلقى جائزة فى مهرجان كان الفرنسى ، ولما أعلن عن عرض الفيلم على التلفاز المصرى تركت كل مشاغلى ، وجلست فى البيت ، وأنا أتوقع مشاهدة تحفة فنية ، ففوجئت بفيلم فى غاية السخافة والملل ، وتأكد لى وقتها أن الفرنسيين يجاملون يوسف شاهين عميلهم الثقافى فى مصر. وانظر إلى جائزة نوبل فى السلام

التى تمنح فقط لمن كان ذا هوى غربى حتى لو أشعل نيران الحرب بعد ذلك كما حدث مع آبى أحمد رئيس وزراء إثيوبيا الذى لوح عام 2019م بالحرب على مصر بسبب الصراع حول مياه النيل، وكذلك رئيسة وزراء بورما التى شاركت فى اضطهاد مسلمى بورما.

فساد صانعى القوانين

فى كثير من البلاد تسن القوانين مجالس نيابية كثير من أعضائها دخلوها بفضل المال والرشا والفساد ، وهذه المجالس كثيرا ما تُفصل القوانين على مقاس جماعات الضغط ، أو ترضخ للإعلام الفاسد الذى يملكه قلة من رجال الأعمال المشبوهين. وأسوأ من ذلك أن يكون الحاكم المستبد وحده هو الذى يفرض على شعبه القوانين التى تحقق مصالحه ومصالح أسرته وبطانته دون مراعاة للعدل والقيم. وبالتالى فالقوانين فى كثير من الأحيان تفتقر للأخلاق ، ولا تعبر عن العدل.

فساد القانون الدولى

ثم إنه بفرض وجود قانون محلى عادل داخل كل دولة فإن القانون الدولى أبعد ما يكون عن العدل. القانون الدولى صاغه الأقوياء للسيطرة على الضعفاء ، ومجلس الأمن الذى يحكم العالم الآن يسيطر عليه خمس دول فقط لا تبحث إلا عن مصالحها ، ولذلك رأينا العالم يحتشد لإخراج صدام حسين من الكويت عام 1990م ، وبعدها بشهور قليلة وقعت مذابح لآلاف المسلمين فى البوسنة، فلم يتحرك أحد ، بل وجدت دلائل قوية على تواطؤ القوات الدولية مع المسيحيين الصرب المعتدين، فقد احتمى 300 من النساء والأطفال المسلمين بكتيبة هولندية تابعة لقوات حفظ السلام ، فقامت الكتيبة بتسليمهم لقوات صربية قتلتهم لاحقا.

****

وهكذا رأينا كيف أن **القانون عاجز عن مكافحة الشر وإقامة الخير ، ومن المستحيل ابتكار منظومة قوانين يعجز الناس عن التحايل عليها.** وقد كنت أندهش فى الماضى من مخاطبة القرآن لضمائر المسلمين وهو يسن لهم التشريعات، وكنت أشعر أن هذا يدخل فى باب السذاجة والتفكير الخيالى الحالم. ولكن الآن أصبحت على يقين أننى أنا الساذج ، وأن ما فعله القرآن هو عين الصواب لأن أى قانون يحكم حياة الناس على الأرض فلا بد له من ثغرات ، ولهذا كان من المهم أن **يعمل الله تعالى على إيقاظ الضمائر واستدعاء الإيمان والحث على مراقبة الله تعالى أملا فى**

سد الثغرات التى لا يخلو منها قانون ، فلا شك أن النجاح فى إيقاظ بعض الضمائر أفضل من ترك جميع الضمائر ميتة. وسنورد الآن بعض الأمثلة التى تظهر كيف يُذَكِّر القرآن المؤمنين بأن **الله عز وجل رقيب عليهم وهم يطبقون هذه شرائعه ، وأن من يتحايل على شرع الله فى الدنيا فلن يفلت منه فى الآخرة:**

- {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 231]
- {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: 1]
- { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: 2 – 5]
- {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 232]
- {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 220]
- {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 228]
- {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 226، 227]
- {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ

الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: 106 – 108]

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا». متفق عليه ، واللفظ للبخارى.

فشل الأعراف والتقاليد فى الرقابة

من الممكن أن نضع تعريفا لكلمة "الأعراف" ، فنقول أنها أمور يتفق غالبية مجتمع ما على اعتبارها من قبيل العمل الصالح. والناس فى بلادنا يطلقون عليها اسم "الأصول". ومن أمثلتها الشجاعة والكرم والتعاون واحترام الكبار وخضوع النساء للرجال والزواج المبكر وحب العلم. أما "التقاليد" أو "العادات" فهى الطقوس التى تنبع من أعراف المجتمع مثل مواساة أهل الميت ، ومجاملات الزواج.

ولا شك أن الأعراف والتقاليد لا يمكن أن تكون بديلا عن الدين ، وذلك للأسباب التالية:

سيولة العرف

من أوجه قصور العرف أنه لا يتسم بالثبات ، العرف كالسائل الذى لا تستطيع أن تمسكه بيدك ، ولكنه قابل للتبديل والتغيير باستمرار ، ومن الوارد جدا أن يتخلى المجتمع فى يوم من الأيام عن عرف حسن ، ويستبدله بعرف سيء. ومن الأمثلة على ذلك انتشار الربا بشكل فاحش فى كثير من الدول الإسلامية ، فصار أغلب الناس فى بلدنا مصر على سبيل المثال يستحلون فوائد البنوك الربوية بعد أن كنا جميعا منذ ثلاثين سنة تقريبا نعتبرها من قبيل الربا. ومن الأمثلة الأخرى انتشار التبرج والسفور والعرى فى المجتمعات الغربية التى كانت منذ قرنين محافظة ، فأصبح الآن من حق المرأة عندهم أن تظهر عارية كما ولدتها أمها أمام أعين الناس فى الشوارع دون أن يلومها أحد [32] ، بل وصل الأمر إلى انتشار الشذوذ ، وتقبل المجتمع له. ولو فرض أن رجلا أوروبيا من

[32]) نفس الشيء حدث فى بلاد المسلمين حيث تغيرت أعراف المجتمع ، فبعد أن كان ينظر إلى الفتاة المتبرجة على أنها إنسانة ساقطة فاجرة أصبح ينظر إليها اليوم على أنها إنسانة مثقفة متحضرة بينما صار الحجاب دليلا على التخلف والتشدد.

القرن السابع عشر عاد إلى الحياة ، وقيل له أن عليه أن يحترم الشواذ لانتحر أو لقَتل من يكلمه. وفى القرى المصرية عايشت بنفسى فترة كان الناس فيها يتباهون بكثرة الأولاد ، والآن قل الإنجاب، وأصبح من المخجل أن يكون للأسرة أكثر من ثلاثة أو أربعة أبناء. وتغير أعراف المجتمع يبدأ حين يشذ شخص عن تقاليد مجتمعه ، وهذا الشخص يقنع بعض الناس برأيه، ثم يقنع كل واحد من هؤلاء مزيدا من الأفراد ، فيصبح لدينا بمرور الوقت تياران كبيران متعارضان، وفى النهاية تكتب الغلبة للتيار الناشىء. إذن من الممكن تغير الأعراف بمرور الزمن إلى النقيض ، وهذا يحتم على كل إنسان أن يكون يقظا ، وألا ينساق وراء تيار المجتمع، وأن يفكر مليا قبل أن يقلد الأغلبية لأن الأغلبية يمكن أن توقعه فى التناقض. وعلى ذلك فعلينا أن نلوذ بمنظومة عليا من القيم التى تحدد للمجتمع أى المبادىء هى التى يجب أن تسود وتستمر فى السيادة. وهذه المنظومة العليا يجب أن تكون منظومة الدين ، فبدون الدين يصبح المجتمع كالأعمى الذى يسير وحده فى تقاطع طرق. إذن التقاليد والأعراف ليست بالضروة حارسا أمينا على الأخلاق لأنها تنبع من الناس ، والناس معرضة للضلال. العرف يحكم على أخلاق الناس ، لكنه أيضا محكوم بأخلاق الناس ، أما الدين فهو يحكم ولا يُحكم عليه.

اختلاف الأعراف من مجتمع لمجتمع:

إن ما يعتبر خيرا من وجهة نظر أحد المجتمعات قد يعتبر شرا من وجهة نظر مجتمع آخر ، فمثلا بعض المجتمعات تعتبر الكرم فضيلة ، وبعضها يعتبره إسرافا. وبعض المجتمعات ترى أن المرأة يجب أن تكون خاضعة لرقابة لصيقة من أهلها ، لكن هناك مجتمعات تعطى النساء حرية مطلقة. وهناك مجتمعات تشجع تعدد الزوجات ، ومجتمعات تحرمه. وهناك مجتمعات تعتبر الشجاعة فضيلة ، ومجتمعات تعتبر الشجاعة تهورا ، وترى فى الجبن حكمة وحفظا للنفس. وبعض المجتمعات تجرى الأبحاث العلمية بأمانة ، لكن مجتمعات أخرى تحترف تزوير الأبحاث ، وتعتبر من لا يزور أحمق. وهناك مجتمعات تفرض على الأبناء طاعة الآباء ، ومجتمعات أخرى تمنح الأطفال كل الحرية ، بل تعاقب الأب إن ضرب ابنه. وهناك مجتمعات تحترم حقوق الشواذ ، ومجتمعات تعتبرهم رجسا من الشيطان. وهناك مجتمعات تقدس العمل ، ومجتمعات تعشق الكسل، وأذكر تصريحا نقلته لنا الصحف لوزيرة فى فرنسية منذ سنوات تنتقد فيه الشعب اليابانى الذى ينكب على العمل دون أن يمنح نفسه فرصة للراحة والاستمتا ع بالحياة.

والآن إن اختلفت المجتمعات فى الأعراف والتقاليد فأيها يكون على حق؟ وأيها أحق أن نقتدى به؟ هذا يثبت أن الأعراف والتقاليد قاصرة ، وأنه لا مفر من وجود منظومة ثابتة من المبادىء والقيم تحكم حركة المجتمع وتوجهه وتقوده ، وهذه المنظومة هى الدين.

الكل يدعى مراعاة الأعراف والتقاليد؟!

من الممكن تطويع العرف تبعا للأهواء والمصالح ، فكثيرا ما ينقسم الناس بشكل حاد حول قضايا عديدة ، فيحاول كل طرف الظهور بمظهر المحافظ على التقاليد والأعراف ؛ على سبيل المثال إن اختلف الرجل وزوجته ، انضم أهل الزوجة للزوجة ، وانحاز أهل الزوج للزوج ، وأصر كل طرف على أنه يراعى التقاليد ، بينما الطرف الآخر هو الذى خرج عن التقاليد والأصول ، ولن يعدم كل منهما شواهد تؤيد موقفه ، وستجد كل طرف يبرز أفعاله الحسنة ويخفى أفعاله السيئة.

وهنا لا بد من وقفة: إن الدين هو الآخر يتم تطويعه من قِبل الناس لتأييد مواقفهم ، حيث يحاول كل منهم الظهور أمام الناس بمظهر الإنسان التقى الورع ، ومع ذلك فهناك فرق كبير ، وهو أن الإنسان يعلم أنه لا عاقبة لمخالفة الأعراف والتقاليد طالما بقى الناس متوهمين أنه محافظ على مبادىء المجتمع ، أما الدين فأمره مختلف لأن من المستحيل عليك أن تخفى حقيقتك عن الله حتى لو اقتنع كافة أهل الأرض بأنك قديس. وهنا يتفوق الدين تفوقا كاسحا على العرف لأنه وحده هو الذى يستطيع أن يغير من سلوكك لأنه يفرض عليك الإيمان بإله يعلم السر وأخفى.

القوى يفرض أعرافه وتقاليده

وهناك مشكلة أخرى خطيرة تتعلق بالعرف ، وهى أن **العرف تابع للقوة** ، **فمن كان معه القوة استطاع أن يغير أعراف الناس وتقاليدهم** ، ولهذا اشتهر قولهم: (الناس على دين ملوكهم). ولقد رأينا بأعيننا كيف نجح حكام بعض الدول الإسلامية فى تحويل الطابع العام لشعوبهم من طابع محافظ إلى طابع فاجر فاسق ، ورأينا أيضا كيف نجح بعض الحكام فى نشر الإلحاد بين شعوبهم. ونجاح هؤلاء لم يكن مجرد نجاح فى نشر سلوك منحرف ، بل الأخطر أنهم نجحوا فى تغيير نظرة المجتمع إلى الانحراف ، فأصبح الناس يستسيغون ما كان من المستحيل أن يرضوا به يوما. وفى العصر الحديث تفاقمت هذه المشكلة بدرجة أكبر، حيث أصبح متاحا لكل إنسان أن يتكلم ، فيسمع له الملايين ، ويأخذون كلامه على محمل الجد ، أما فى الماضى فكان من يتكلم هم العلماء

والحكماء وأصحاب السلطة فقط. وقد أدى هذا إلى أن أصبحت حتى الراقصات والزوانى يمتلكن قدرة طاغية على تشكيل وعى الناس ، وتغيير الرأى العام ، فأصبح من الممكن لممثلة تافهة أن تتكلم بكل ثقة فى أمور السياسة، وصار من الممكن لراقصة معروفة أن تعلن عن عزمها تقديم برنامج دينى. وشاهدتُ راقصة من إحدى البلاد الإسلامية توبخ أحد رجال الدين ، وتدافع بكل كبرياء عن مهنتها الساقطة على أساس أنها تسعى من أجل إطعام إخوتها الصغار. وهؤلاء الصعاليك ينصت لهم العامة ، ويتأثرون بكلامهم ، فتَحول الحق إلى باطل ، والباطل إلى حق. وهكذا فمن كان يملك القوة والمال والنفوذ والشهرة فمن السهل عليه أن يخلق لنفسه عرفا خاصا وقانونا مستقلا ، بل سيتمكن من حمل الناس على تبنى أعرافه الخاصة، وسيجد نفسه دوما محاطا بالمهللين والمباركين من المنتفعين.

المجتمع لا يعرف السر

إن نفس العجز الذى رأيناه فى حالة القانون ينطبق كذلك على العرف ، فالمجتمع لا يمكن أن يعرف كل شىء يدور فى الخفاء بين الناس ، ولا يقدر بالتالى على أن يحاسبهم على كثير من انحرافاتهم. على سبيل المثال قد ترتدى المرأة فى الشارع ملابس محتشمة مراعاة لتقاليد القرية ، لكنها فى السر تفعل الزنا. وقد يذهب الرجل لمجاملة جاره الذى يكرهه فى عرس ابنته مراعاة لتقاليد المجتمع ، لكنه حين ينصرف يتكلم عن العروسين بكلام قبيح. ومن الممكن لرجل أعمال أن يظهر أمام قومه كفاعل خير عطوف على الفقراء ، لكنه فى السر يتاجر فى المخدرات. وهنا يسد الدين ثغرة خطيرة فى أخلاق المجتمع لأن من يؤمن بوجود إله موجود فى كل مكان وزمان فسيتردد كثيرا قبل عمل الشر وارتكاب الأخطاء فى غياب الناس لأنه يعلم أن هناك إله لا يغيب ولا ينام.

تراجع دور الأعراف والتقاليد حديثا

كلنا نرى كيف تراجع دور التقاليد والأعراف بشكل كبير فى العصر الحديث بعد تغير الحياة فى القرى ، وتحولها إلى حياة شبيهة بحياة المدن. فى القرى كان كل شخص يعرف بقية أفراد القرية بالاسم ، أما اليوم فقد تنامت الحياة الفردية ، ولم يعد المرء يعرف جاره. كما أدت وسائل التواصل الاجتماعى (الفيسبوك وتويتر) إلى تزايد انعزال الناس عن بعضهم على أرض الواقع. وقد أدى ذلك إلى تقلص دائرة العرف ، وانحسار نطاق التقاليد التى كانت تفرض فى الماضى رقابة أكبر على سلوك الأفراد. لقد كنا قديما نسمع كثيرا عبارة (كلام الناس) ، وهى مقولة تدل على خوف

الناس من انتقاد المجتمع لهم إن هم فعلوا ما يخالف الأعراف والتقاليد. أما اليوم فلم يعد أحد يخشى رأى المجتمع لأن المجتمع تشرذم ، ففقد الأفراد رقيبا مهما على السلوك ، وصارت الحاجة أكبر إلى الدين.

تضخم النزعة الفردية

وفضلا عن ذلك فإن الشعور بالذات تضخم كثيرا لدى الإنسان المعاصر بسبب انتشار التعليم والثقافة ، فأصبح لدى كل إنسان اعتزاز مفرط بنفسه ، واستهانة كبيرة بآراء الآخرين فيه ، ولم يعد هناك اهتمام جدى بالانصياع للعادات والتقاليد والعيب ، ولم يعد الكثيرون يهتمون بنظرة المجتمع إليهم.

****

وهكذا نجد أن القانون والأعراف أعجز من أن يقوما حياة الناس بشكل صحيح ، وأنه لا غنى لأحد عن الدين خاصة فى العصر الحديث.

وقطعا **نحن لا نهدف لإلغاء دور القانون والعرف فى نشر الخير**. نحن فقط نضع الأمور فى موضعها الصحيح، ونعيد للدين قدره الذى يريد الملحدون أن يسلبوه. الدين فوق القانون وفوق العرف ، وحاكم لهما ، أو **على الأقل الدين يمثل إضافة شديدة الأهمية للقانون والعرف.**

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الدين كرقيب على الفكر

للدين دور أساسى فى الرقابة على الرأى والفكر ، وهذا شيء خارج تماما عن دائرة عمل القانون والعرف. إن المفكر إن عَدِم الأخلاق ضل وأضل. وكثيرا ما يشعر المفكر – أو حتى الإنسان العادى– بأنه إن اعترف بصواب رأى أمام خصمه فإن هذا يقلل من قدره ، ويغض من قيمته ، فيكون الحل هو العناد والمكابرة ، وهذا أهم سبب للتناحر والتنازع. على سبيل المثال يمكن أن يختلف السياسيون حول قانون المرور أو حل معوقات التصدير أو نظام التعليم الجامعى ، وهنا تكون مختلف الآراء مقبولة طبقا لأعراف المجتمع وطبقا للدستور ، ولكن بعض السياسيين يتمسك برأيه على سبيل الاستكبار حتى لا يقال أن حجة خصمة غلبته. وقد يدافع البعض عن رأيه رغبة

فى الحفاظ على مصالحه الخاصة أو مصالح بعض رجال الأعمال أو الجهات السياسية. وهنا سيظل كل واحد منحازا لرأى لا يتعارض مع الدستور والعرف ، ولا يتبقى إلا الدين ليراقب فكر الإنسان ، فالله مطلع على عقل المرء ، ويعلم جيدا ما إذا كان قد تبنى رأيا لأنه مقتنع فعلا أنه هو الحق أم لمجرد إثبات الذات ، أم لغير ذلك من المصالح.

إن تقاليد المجتمع تتقبل على سبيل المثال رأى من يريد تقليل سنوات الدراسة فى كلية الطب ورأى من يعارض تقليلها. والدستور والقانون كذلك يتقبلان الرأيين بشكل متساو ، لكن الله وحده هو الذى يعرف من الذى دافع عن الرأى الخطأ وهو يعلم أنه خطأ.

وقد يتخذ رئيس إحدى الدول قرارا بشن حرب أو بعقد معاهدة سلام أو الدخول فى اتفاقية اقتصادية ، ولكن تثبت الأحداث فيما بعد أن قراره كان خاطئا ، ولكن الرئيس يخشى من التراجع عن موقفه حتى لا يُتهم بسوء التقدير وقلة الخبرة ، لكن لو كان هذا الرئيس يؤمن بالله لتوقف فورا عن المسار الخطأ الذى سلكه حتى لا يتعرض لعقاب الله فى الآخرة

الدين هنا يصول ويجول منفردا فى ساحة لا ينافسه فيها أحد.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

5-الدين يصنع المعجزات الأخلاقية

الدين ليس مجرد دافع واحد للخير بجوار دوافع أخرى كثيرة. الدين دافع ذو طبيعة خاصة. الدين واحد من أقوى الدوافع التي تحث على الخير ، بل لا نبالغ إذا قلنا أنه هو الدافع الأقوى على الإطلاق. الدين يدفع الإنسان إلى الخير في ظروف يستحيل أن نتصور فيها حدوث الخير. والسبب فى هذا الإعجاز الأخلاقى للدين يكمن فى أن المؤمن يعتقد أن الله أهم موجود فى الكون ، وأنه وحده الجدير بأن يُعبد والخليق بأن يُسترضى ، وأن ما عنده من نعيم أفضل من كل ما فى الدنيا من لذات ، وما لديه من جحيم أسوأ من كل ما فى الدنيا من آلام. الملحد –على العكس– لا يؤمن بإله ، ولا يطمع فى ثواب خارج الدنيا ، ولا يخشى من عقاب بعد فنائها ، فأنى لمثل هذا البائس بقوة تسانده فى صراعه مع نوازع النفس الشريرة؟

ولننظر الآن إلى بعض المعجزات التى يصنعها الدين فى مجال الأخلاق:

العفو عن الآخرين

الإسلام يدعو إلى الإحسان: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } [النحل: 90]. والإحسان درجة أعظم من العدل ، فالدين – على سبيل المثال– يكفل للمظلوم حق الرد بالمثل لكنه في نفس الوقت يدعو إلى نسيان أخطاء الآخرين والعفو عنهم، وهذا هو الإحسان: "أن تفعل الشيء الحسن حتى لو كان أكثر مما يجب عليك". انظر إلى الآية التالية التي تقرر كره الله تعالى للقول السيء ، لكنها تستثنى المظلوم الذى يرد على إساءة وقعت في حقه ، ولاحظ كيف عقب القرآن بدعوة المظلوم إلى العفو والمغفرة ، وهذا من قبيل الإحسان: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 148، 149].

وفى آية شديدة الأهمية يتجلى الفرق بين العدل والإحسان ، حيث يُكفل للمظلوم حق الانتقام لكن مع الدعوة إلى العفو: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: 39 – 43].

وفى آية أخرى شديدة الروعة يدعو القرآن إلى الرد على الإساءة بالإحسان: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت: 34]

ويصف القرآن المؤمنين فيقول أنهم يمسكون أنفسهم عند الغضب ويغفرون للآخرين: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى: 37].

وفى آية جميلة يعد الله سبحانه وتعالى المتقين بالجنة الواسعة ، ويذكر صفات هؤلاء المؤمنين فيقول أنهم يكظمون غيظهم ويعفون عن الناس: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 133، 134]. وهنا نجد أن كظم الغيظ والعفو عن الناس من أشكال الإحسان.

ولأن غفران ذنوب الآخرين من أهم ألوان الإحسان وجدنا الله تعالى يحث رسوله عليه السلام على العفو عن كل من الأعداء والأصدقاء ، فقال عن اليهود: {وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: 13]. وقال عن المؤمنين: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: 159]

وتعاليم الإسلام لم تكن مجرد نصائح تتلى وتحفظ ، لكنها كانت تدخل القلوب ، لتنعكس على السلوك. **انظر إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه** الذى كثيرا ما جاد بماله على قريب له اسمه مِسْطَح بْنَ أُثَاثَةَ ، لكن مسطح قابل إحسان أبى بكر بجحود منقطع النظير ، فقد خاض في عرض ابنته عائشة رضى الله عنها في حادثة الإفك حين اتهمها المنافقون بالزنا ، فأقسم أبو بكر ألا يحسن إليه ، وهذا أقل رد فعل نتوقعه من رجل فى عصر كان شرف المرأة فيه أهم من حياتها ، وموتها أهون من اتهامها بالزنا، ولو استل أبو بكر سيفه وأطاح برأس مِسطح لما لامه أحد ، لكن القرآن نزل حاملا رأيا آخر ؛ فقد نهى المؤمنين أن يُقْسِموا على منع الخير عمن أساءوا إليهم: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النور: 22]. وهنا نجد أنفسنا أمام حضور طاغ للدين في ظل غياب كامل للدوافع الطبيعية للخير. إن أبا بكر مر بلحظة كان من المستحيل أن يجد بداخله أي دافع يحركه للإحسان إلى شخص اتهم ابنته بأبشع تهمة ، لكن الدين فعلها ، ولا عجب ، فالدين يمتلك منطقا فى غاية القوة ، انظر لقوله تعالى: (ألا تحبون أن يغفر الله لكم).

لقد تم إغراء أبى بكر كى يستمر فى عمل الخير من خلال وعد الله له بمغفرة الذنوب فى الآخرة، وغفران الذنوب لا يعادله شيء على وجه الأرض. واقرأ معى الواقعة كما رواها الطبرى فى تفسيره، وفيها تلاحظ كيف أن أبا بكر لم يَعُد للنفقة على قريبه على مضض ، ولكنه عاد بحماس غريب يعجز المرء عن تصديقه:

[عن عائشة، قالت: لما نزل هذا، يعني قوله:(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) في عائشة، وفيمن قال لها ما قال قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته: **والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا، ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال، وأدخل عليها ما أدخل،** قالت: فأنزل الله في ذلك(وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ)... الآية. قالت: فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجَّع إلى مسطح نفقته التي كان يُنْفِق عليه، وقال: **والله لا أنزعها منه أبدا.**]

وارجع كذلك إلى قصة يوسف عليه السلام ، ذلك الطفل البرىء الذى ملأ الحقد قلب إخوته ، فألقوه فى ظلمة البئر ليلتقطه المسافرون ، ويبيعوه عبدا فى بلاد بعيدة ، فينشأ وحيدا فى أرض غريبة ، محروما من حنان الأم ورعاية الأب ودفء العائلة. ولما مرت السنون انقلب الحال ، وأصبح يوسف أميرا ، وجاءه إخوته يتسولون الزاد ، فكانت لحظة مثالية للانتقام وشفاء الغليل ، لكن يوسف سامحهم بل طلب منهم أن يحضروا ليعيشوا معه ، ويتمتعوا بما يرفل فيه من ملك ونعيم. واقرأ معى هذا المشهد المبكى الذى صاغه القرآن ببراعة منقطعة النظير:

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} [يوسف: 88 – 93]

إننى أسأل الملحد: لو كنت مكان يوسف عليه السلام فهل تسامح من اختطفك ، وألقى بك فى البئر ، وتركك فى أغلال الرق؟

ولنا فى **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار** عبرة: لقد كان أقصى ما يُنتظر من الأنصار أن يأووا المهاجرين ويطعموهم ويسقوهم ، لكن حفاوة الأنصار بالمهاجرين بلغت حدا يصعب تصديقه ، حد اقتسام الثروة. يروى البخارى أن الرسول عليه الصلاة والسلام آخى بين عبد الرحمن بن عوف (من المهاجرين) وسعد بن الربيع الأنصارى ، وكان سعد ذا غنى فقال لعبد الرحمن: "أقاسمك مالي نصفين وأزوجك" ، قال: "بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني على السوق.......". ويفصح لنا القرآن عما هو أبعد من اقتسام الثروة ، لقد كان الأنصار يفضلون المهاجرين على أنفسهم رغم ما بهم من فقر: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]. ولم يقف إحسان الأنصار عند حد إيثار المهاجرين الأولين على أنفسهم، فقد آثر الأنصار على أنفسهم المؤمنين الجديد الذين لا سابقة لهم فى الإسلام ولا فضل. فعقب غزوة حنين قام الرسول عليه الصلاة والسلام بتوزيع الغنائم على المسلمين ، فأعطى للمسلمين الجدد من أهل مكة نصيبا أكبر ليتألف قلوبهم ، ويحبب إليهم الإسلام ، وأعطى الأنصار نصيبا أقل رغم أنهم أحق بالتكريم لما لهم من فضل فى نصر الإسلام ومؤازرته منذ أن كانت نبتة ضعيفة. وفى البداية حزن الأنصار من هذه القسمة غير العادلة للغنائم ، ولما علم الرسول بموقفهم جمعهم ، وخطب فيهم ، فقال كلاما رائعا أبكاهم ، ولا يزال يبكى المرء كلما قرأه. اقرأوا معى:

(يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ! قَالُوا: بَلَى، اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا وَاَللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ. أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ، أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إلَى رحالكُمْ؟ فو الّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ). فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسْمًا وَحَظًّا. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقُوا.)

ولسنا فى حاجة لسرد مزيد من النماذج التاريخية على أثر الدين كدافع للإحسان ، فالواقع يرينا عيانا فيوضا كثيرة ، والحمد لله لا يزال كثير من المؤمنين يجاوزون العدل إلى الإحسان ، والمواقف أكثر من أن تحصى ، ولولا ضيق المقام لروينا منها ما يملأ الكتب.

إن الدين هنا يصول ويجول في ملعبه الذى لا ينافسه فيه أحد. إن من يتعرض لظلم بالغ أو إهانة شديدة فإنه يفقد كل الدوافع الطبيعية للإحسان إلى من أساء إليه ، ولا يمكن لأى شيء أن يغير من رد فعله إلا الدين. أعلم أن بعض غير المتدينين يمكن أن يتسم سلوكهم فى بعض الأحيان بالإحسان لكنه يكون عادة – وربما دائما– إحسانا كاذبا لأنه ينشأ عن دوافع طبيعية ، وهذه بدورها تتسم بعدم الثبات ، أما إحسان المؤمن فهو إحسان حقيقى لأنه نابع من تعاليم خالدة للدين. والشىء الذى يفرق إحسان المؤمن من إحسان غير المؤمن هو العفو وغفران أخطاء الآخرين. الملحد يمكن أن يبالغ فى رعاية صديقه ووده لأنه يحبه ، لكن إن أساء إليه هذا الصديق فى أحد الأيام فإن الإحسان ينقلب إلى كره ، بل إلى عداوة شديدة ومَنٌ على الصديق منكر الجميل ، أما المؤمن فيجد دينه يحثه على غفران الذنوب وكظم الغيظ ، فيسامح ويصفح. وقد تجد كاتبا ملحدا يتعرض لنقد لاذع من بعض الخصوم ، لكنه يحجم عن الرد لمجرد أنه يرى في الرد نزولا لمستوى الصغار والصعاليك، وهذا يقلل من قدره ، فهؤلاء بالنسبة له مثل الذباب الذى يجب ألا يوقفه عن السير في طريقه لتحقيق أهدافه. ومع ذلك فإذا أتيحت له فرصة – فى غفلة من وسائل الإعلام– فإنه لا يتردد لحظة واحدة فى الانتقام بأبشع الوسائل ، فالشىء الذى كان يمنعه هو الخوف من كلام الناس ، فلما غاب الناس انتقم والتهم.

الغرور

قليلة هى الصفات التى يمقتها المرء أكثر من صفة الغرور. ومع ذلك لم ينج منها إلا قليل من البشر ، فأغلب الناس يحبون أن يتباهوا بمواهبهم وقدراتهم وإنجازاتهم وتفوقهم على الآخرين ، وهذا تناقض غير مقبول لأن من يمقت خلقا فعار عليه أن يأتى بمثله. ومع ذلك لا تستطيع النفس البشرية أن تتغلب بسهولة على الرغبة الملحة في استعراض القدرات والتباهى بالإنجازات ، لكن المؤمن وحده هو من يستطيع أن يكبت نفسه ويمنعها من ممارسة هواية الغرور ، فالمؤمن يعتقد أن مهاراته هي من صنع الله وليس من صنع نفسه ، وأن إنجازاته تحققت بفضل توفيق الله وعونه،

وليس بجهده الشخصى وحده. كما أن المسلم يجد لزاما عليه أن يخضع لنهى القرآن القاطع عن الغرور والتعالى على الناس: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: 18]. ومن خلال تجربة طويلة جدا في قلب مستنقع الغرور في كلية الطب وجدت أن من نجا من هذه الآفة كانوا هم المتدينون (المتدينون الحقيقيون بالتحديد). حقا بعض غير المتدينين يحاولون إخفاء إعجابهم بذواتهم (بسبب الخجل أو خوفا الحسد أو من انتقاد الزملاء)، بيد أنهم لا يبذلون في هذا جهدا كبيرا ، فتكون المحصلة في النهاية وجود الغرور بشكل غير فج لكنه لا يزال ملحوظا. أما المؤمن فهو حين يتكلم عن إنجازاته فإنه يعزو الفضل لله. ويحضرنى الآن تلك الآية الرائعة التي وصفت عباد الرحمن: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: 63]. إن هؤلاء العباد يمشون على الأرض هونا ، أى يمشون مشية هينة لا يشعر بها أحد ، أي أنهم يتحركون دون ضجيج ودون محاولة للفت الأنظار ، وهذه من أخص خصائص المؤمنين. إننى حين أتكلم عن مقاومة نزعة الغرور فأنا أتكلم عن مهمة في غاية الصعوبة ، لا يقوى أحد على إنجازها بغير الإيمان بالله.

قال لى أحدهم بعد أن حدثته عن تلك المعجزات التى يصنعها الدين: ولكن أغلب العلماء والنابغين والمخترعين لا يتحركون بدوافع دينية ، وبفضل هؤلاء العباقرة تغير وجه الدنيا؟

قلت له: يا عزيزى أن لم تفهم شيئا من كل ما قلت. أنا أحدثك عن المعجزات الأخلاقية للدين ، وأنت تحدثنى عن الإنجازات العلمية للأذكياء. أنا أتكلم عن الأخلاق ، لا عن التقدم المادى الدنيوى. الدين لم يأت ليتحدى العلماء والعباقرة ، الدين جاء ليصلح الناس سواء أكانوا أذكياء أم أغبياء. الدين لا يمنع العبقرى من أن يبتكر ، لكن الابتكار والاختراع لا يغنى عن الدين والأخلاق. العبقرية بلا أخلاق قد تزيد بعض البشر رفاهية وثراء ، لكنها تحول حياة البعض الآخر إلى جحيم، وما عليك إلا أن تذكر كيف أدى التفوق العلمى للعلماء الأمريكان والروس إلى اختراع القنبلة النووية ، وصناعة كميات خرافية من الأسلحة تكفى لتدمير الكرة الأرضية عدة مرات لمجرد صراع بلا معنى على النفوذ. وكم من مخترع استغل اختراعاته فى جوانب غير أخلاقية. وبم تسمى العلماء الذين اخترعوا الأسلحة البيولوجية والكيميائية للسيطرة على الشعوب الضعيفة؟ وبم تسمى خبراء الاستراتيجية والمستشارين السياسيين الذين يدبرون المؤامرات لتدمير شعوب بريئة لم تفكر فى إيذائهم؟ وبم تسمى الفنان المحترف الذى يخرج فيلما رائعا يحظى بإعجاب الملايين لكنه يشوه

إحدى الشخصيات التاريخية النبيلة؟ وكم رأينا من أطباء عباقرة لكنهم كانوا يخدعون المرضى ، ويجرون لهم جراحات بلا داع كى يحصلوا على المال. وكم من مرة اكتشفت الشرطة وجود عصابات منظمة من الأطباء لسرقة الأعضاء البشرية. وكم رأينا من أساتذة جامعات لا يتورعون عن تحطيم مستقبل زملاء لهم لمجرد الحقد والحسد. وكم من طالب متفوق يدعى أنه لا يذاكر دروسه حتى تخفت روح التنافس لدى زملائه ، فيتكاسلوا عن المذاكرة ، بينما هو يستعد للامتحان فى الخفاء بأقصى طاقته. وأذكر فى هذا السياق كيف تندر العالم الملحد ستيفن هوكنج – بطريقة جنسية – فى أحد كتبه من الجهل التام للعلماء الفرنسيين بظاهرة الثقوب السوداء فى بداية ظهور أمرها فى الأوساط العلمية ، ولو كان هذا العالم مسلما لعلم أن من قبيل العار التعالى على الآخرين والسخرية منهم لقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ } [الحجرات: 11]. يا أخى هنيئا لك على عبقريتك ، فابحث واكتشف وأبدع كما تشاء ، ولكن لا تغتر بنجاحك ، وانسب الفضل دائما لصاحبه: لله.

وبشكل عام فإن الملحدين يولون أهمية مطلقة للإبداع ، ويرفعونه فوق أي قيمة أخلاقية مهما كانت. ويحضرنى هنا الرد الرائع الذى صفع به الدكتور محمد عمارة وجوه الملحدين الذى دافعوا عن رواية "وليمة لأعشاب البحر" للكاتب حيدر حيدر التى تضمنت قدرا غير قليل من الإباحية، لقد قال لهم محمد عمارة فى لقاء متلفز: (إن النشال أيضا مبدع). يا له من رد رائع! حقا النشال –أى اللص الذى يندس وسط الركاب فى الحافلات ليسرق الفقراء– هو شخص فى غاية الإبداع والعبقرية ، فهو يبتكر وسائل عجيبة لسرقة ضحاياه دون أن يحس به أحد، فهل يدافع أحد عن عبقرية النشال؟ قطعا لا ، إذن الإبداع فى ذاته ليس مدعاة للاحترام.

لم يعد هناك أدنى شك فى أن العبقرية تصبح لعنة إن هى انفصلت عن الدين والأخلاق ، ومع ذلك كثيرا ما يحاول الملحدون أن يرهبونا بالعبقرية ، فيظهرون حفاوة بالغة بالعباقرة والمخترعين الذين برعوا وتفوقوا فى غيبة كاملة من تأثير الدين على حياتهم ، منطلقين من مبدأ سخيف يعتبر أن العبقرية صفة شاملة ، وأن المتفوق فى العلوم الطبيعية يكون حتما متفوقا فى كل شىء ، ومتقدما على كل الناس حتى أهل الدين. إن آفة العباقرة أنهم لا يعترفون أن عبقريتهم محدودة ، وأنها تنحصر فى مجال تخصصهم فقط ، وليس فى كل المجالات ، وأن من الحماقة أن تقارن بين رجل برع فى مجال ورجل برع فى مجال آخر ، وهل من الممكن أن نقارن بين عبقرية آينشتين

وعبقرية شكسبير؟ مستحيل لأن الأول تفوق فى الفيزياء ، بينما تفوق الثانى فى الشعر والقصة ، المقارنة مجحفة. لماذا إذن نقارن بين علماء الطبيعة ورجال الدين مع أن هذا تخصص وذاك تخصص؟ إنها مهزلة.

إن العلم والعبقرية أشياء عامة لكل البشر ، والدين لم يزعم قط أنه يحتكرها. كل إنسان – ملحدا كان أم مؤمنا– يستطيع أن ينهل من العلم ، وأن يثبت عبقريته ، ويصل إلى أعلى درجات التفوق. لقد أخبرنا الله تعالى أنه لا يقف فى وجه مريد التفوق ومبتغى التميز ، وأن من أراد النجاح فى الدنيا فسيمنحه الله النجاح ، لكن لن يكون له حظ فى الآخرة: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى: 20]. وفى آية أخرى يقوم القرآن بترسيخ نفس المبدأ قائلا: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: 15، 16].

إن هذا المبدأ الأخير يخرس ألسنة الملحدين المتنطعين بإنجازات العلماء الملحدين أمثالهم. إننا نبتسم فى وجوههم ونقول: "أنتم لم تأتوا بجديد". القرآن سبق أن أخبرنا أن الله تعالى – بشكل عام – لا يقف فى وجوه الكفار الراغبين فى التفوق فى الدنيا. أنتم تؤكدون لنا كل يوم صدق القرآن.

إننا نؤكد أنه إذا كان لدى بعض الناس شغف شديد بالبحث والاكتشاف والإبداع ، فالدين يبارك هذه المواهب ، ولكنه فقط يوجهها التوجيه الصحيح حتى لا يؤذى العباقرة غيرهم بمواهبهم. والإسلام على وجه التحديد يتميز على الإلحاد فى أنه يحث المسلمين على طلب وسائل القوة المادية ، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } [الأنفال: 60]. ولا شك أن العلم قد بات اليوم واحدا من أهم وسائل القوة ، وهذا يجعل طلب العلم واجبا على المسلم. وفضلا عن ذلك فإن الإسلام يلح – بشكل فريد– على التأمل فى الكون والمخلوقات لاكتشاف وجود الله وقدرته ووحدانيته ، وهذا يجعل طلب العلم فى القلب من عقيدة الإسلام وأخلاقه. باختصار: من يبدى عزوفا عن العلم والاختراع والإبداع ففى دينه نقص. هذا هو الإسلام أيها الملحدون، إنه يتفوق عليكم حتى فى عقر داركم وفى الجانب المادى الذى تخالون أنه يميزكم عن أهل الدين. كفاكم غرورا.

الضرورات الزائفة

مات الأب ، وترك زوجة وأولادا صغار ، فوجدت الأم نفسها فى حاجة إلى المال ، فامتهنت الدعارة حتى لا يجوع أبناؤها. وطالب متفوق دخل الامتحان ، فوجده شديد الصعوبة ، فحاول أن يتسول الإجابات من زملائه حتى لا يخسر المركز الأول. وفتاة رأت أن زميلاتها المتبرجات يقبل عليهن الخطاب ، فقررت أن تتبرج مثلهن. وامرأة اكتشفت أن زوجها يتاجر فى المخدرات فقررت أن تتكتم عليه حتى لا يدخل السجن ويضيع الأبناء. وموظف طلب منه المدير أن يغش الزبائن فاستجاب له حتى لا يخسر وظيفته. وشاب وجد زملاءه يسخرون منه لأنه لا يدخن ولا يتعاطى المخدرات مثلهم، فقرر أن يتحداهم ويتعاطى المخدرات حتى يثبت لهم رجولته.

المواقف من هذا النوع كثيرة جدا ، وهنا تجد الإنسان يشعر بأنه مضطر لعمل شىء يعلم أنه خطأ تحت وهم أنه فى حالة ضرورة ، مع أننا إن فكرنا قليلا لوجدنا أن من الممكن لهؤلاء أن يواصلوا الحياة دون الوقوع فى الخطأ. المرأة التى احترفت الدعارة بعد موت زوجها كان الممكن أن تواصل الحياة بمعاش زوجها الضئيل ، فالمرء لن يموت إن لم يأكل اللحم كل يوم. والطالب الذى قرر أن يغش فى الامتحان كان من الممكن أن يكمل حياته بشكل شبه طبيعى إن حصل على المركز الثانى أو الثالث. والمرأة التى تسترت على زوجها تاجر المخدرات كان يمكنها أن تربى أولادها فى بيتها بمساعدة أقاربها بعيدا عن هذا الأب المجرم. والفتاة التى تتبرج حتى تتزوج كان يمكنها أن تصر على العفة وترضى بزوج أقل مالا ومنصبا ووسامة.

إن هؤلاء لو رضوا بالقليل طمعا فى جزاء الله يوم القيامة لما فعلوا هذه الآثام. ولو توكلوا على الله، وأملوا فى أن يجعل لهم مخرجا فى الدنيا لما وقعوا فى الشر: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } [الطلاق: 2، 3]. إن المسلم يعلم أن المستقبل بيد الله وحده. المستقبل لا تحدده الأسباب المادية ، ولذا فالامتناع عن عمل الخطأ لن يترتب عليه بالضرورة خسارة محققة لأنه لا أحد يضمن ماذا سيحدث غدا ، فالفتاة المتبرجة قد تصاب فجأة فى حريق ، فيتشوه وجهها إلى الأبد وتقعد دون زواج. والفتاة العفيفة قد يسير الله تعالى إليها شابا مستقيما يهتم بالخلق أكثر من اهتمامه بالجمال فيتزوجها. والموظف الذى يرفض غش الزبائن قد يجد بشكل غير متوقع وظيفة جديدة فى اليوم التالى بعد استقالته. وهنا تبرز فكرة "التوكل على الله". والتوكل على الله يعنى إقدام

الإنسان على تصرف غير مضمون العواقب مستعينا بالله ومفوضا إياه كى يكون وكيله الذى يتصرف بالنيابة عنه. هنا يملأ الإيمان بالله خواء المستقبل ، هنا تدب الثقة فى أوصال الإنسان ، فيثبت ، ويصمم على التمسك بالحق والخير لأنه لا يخوض غمار الحياة وحده، ولكنه يستند إلى أعظم شخصية فى الكون: الله.

والإلحاد يعجز عن هذا تماما لأنه لا يؤمن بوجود إله يستند إليه الإنسان فى الشدائد ، ويتصور أن الأحداث فى الكون تحددها الأسباب الطبيعية المادية وحدها. ولهذا تجد الملحد ينحرف بسرعة بمجرد ما تقابله أبسط مشكلة ، أما المؤمن فأقوى وأكثر ثباتا. الدين يتفوق بشكل كاسح.

ملحوظة أخيرة: نحن هنا نتكلم عن الضرورات الزائفة ، أما الضرورات الحقيقية ، أى حالة الضرورة التى يترتب عليها الموت ، فمن حق المرء طبقا لتعاليم الإسلام أن يفعل الخطأ ، ومن قبيل ذلك جندى أسره العدو ، فهدد بالموت إن لم يفصح عن معلومات عسكرية ، فهنا يحق له أن يتكلم. وكذلك يباح للفقير أن يسرق إن لم يجد ثمن الدواء أو الغذاء.

6- بعض أعمال الخير ليست خيرا حقيقيا

نحن على يقين أن ما يحسبه الملحدون خيرا فليس كله كذلك. هناك "**خير حقيقى**" (أو خير نبيل)، وهناك أيضا "**خير كاذب**". "الخير الحقيقى" أو "الخير النبيل" هو: **(عمل حسن يعمله الإنسان، وهو يقصد به منفعة الآخرين)**. إذن الشرط المهم لاعتبار العمل الصالح خيرا حقيقيا هو أن يكون ناشئا عن قصد وتعمد ونية لنفع الغير. والعمل الصالح الذى يفتقر إلى هذا الشرط فهو خير كاذب.

وسنقوم الآن بفحص أعمال الخير من حيث درجة نبلها ، وفى النهاية سيفاجأ الملحد أن الخير الذى يحدث فى غيبة الدين يكون فى الغالب خير كاذب ، وما كان منه من خير حقيقى فليس بتلك الروعة التى كان يتصورها أو يريد أن يصورها لنا.

بعض دوافع الخير شريرة

لا ريب أن كثيرا من مظاهر الخير يكون الدافع إليها شريرا. رأيت في حالات كثيرة أشخاصا يتعاطفون مع أصحاب المصائب ويقفون بجوارهم ويساندونهم ، ولكن لما كنت أقترب منهم كنت أكتشف أنهم فرحون جدا بهذه المصائب. وكثيرون منا قابلوا نموذج الفتاة المخلصة التى تقف مع صديقتها ضد ظلم زوجها لكن هذه الصديقة تفعل ذلك فى حقيقة الأمر لأنها تغار من صاحبتها التي سبقتها في الزواج ، وتتمنى أن تُطلق حتى لا تكون أفضل منها فى أعين المجتمع.

ورأيت فتاة لما أرادت أن تهنىء صديقتها التي خطبت مؤخرا داعبتها قائلة: (ومتى ستفسخين الخطبة؟)[33] ولم تفهم الفتاة المخطوبة أن صديقتها تكاد تموت غيظا بسبب سبقها لها في الخطبة، وأن وراء الدعابة والتهنئة قلب حالك السواد ، وبالفعل سرعان ما فُسخت الخطبة!

ورأيت ابنا يتودد بشدة إلى والديه ليس لأنه يحبهما ، ولكن كى يجعلهما يهبان له نصيبا أكبر من إخوته في الميراث. ورأيت رجلا يتودد كثيرا لإحدى قريباته ، وكان هدفه في الحقيقة أن يجعلها تسكت عن أكله لنصيبها في الميراث ، وقد كان يعلم أنها ساذجة وستقنع منه بالفتات.

[33]) ورد فى الصحاح: فَسَخَ الشيء: نقضه. تقول: فَسَخْتُ البيع والعزمَ والنكاحَ، فانفسخ، أي انتقض.

ورأيت كذلك مدرسا للطب في إحدى الجامعات ، كانت تصدر منه أفعالا طيبة في ظاهرها ، فقد أحدث ثورة في علاج مرضى التمثيل الغذائي الذين كان أغلبهم فقراء ، وكان يقيم صلات شخصية بهم ، ويقضى وقتا طويلا في متابعتهم في عيادة المستشفى ، ويشرح لهم بنفسه كل شيء عن المرض ، وكانت هذه نقلة كبيرة فعلا ، فقد كان الأطباء قبله يتعاملون مع المرضى من بعيد ، أما هو فكان يبالغ بشدة في رعايتهم. ومع ذلك كان جميع الأطباء –وأنا منهم– يعرفون أن هذا الطبيب يهتم بالمرضى رغبة في الشهرة ليس إلا ، لقد كان يريد أن يثبت أنه أفضل طبيب في المستشفى، ولم يكن هذا مجرد سوء ظن منا بل حقيقة مؤكدة ، بدليل أنه كان يرسل في شراء بعض الأدوية والتركيبات الغذائية من خارج مصر ليعالج بها المرضى ولم يكن يفصح لأى طبيب عن أسماء المركبات أو مكوناتها أو مصدرها حتى يظل هو العبقرى الأوحد الذى يحمله أسرار الشفاء ، وطبعا هذا الطبيب لم يكن يكترث بأن يُعلم الأطباء الآخرين شيئا من علمه كى تستمر المسيرة من بعده إن حدث له مكروه ، بل بالعكس كان يسيء معاملة كل الأطباء إلى درجة أن بعض الطبيبات كن يبكين بسبب عنفه المفرط وتآمره عليهم. هذا المثال يبدو لى ممتازا جدا، فهو يثبت أن من الممكن لشخص شرير جدا أن يصدر منه فعل هو في ظاهره في قمة الخير مع أن دافعه في قمة الدناءة.

ورأيت طبيا يعامل مرضاه بطريقة في غاية الرقة والاحترام وينصت لشكواهم ويهتم بأسئلتهم ، وكان كل المرضى يحبونه مع أنه كان في الحقيقة يهدف إلى كسب ودهم حتى لا يُبدون اعتراضا حين يخبرهم بأنهم يحتاجون لإجراء جراحات لا ضرورة لها بهدف جنى أرباح طائلة.

وتاجر المخدرات لما يرشح نفسه في انتخابات البرلمان تجده يكثر من عمل الخير لمصلحة الفقراء، ليس لأنه يشفق على الفقراء ، ولكن لأنه يهدف إلى الحصول على أصواتهم في الانتخابات البرلمانية ، فيحمى نفسه ، ويستفيد من نفوذه.

وفى عالم السياسة ترى الشياطين يرتدون ثياب الملائكة. مثلا أمريكا ترفع لواء الحرية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة في العالم مع أننا – نحن الذين اكتوينا بنار أمريكا– نعرف يقينا أن هذه مجرد شعارات لتحقيق المصالح الأمريكية العليا ، وتدمير أى محاولة لليقظة الدينية لدى الدول الأخرى. لقد أيدت أمريكا المجاهدين الأفغان ضد الاحتلال السوفيتى ليس لأن أمريكا رقت لهذا الشعب المظلوم ، ولكن لأنها أرادت أن تلحق الهزيمة بمنافسها الشيوعى. وأمريكا احتلت العراق بدعوى حماية العالم من أسلحة الدمار الشامل ، لكن تبين فيما بعد أنه لا يوجد أسلحة من هذا

النوع ، وكل ما فى الأمر أن أمريكا رغبت فى تدمير دولة إسلامية كبرى. أمريكا أيضا أيدت ثورة الشعب السورى ضد بشار الأسد بالكلام (مجرد الكلام)، ليس رغبة في إنهاء مظالم السوريين ، ولكن حتى يغرق السوريون في حرب تدمر الجميع ، والدليل على ذلك أنها لم تفعل شيئا لما أباد بشار الأسد شعبه بالسلاح الكيماوى. وفرنسا أيضا لها باع طويل في هذا المجال ، فالفرنسيون يبالغون في الاهتمام بدول المغرب العربى ليس حبا في هذه الشعوب ، ولكن رغبة في أن يظلوا عبيدا للثقافة الفرنسية. وكانت فرنسا تشجع المخرج المصرى يوسف شاهين إلى حد التدليل، ليس من قبيل الاحتفاء بالنابغين من دول العالم الثالث ، ولكن لأنها تريد خلق عميل يروج للغتها وثقافتها. ولولا الرغبة فى عدم الإطالة لاستمر سردنا لعشرات الأمثلة المشابهة التي يموج بها العالم من حولنا.

باختصار كثير من مظاهر الخير التي نعجب بها تنبع من دوافع فى غاية الشر. وخيرٌ نابع من شرٍ يستحيل أن يكون خيرا حقيقيا. وعلى ذلك فلا بد من الحذر من ادعاء الملحدين بأن الأخلاق كانت دائما منتشرة في العالم عبر التاريخ قبل مجيء الأديان ، ففي كثير من الأحيان تكون الدوافع لعمل الخير في قمة الانحطاط ، وأخلاق بدوافع حقيرة لا يمكن أن تسمى أبدا أخلاقا.

بعض دوافع الخير ليست شريرة لكنها ليست نبيلة

عرفنا "الخير الحقيقى" أو "الخير النبيل" على أنه عمل حسن يعمله الإنسان بقصد أن ينفع به الآخرين. وفى إطار هذا التعريف سنلاحظ أن بعض دوافع الخير ليست شريرة ، ولكنها – فى نفس الوقت– لا تتسم بالنبل ولا السمو ، فصاحبها لا يقصد أن ينفع الناس ، ولا يشعر بأن عليه واجبا تجاه الآخرين.

وإذا رجعنا إلى قائمة الدوافع الطبيعية التى أوردناها فى فصل سابق لوجدنا أن كثيرا منها فى ظاهره خير لكنه فى حقيقته أنانية مطلقة:

- **عمل الخير استجابة لإلحاح الآخرين:** من الواضح أن من يفعل الخير لمجرد التخلص من الضغوط والإلحاح ، فعمله لا يتسم بالنبل والسمو ، ولكنه مجرد استجابة آلية لا يُقصد من ورائها نفع الناس ، أو كما يقول المصريون: هو يريد أن يتخلص من وجع الدماغ. ومن أشهر

الأمثلة على ذلك استجابة الزوج لضغوط زوجته حتى لا يعيش فى نكد ، فهو لا ينفذ طلبها من أجل إسعادها بل من أجل أن يريح نفسه.

- **عمل الخير رغبة في إظهار النفوذ:** من الواضح أن هذا النوع من الأعمال لا يمكن أن يعتبر خيرا حقيقيا لأن صاحبه يتصرف بأنانية ، فهو يقوم بعمل ينفعه دون أن يكون فى باله منفعة الناس ، بل فقط مجرد استعراض للنفوذ.
- **عمل الخير كنوع من تحقيق الذات وإثبات الكفاءات:** هذا النوع كذلك لا يعتبر خيرا حقيقيا لأن صاحبه يهدف إلى نفع نفسه ، وليس إلى نفع الآخرين. وقد حدث ذات مرة أن ذهبت إلى بلد غريب ، فبحثت عن بيت صديق ، فقابلت رجلا تبدو عليه أمارات سوء الخلق وإدمان المخدرات ، لكنه اجتهد فى إرشادى للمكان الذى أبتبغيه ، وبدا لى وقتها أنه يشعر بالفخر لأنه يمتلك معلومات أكثر منى ، فرغم أننى أبدو متعلما ، وهو يبدو جاهلا ، إلا أننى فى هذه اللحظة كنت أفتقر إلى معلوماته ومساعدته. لقد أخلص فى إرشادى ليثبت لذاته أنه شخص مهم وذو قيمة. وهذه الموقف تكرر معى كثيرا.
- **عمل الخير حرصا على تجنب مذمة الناس:** من يفعل الخير حتى لا يتعرض لانتقاد المجتمع فمن الواضح أنه لا يقوم بعمل من أعمال الخير الحقيقى. مثلا قد يذهب الرجل ليهنىء جاره على زواج ابنه ، لكنه فى الحقيقة يكون فى غاية الغل والحقد والغيرة بسبب تفوق ابن جاره على ابنه فى العلم والمال والأخلاق. هذا الرجل يتمنى لو كان بإمكانه ألا يذهب ليهنىء جاره، ولكنه يخشى أن يقول عنه الناس أنه يشعر بالغيرة تجاه جاره. فهل هذا الرجل عمل خيرا حقيقيا؟ قطعا لا لأنه لم يكن يقصد أن يعمل عملا حسنا يسعد جاره ، بل كان فقط يخشى ألسنة الناس.
- **عمل الخير رغبة في سماع المديح:** من الواضح أن من يساعد صديقه حتى يسمع منه كلمة شكر يطرب لها فؤاده ، فهذا لا يفعل خيرا حقيقيا لأن مقصده لم يكن أن ينفع صديقه بعمله، بل أن يسعد نفسه بكلمات الثناء.
- **عمل الخير تجنبا للعقاب:** لا جدال فى أن من يعمل الخير لمجرد أن يتجنب العقاب ، فهو لا يقوم بخير حقيقى لأنه لم يكن يقصد الإحسان للآخرين بل كان يقصد حماية نفسه من الإيذاء. مثلا السائق الذى يحترم إشارة المرور حتى يتجنب دفع الغرامة ، فهو يعمل خيرا

كاذبا. وصاحب المطعم يلتزم بالقواعد الصحية فى تخزين اللحوم وإعدادها ليس لأنه يخشى على صحة الناس ، ولكن لأنه يخشى المراقبين التابعين لوزارة الصحة.

- **عمل الخير رغبة في ملء وقت الفراغ:** من يشترك فى الجمعيات الخيرية لمجرد أن يملأ وقت فراغه ، فهو فى الحقيقة يبر نفسه ولا يبر الفقراء ، وما هذا بخير حقيقى.
- **عمل الخير طلبا للمصلحة والمنفعة الدنيوية:** لا شك أن البائع الذى يتكلم مع عملائه بأدب ورقة ويتحمل سخافاتهم من أجل أن يقنعهم بشراء بضاعته فهو لا يقوم بعمل من أعمال الخير الحقيقى ، إنه يهدف أولا وأخيرا إلى مصلحته الشخصية.
- **عمل الخير على سبيل الهواية:** من الواضح أن من يعمل الخير لمجرد أنه يستمتع بأداء هذا العمل فهو لا يقوم بخير حقيقى بل هى أنانية محضة. حكى لى أحد الأصحاب عن أستاذ فى إحدى الجامعات كان متخصصا فى أحد فروع العلم التى لا تلقى اهتمام الناس ، فكان أهله وأصحابه لا يكترثون بما لديه من علم ، ولما التقى صاحبى هذا بهذا العالم ، وأبدى له اهتماما بالتعرف على تخصصه لقى حماسا شديدا من الأستاذ الذى انبرى يوضح ويفسر ويشرح ، وكان الرجل فى غاية التواضع واللين والرقة ، وألغى كل الحواجز بينه وبين صاحبى. ثم نشأت بين الاثنين علاقة قوية ، ولكن بمرور الوقت فطن صاحبى إلى أن هذا العالم ليس على قدر كبير من الخلق والتواضع كما يظن ، بل كان فقط يمارس عملا يجلب له السعادة والمتعة ، فقد وجد أخيرا فرصة لأن يستمع له الآخرون باهتمام وترقب ، والدليل على ذلك أنه رأى منه تصرفات عديدة تنم عن سوء الخلق مثل سوء معاملة بواب العمارة والسخرية من العلماء الآخرين ، ومحاباة الطلبة من أبناء ذوى النفوذ.

بعض دوافع الخير نبيلة لكنها ليست الأكثر نبلا.

تأمل عزيزى القارىء فى المجموعة التالية من أشكال الخير ، وستلاحظ أنها تعبر عن خير حقيقى لأن فاعلها يتعمد ويقصد نفع الآخرين:

- عمل الخير بدافع الشفقة.
- عمل الخير بحكم الطبع والخلقة والتكوين.
- عمل الخير لأن الإنسان يحب أن يرى الآخرين سعداء.
- عمل الخير بدافع الحب والإعجاب.

- عمل الخير بدافع الفرح.
- عمل الخير حرصا على بقاء الجماعة.
- عمل الخير من أجل أولى القربى.

وسنركز هنا على النوع الأول من القائمة السابقة ، أى إلى عمل الخير بدافع الشفقة لكونه الأهم والأشهر ، إذ هناك إجماع بين الناس على أن الخير الذى يتم بدافع الشفقة هو أنبل أنواع الخير، ونحن لا نوافق على هذا.

وقفت امرأة أمام أحد المحال تأكل بعض الحلوى والمثلجات مع زوجها ، فوجدت طفلا يقترب منهما، ويقول مستعطفا: "أعطنى قطعة يا عمى" ، فنهره الزوج ، فحدق الطفل فى وجهه ، ودمعت عيناه ، ثم انهار باكيا ، وانطلق بعيدا بسرعة ، فرقَّ قلب الزوجة ، وأيقنت أنها أمام عزيز قوم ذل، فأسرعت وراء الطفل ، وطلبت منه المغفرة ، وأعطته بعض الحلوى ، وأخرجت من حقيبتها بعض المال ، وظلت تسترضيه حتى سكت ، وجفت الدموع من عينيه.

قطعا لا يختلف اثنان على أن هذا عمل نبيل لا غرض من وراه إلا تخفيف الحزن عن إنسان مسكين. لكن الصدمة التى نوجهها للقارىء الآن أن هذه الشفقة التى أظهرتها المرأة نحو الطفل ليست أنبل أنواع الخير. إن **الأكثر نبلا أن تفعل الخير، وقلبك يخلو من الشفقة.** الأكثر سموا أن تنتهى المعركة ، فيقع فى يدك أسير ، فتطعمه رغم أنه كان منذ قليل يروم سفك دمك. الأكثر نبلا أن تسامح من طعن ابنتك فى عرضها كما وجدنا فى قصة أبى بكر الصديق ومسطح بن أثاثة. الأكثر نبلا أن تعفو كما عفا الرسول عليه السلام عن أهل مكة بعد أن دخلتها جيوشه دون أي مقاومة ، رغم أنهم سبق أن كذبوه ، وسخروا منه ، وحاصروه ، وجوعوه ، وعذبوا أتباعه ، وأجبروهم على الفرار من وطنهم الذى ولدوا فيه. الأكثر نبلا أن تكون طبيبا تتعامل كل يوم مع عشرات المرضى المصابين فى حوادث ، فتفقد مع الوقت الإحساس بالشفقة والتعاطف ، ويصبح المريض أمامك كالآلة الصماء التى أصابتها بعض الأعطال ، ورغم ذلك تبذل قصارى جهدك لتخفيف الألم عنه. فى هذه الحالات وغيرها يفعل الإنسان الخير لإرضاء ربه رغم خلو قلبه من الشفقة والعاطفة.

ولك أن تتخيل رجلين أحدهما يحب طعاما مثل الكوسة ، والآخر يكرهها بشدة ، وفى أحد الأيام دعاهما أحد الزملاء لتناول طعام الغداء ، فكانت الكوسة وجبة رئيسية فى الطعام ، ففرح الأول

وانكب على الكوسة يأكل بشراهة ، بينما انقبض قلب الرجل الثانى لما شم رائحة الكوسة ، ورأى شكلها ، ولكنه خشى أن يحزن صديقه ، فتحامل على نفسه ، وبدأ يأكل ، ويعبر عن الامتنان لهذه الوجبة اللذيذة. ترى أى الرجلين أكثر نبلا: الذى أكل من الكوسة وهو يحبها أم ذلك الذى أكل منها وهو يكرهها حتى لا يجرح مشاعر صديقه؟ قطعا الرجل الثانى أفضل لأنه بذل جهدا أكبر كى يعمل عملا طيبا. وبنفس الطريقة نؤكد أن من يجد فى قلبه هوى يدفعه لعمل الخير (كالشفقة) فهو أقل نبلا من الإنسان الذى يفعل الخير على غير هواه.

إن من يتحدى نفسه ، ويجبرها على عمل الخير ضد هواها هو شخص بداخله قوة خير هائلة. وهذه القوة تنبع من الجزء الحر الموجود فى ذات الإنسان. ولكن ماذا عساه يكون هذا المُكون الحر؟

نوضح الأمر بعض الشىء فنقول أن كل إنسان منا خلق بصفات لا دخل له فيها (تقريبا) مثل الجمال والقبح والفصاحة والتلعثم والذكاء والغباء والكآبة والمرح والرقة والغلظة والحماس والفتور. الإنسان كذلك يولد فيُلقى وسط بيئة اجتماعية تؤثر على شخصيته وسلوكه ، فقد تلد أما فقيرة توأمين ، فربت أحدهما معها ، وأعطت الآخرة لسيدة ثرية عاقر لتتبناه ، فنشأ الأول متسولا مثل أبيه ، بينما نشأ الثانى رساما مشهورا. ومع ذلك **فالإنسان ليس مجرد آلة تتصرف فقط بالشكل الذى صُنعت به ، وبالطريقة التى صممت عليها. الإنسان يختلف فى أن بداخله مكونا حرا متعاليا، وهذا المكون الحر له القدرة – من حيث المبدأ– على تغيير طبائع الإنسان التى ولد بها ، وعلى تحدى الظروف الاجتماعية التى نشأ وسطها. وما الدين إلا خطاب من الله عز وجل لهذا المكون الإنسانى الحر ، خطاب يحثه على تحدى نفسه وتغيير عيوبه التى خلق بها وتلك التى اكتسبها من بيئته.** الدين دعوة لتمرد الإنسان على ذاته ، الدين جاء ليجعل الإنسان يتفحص ذاته ، ويُقَوم ما بها من اعوجاج ، وينمى ما بها من خير. الدين حركة تصحيح وترقى لا مثيل لها. الإلحاد فكر يقول للإنسان: "قف مكانك" ، أما الدين فحركة تصرخ فى وجه الإنسان: "هلم ، تقدم ، ارتق". الإلحاد حركة تُبنى على الغرور ، والثقة المفرطة فى ملائكية الإنسان ، بينما الدين حركة تقوم على نقد الإنسان لنفسه ، وإصلاحه لعيوبه ، واستزادته من مزاياه.

وبناء على ذلك نقول أن الملحد الذى يفعل الخير بدافع الشفقة يشبه رجلا يتباهى بمال ورثه من أبيه دون أن يتعب فيه ، أما المؤمن الذى يجد فى لحظة ما أنه لا يحمل فى قلبه شفقة على

شخص ومع ذلك يحسن إليه ويقدم إليه المعروف ، هذا المؤمن يشبه إنسانا ولد فقيرا لكنه كافح حتى أصبح من الأثرياء. الملحد يتباهى بالشفقة رغم أنه لم يخلق الشفقة فى قلبه ، أما المؤمن فإن وجد فى قلبه شفقة باركها ونماها واستزاد من خيرها ، وإن وجد فى قلبه فتورا أو غلظة يمنعانه عن الخير راجع نفسه وأصر على عمل الخير حتى لو كان ضد رغباته وأهوائه.

هل لا يزال هناك شك فى أن الخير النابع من الدين أسمى وأنبل وأرقى حتى من الشفقة؟

7- هل أتى الدين بخير حقيقى أم خير كاذب؟

سبق أن عرَّفنا الخير الحقيقى على أنه "فعل حسن ، يتم بغرض منفعة الآخرين". وفى ضوء هذا التعريف علينا أن نسأل: هل عمل الخير فى ظل الدين يعد خيرا حقيقيا؟ ألا ترى أن المؤمن الذى يتصدق على الفقراء طمعا فى الجنة وخوفا من النار هو فى الحقيقة شخص أنانى يعمل من أجل نفسه ومن أجل مصلحته ، وليس من أجل مصلحة الفقراء الذين يتصدق عليهم؟

يبدو هذا الاعتراض قويا لأول وهلة ، لكنه فى الحقيقة خاطىء تماما ، وذلك للأسباب التالية:

أولا: من الشائع جدا أن يفعل المسلم الخير بدافع الشفقة وبدافع نيل الأجر من الله فى نفس الوقت. على سبيل المثال قد يرق قلب المرء لحال امرأة تشكو الفقر والمرض ، فيقرر أن يكتفى بمنحها مائة جنيه لأن أولاده يحتاجون إلى ملابس جديدة من أجل العيد ، لكنه يتذكر فى تلك اللحظة أن العمل الصالح لا يضيع عند الله ، فيقرر أن يمنح المرأة خمسمائة جنيه طمعا فى الجنة يوم القيامة. وهنا نجد أن الشفقة على الآخرين اختلطت بالرغبة فى نيل الثواب يوم القيامة ، وهذا العمل يجب أن يعتبر من ألوان الخير الحقيقى لأن صاحبه كان يتعمد نفع الآخرين ، وهذا يتفق مع تعريفنا السالف للخير الحقيقى. إن رغبة الإنسان فى الاستفادة من ثواب الصدقة فى الآخرة لا تنفى رغبته فى نفع الآخرين وتخفيف آلامهم ، فلا تعارض بين الاثنين ، ومن الممكن للإنسان أن يفيد نفسه ويفيد الآخرين فى نفس الوقت.

ثانيا: العمل الصالح الذى يفعله المؤمن من أجل الجنة والنار يعبر عن "خير حقيقى" رغم أن صاحبه يبدو فى الظاهر أنانيا ، وذلك **لأن هذا العمل الصالح يدخل فى إطار مشروع كونى للخير صممه إله حكيم بهدف إسعاد البشرية** ، فالمؤمن حين يطعم الفقير أو يكسو العريان فهو فى الحقيقة ينفذ خطة رسمها الله ، وبالتالى فهو يقوم بعمل خير رغم أنفه ، إنه ترس فى آلة ، وهذا يشبه طهاة يشاركون فى إعداد وليمة كبيرة رعاها أحد الأثرياء لإطعام فقراء بلدته. إن الطهاة يشاركون فى إعداد الطعام من أجل الحصول على أجر نظير عملهم ، ومع ذلك فلا يمكن أن نقول أن هذه الوليمة ليست خيرا لمجرد أن الطهاة يعملون من أجل مصلحتهم الشخصية. انظر إلى مجمل الصورة تجد أن مشروع الوليمة نفسه مشروع خير بامتياز (لكون صاحبه فعله شفقة على الفقراء)، والطهاة آلان تنفذ هذا المشروع الجميل. وبنفس الطريقة نقول أن الأعمال الصالحة التى يعملها المؤمنون ابتغاء للجنة وخوفا من النار لا يمكن أن تكون مبررا للقول بأن الخير الذى

يدعو إليه الدين ليس خيرا حقيقيا. الدين مشروع يهدف لسعادة البشرية جمعاء ، وهذا المشروع يصبغ بصبغته الخيرية كل أفعال المؤمنين المشاركين فى تنفيذه. وبعبارة أخرى نقول أن **الأعمال الصالحة التى يفعلها الناس بدافع دينى (الجنة والنار) هى أعمال صالحة باعتبار أن من أمر بها وحث عليها هو الله إله الخير. وحين نُقَيم أعمال الله تعالى طبقا للتعريف السابق للخير فسنجد حتما أنها أعمال خير لأن الله لا يحتاج لأى شىء من الناس ، ولا يهدف لتحقيق أى غرض سوى سعادة البشرية على وجه الإجمال** ، والله تعالى لم ينعم علينا ويتفضل من أجل مصلحة شخصية ، ولا من أجل تحقيق لذة لذاته ، أو دفع ألم عنه ، بل من أجل تحقيق العدل ونشر الفضيلة. وحتى فى تلك الحالات التى يؤذى فيها الله الآثمين فى الدنيا ، فهذا الإيذاء هو نفسه شكل من أشكال الخير لأن عقاب المخطىء عدل ، والعدل خير ، كما أن هذا العقاب يمثل عبرة للآخرين حتى لا يكرروا نفس الخطأ ، ويمثل العقاب أيضا حافزا للصالحين حتى يثبتوا على نهجهم ، ولا يميلوا للآثمين. باختصار: إن رأيت المؤمن يفعل الخير من أجل الجنة فلا تقل أن هذه أنانية ، بل يجب أن توسع نظرتك للأمر كى ترى أن هذا الفعل جزء من مشروع كونى للخير، وهذا المشروع يمثل خيرا حقيقيا لأن الله تعالى نفذه من أجل البشرية ، وليس لأنه مستفيد منه.

عزيزى الملحد لتتمهل بعض الشىء ، وليكن لديك بعضا من العمق والخيال لتدرك أن الأعمال الصالحة التى يعملها المؤمنون من أجل الجنة والنار لا تغض مطلقا من القيمة الأخلاقية للدين.

ثالثا: إذا عدنا لمثال الوليمة والطهاة لوجدنا أن الطهاة كان بإمكانهم أن يحجموا عن المشاركة فى إعداد الوليمة لأن تاجر مخدرات ثرى (ينافس الثرى الطيب على عضوية البرلمان) قد وعدهم بأجر أكبر إن هم أمتنعوا عن المشاركة فى الوليمة ، ورغم ذلك فضل الطهاة المشاركة فى مشروع الخير. وعلى ذلك فالطهاة هم فى الحقيقة شركاء فى هذا المشروع الخيرى رغم تقاضيهم لأجر عليه. وبنفس الطريقة نقول أن المؤمن الذى يفعل الخير من أجل الجنة والنار رغم أنه يعمل من أجل نفسه ومن أجل مصلحته فى الآخرة إلا أنه كان من الممكن أن يبدى عدم اكتراث بالجنة والنار ، وكان باستطاعته أن يسعى لنعيم الدنيا ، ويهمل ثواب الآخرة ، فيتكسب من الحرام ، ويقبل الرشوة ، ويأكل أموال اليتامى ، ويقول: "نفسى وما بعدها الطوفان". وعلى ذلك فتضحية المؤمن بالدنيا من أجل الآخرة يجعله مشاركا بشكل حقيقى فى المشروع الأخلاقى الإلهى ، وليس مجرد فرد يعمل من أجل مصلحته الشخصية.

رابعا: إن فكرتَ بعض الشيء فى ذلك المؤمن الذى يفعل الخير حرصا على الجنة وخوفا من النار فإنك ستكتشف أن إيمان هذا المرء بالجنة والنار ومجمل قضايا الدين هو فى حقيقته عمل حسن وسلوك صالح وشكل من أشكال الخير. نعم الإيمان نفسه عمل من أعمال الخير. **الإيمان عمل أخلاقى حقيقى** كما سبق أن فصلنا القول فى فصل سابق ، وسنوجز ما سبق فى النقاط التالية:

- لله تعالى أفضال كثيرة ونعم جمة على الإنسان ، ويكفى أن نتذكر نعما كالبصر والعقل وانتصاب القامة والشكل الحسن. ولا شك أن شكر النعمة ورد الجميل خلق قويم وسلوك حميد، بينما جحود النعمة ونكران الفضل عمل مشين لا يرضى به أحد. وعلى ذلك فمن الواجب على كل إنسان أن يعبد ربه كمقابل للنعم التى أنعم بها عليه.
- الله تعالى هو إله الكون وخالقه وحافظه. ومن ينكر وجود الله ، وينسب الفضل فى وجود الكون بنظامه البديع إلى الطبيعة العمياء ، وهو يشبه من يتهم بالباطل العالم ستيفن هوكنج بأنه سرق أبحاثه حول الثقوب السوداء بحذافيرها من زميل له فى العمل ، وأنه لا يستحق كل هذه الشهرة. إذن الكفر يدخل فى باب قول الزور وترويج الباطل والظلم. ولذلك تجد القرآن يؤكد أن المشرك ظالم ، أى أنه بلا خلق: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13].
- الإيمان تواضع والإلحاد غرور. حقا قد يوجد مؤمن مغرور أو ملحد متواضع ، لكن أنا هنا أتكلم عن قرار الإيمان نفسه ، وأؤكد أنه ينم عن تواضع ، بينما قرار الإلحاد ينم عن غرور. إن الملحد يكابر ويرفض الاعتراف بوجود إله عظيم يأمره وينهاه ويقول له: افعل هذا ، ودعك من ذاك. الملحد يظن أنه بعلمه ومكانته ونفوذه وشهرته أفضل من عامة الناس ومن رجال الدين ، ومن العار عليه – وهو من هو؟– أن ينزل لمستوى الدهماء والغوغاء.
- شريعة الله تعالى تهدف إلى تنظيم حياة البشر وإقامة العدل بين الناس. الله تعالى يريد لنا السعادة والهناء والسكينة والسلام. ومن يكفر بشريعة الله العادلة فهو يقوم بعمل من أعمال الشر حتى لو ارتدى ثياب الواعظين ونطق بكلام المصلحين. وبناء على هذه الأسباب نقول أن عمل الخير من أجل الجنة والنار يجب أن ينظر إليه على أنه عمل أخلاقى بامتياز لأنه رضوخ للعقيدة الصحيحة الجديرة بأن تُتبع.

خامسا: فضلا عما سبق فإن كثيرا من المؤمنين يعملون الخير وهمهم الأكبر نيل رضا الله ، وليس دخول الجنة والنجاة من النار. وهذا النوع من المؤمنين يتربع على القمة ، وهم ليسوا قلة ، فكثير من المؤمنين يطيعون الله ، وليس فى أذهانهم وقت الطاعة الرغبة فى الجنة أو الخوف من النار، ولكنهم فقط يحبون أن يرضى الله عنهم ، ولهذا وجدنا القرآن فى آية مهمة يعد المؤمنين بالثواب فى الآخرة ، فذكر أن "رضوان الله" هو أكبر من كل صور الثواب المعتادة بما فى ذلك الجنة: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 72]. وورد فى آية أخرى الإشارة إلى رضوان الله: { قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 15]. وذكر رضا الله باعتباره أكبر ثواب ليس له معنى إن لم يكن هناك طائفة من المؤمنين يعبدون الله ويفعلون الخير حبا لله ، وليس خوفا من ناره أو طمعا فى جنته. وأفضل مثال على هذا النوع من الناس رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ (أى تتشقق) رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[34]. ويذكر فى هذا السياق قول رابعة العدوية: (اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأدخلني فيها، وإن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها، إنما أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد)[35]. وقالت رابعة فى ذلك شعرا[36]:

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيلَا

أَوْ لِأَنْ يَسْكُنُوا الْجِنَانَ فَيَحْظَوْا ... بِقُصُورٍ وَيَشْرَبُوا سَلْسَبِيلَا

لَيْسَ لِي فِي الْجَنَانِ وَالنَّارِ حَظٌّ ... أَنَا لَا أَبْتَغِي سِوَاكَ بَدِيلَا

ومن الواضح أن الخير الذى يفعله هؤلاء المؤمنون هو خير حقيقى لأنهم لا يعملون من أجل أنفسهم بل بدافع حب الله والرغبة فى إرضائه ، وقد سبق أن قلنا أن هذا شكل من أشكال الخير

---

34) متفق عليه ، واللفظ لمسلم. وفى رواية البخارى: أن المُغِيرَةَ بن شعبة قال: قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»

35) نقلا عن: **تفسير الشعراوي** (3/ 1327).

36) نقلا عن: **تفسير المنار** (4/ 112). تأليف محمد رشيد رضا.

الحقيقى مثله مثل دافع الشفقة.، ورغم ذلك فإننا لا يمكن أن نصف عمل الصالحات حرصا على الجنة ودفعا للنار بأنها أعمال أنانية غير أخلاقية ، وذلك للأسباب التى ذكرناها آنفا.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

8-الدين يقَوِّم الدوافع الشريرة للخير

قلنا من قبل أن الخير قد يصدر أحيانا عن دوافع شريرة ، وهذا ينطبق على كل من المؤمن والملحد، لكن هناك فرق كبير بين الاثنين: المؤمن وحده هو الذى يشعر بقبح دوافع الخير الكاذب. المؤمن يعلم أن من المفروض عليه أن تكون أعماله كلها ابتغاء وجه الله ، فما كان بهدف رضا الله فهو وحده الذى يثاب عليه المؤمن. ومن القواعد الراسخة فى الإسلام أن الأعمال بالنيات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» رواه البخارى.

إن المؤمن إن تصدق على فقير فإن دينه يلزمه أن يسأل نفسه: لماذا تصدقتُ عليه؟ هل كنت أطمع أن يرانى الناس ويتحدثوا عن كرمى؟ هل كنت أريد أن أُشعره أننى أفضل منه؟ هل كنت أريد التخلص من إلحاحه؟ أم أننى كنت أطمع أن يرضى عنى ربى؟

والإجابة على الأسئلة السابقة تؤدى إلى تطهير النفس ، وتنقية الروح ، فمن كان يرجو لقاء ربه فسيشعر بالندم ، وسيستغفر الله لأنه كان يهدف بالعمل الصالح غرض دنيوى غير ذى قيمة ، وسيغير من حالته النفسية ، وسيتحول إلى حالة جديدة من الإقبال على الخير لهدف سام شريف هو إرضاء ربه الذى يهدف إلى خير الكون كله.

إن من أروع مناحى الدين أنه لا يدعو فقط إلى عمل الخير بل يدعو كذلك لأن يكون هذا الخير خيرا حقيقيا عاريا عن أغراض الدنيا ومنافعها. ومن يبتغ بعمله الدنيا يعطه الله الدنيا ، لكن لن يكون له فى الآخرة من نصيب ، أما من يبتغى الآخرة فهو خير الفائزين. ومن المشهور فى الإسلام أن "الرياء" أحد أقبح الذنوب. والرياء هو أن يعمل الإنسان العمل الحسن حتى يراه الناس ويعجبوا به ويمدحوه ، ومثل هذا الشخص لا ينال ثوابا فى الآخرة على ما فعله من خير. والرياء منهج ينتهجه المنافقون: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: 142] ، وقال تعالى أيضا: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ} [الماعون: 4 – 6]. وفى آية أخرى حذر القرآن المؤمنين من أن يكونوا كالمحسن الذى ينفق ماله على سبيل الاستعراض وحب الظهور: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 264]. واضح إذن من كلام القرآن أن الله تعالى لا

ينخدع بالظاهر ، وليس له من أعمالنا إلا الباطن والنية والقلب. وفى هذا المقام نتذكر واحدا من أروع الأحاديث: [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ **قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ**، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ **تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ**، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، **وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ**، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"]

وإذا ذهبنا إلى الملحد فلن نجد لديه رغبة تذكر فى نقد دوافعه لعمل الخير. الملحد يكون راضيا بالخير الذى يعمله ، ولا يتوقف لنقد عمله وفحص نيته ، ولا يحاسب نفسه على الدوافع التى ساقته لعمل الخير ، وذلك لأن الملحد لا يعتقد أن أحدا يعلم ما يدور داخل قلبه وعقله ، خلافا للمؤمن الذى يعلم يقينا أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ} [البقرة: 284].

وخبرونى كم ملحد ذهب إلى عمله فى الصباح ، وهو يخشى أن يعود من عمله ، وقد برع فى أداء وظيفته بدافع من الرغبة فى إثبات الكفاءة ، ونيل رضا الرؤساء ، واستحسان الزملاء ، وليس بدافع أخلاقى حقيقى؟

خبرونى هل رأيتم ملحدا يشبه أبا حامد الغزالى الفيلسوف النابغة الذى شعر بوخز الضمير لما اكتشف أنه يتعلم ويُدَرس ليس بهدف هداية الناس ونشر العلم ، ولكن بدافع الرغبة فى نيل الإعجاب والشهرة. واقرأوا معى كلامه الفريد الذى سطره فى كتابه الخالد "المنقذ من الضلال" لتروا كيف يفعل الإيمان بالمؤمن ، وكيف يطهر قلبه ويجعل عمله خيرا مطلقا إن شاء الله:

["ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل

بتلافي الأحوال. فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جلد الشهوة حملة فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار! ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة. فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم. ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجبي المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب...... ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين اشغل الشغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى."][37]

فانظر إلى هذا الرجل الصادق الذى ركل بقدمه الشهرة والمجد ، وخبرنى كم ملحدا امتلك نفسا بهذه الشفافية والصفاء والإخلاص وصدق النية وسلامية الغرض؟

[37]) **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال**. تأليف أبى حامد الغزالي . صفحة 103.

والآن يمكننا أن نقول بشكل عام أن كلا من المؤمن والملحد يمكن أن يعمل الخير بدافع غير أخلاقى ، لكن الإيمان يفرض على المؤمن أن يراجع نفسه ، ويعدل نواياه ، ويطهر مقاصده ، ويوجه نيته نحو المشروع الإلهى الأخلاقى ، بحيث يصبح عمله فى النهاية عملا صالحا بمعنى الكلمة، وليس مجرد أفعال ليس لها من الخير إلا الاسم.

صدقونى حين أقول لكم أن الخير بلا نية يستحيل أن يكون خيرا حقيقيا. إننى أتذكر الآن مشهدا من مسرحية "المتزوجون" الشهيرة[38] حيث كانت الزوجة الشابة "لينا" تشيد ببطولة زوجها "مسعود" الذى ألقى بنفسه فى البالوعة لينقذها حين سقطت فيها فجأة. لكن الجمهور كان يموت من الضحك حين يقول مسعود بسذاجه أنه سقط فى البالوعة رغما عنه حين دفعه أحد الأشخاص على غرة. ولو كانت المسرحية جادة لكان من الممكن صياغة نفس الموقف فى مشهد مبكى مؤثر حيث تكتشف البطلة أنها خدعت طويلا فى زوجها الذى كانت تحسبه بطلا غامر بحياته من أجلها. والمغزى الخطير من هذا المشهد المضحك المبكى أن العمل الصالح إن لم يكن وراءه نية صالحة فهو والعدم سواء ، بل إنه فى الحقيقة يثير الاحتقار.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

38) نحن هنا نستشهد بهذه المسرحية لمجرد توضيح الفكرة للقارىء ، لكننا قطعا نعترض على ما تضمنته المسرحية من مخالفات شرعية ، مثلها مثل الغالبية العظمى من الأعمال الفنية الموجودة على الساحة.

9-الدين باعتباره منشئا للمبادىء

رأينا أن من أهم أدوار الدين الحث على الفضائل ، لكن هناك دورا آخر للدين لا يقل أهمية: الدين ينشىء الفضائل ، ويحدد القيم ، ويرسم الأخلاق التي يجب أن يتبعها الناس. إن الناس يختلفون بشدة في الحكم على كثير من الأعمال ، حيث يعتبرها البعض حسنة ، ويعتبرها البعض الآخر سيئة ، ولذا كانت الحاجة ماسة لخطوط فاصلة تبين ما الذى يجب أن يُفعل ، وما الذى يجب أن يُتجنب. كان لا بد أن يأتى الدين ليرسم الإطار الذى يمكن للإنسان أن يتحرك بداخله ، والذى يعاقَب إن تجاوزه. ولقد سبق أن أوضحنا الفرق بين "المعروف" و "الخير" ، وقلنا أن "المعروف" كلمة تشير إلى الأفعال التي يشتهر حسنها بين أغلب الناس في معظم الأمم والشعوب" مثل الحنان والرحمة وإطعام الفقراء ومساعدة الضعيف وعيادة المريض وقول الصدق والحكم بالعدل ، أما الخير فيشير إلى تلك الفضائل التى اختص بها الإسلام ، والتى لا تتفق على حسنها أغلب الأمم الأخرى مثل الجهاد فى سبيل الله ، والصلاة والذكر والحج وغيرها. والآن نقول أن **من وظائف الدين أن يحدد "الخير" ، وليس فقط أن يحث على "المعروف"** ، فالخير يختلف من شعب لشعب، ومن ثقافة لثقافة.

إن العقل الإنسانى إن ترك وشأنه فإنه قد يشتط ويضل. وحتى أصحاب النوايا الحسنة وأهل المبادىء والأخلاق معرضون للضلال إن هم أعرضوا عن الدين. ولنا فى الأمم الأخرى عبرة.

انظر إلى أمريكا وأوربا والدول الغربية التى انسخلت من الدين ، وتحررت من حدوده. لقد ظنوا أن بإمكانهم أن يبقوا على درب الفضيلة حتى بعد أن يغادروا قطار الدين ، فماذا حدث لهم؟ لقد اعتمدوا بشكل كامل على العقل ، **فحدثتهم عقولهم أن الظلم رذيلة والعدل فضيلة** –وهذا شىء لا غبار عليه– لكنهم طبقوا هذه القاعدة بشكل مطلق ، فحكموا بأن أى تفرقة بين المرأة والرجل ظلم، وأن من الواجب المساواة بين الجنسين بشكل كامل ، وأن الرجل ليس من حقه أن يأمر ، والمرأة ليس من واجبها أن تطيع ؛ المرأة من حقها أن تعمل خارج البيت ، والرجل من واجبه أن يعمل داخل البيت ؛ وصار من حق المرأة أن تفعل أى شىء من أجل تحقيق ذاتها ، وإثبات نجاحها فى عملها بما فى ذلك تأخير الزواج والحمل أو الامتناع عنهما نهائيا ، بل وصل الأمر إلى أن أصبح من حق المرأة أن تمارس الأنواع العنيفة من الرياضة مثل الملاكمة ورفع الأثقال ، وبلغ الجنون بمنظرات الحركة النسائية إلى حد الدعوة إلى القضاء على الزواج ، بل القضاء على الحب ،

باعتبار أن الحب يفترض خضوع المرأة للرجل ، ويظهرها على أنها الطرف الأضعف. هذه هى النهاية الأخلاقية البائسة التى قادتهم إليها عقولهم. إنهم يحسبون أنهم يطبقون مبدأ العدل الذى لا غبار عليه ، لكنهم فى الحقيقة هدموا الأسرة ، وفجروا أساس المجتمع. أما المجتمعات التى لا تزال ترتضى لنفسها حكم الله ، فهى تعترف بأن المرأة تساوى الرجل فى جوانب لكنها تختلف عنه فى جوانب أخرى ، وأن المرأة ليست مستقلة عن الرجل ، والرجل ليس مستقلا عن المرأة ، فهما عضوان فى أسرة ، والأسرة مؤسسة لها نظام ، ونظام الأسرة يحتم وجود رئيس ومرءوس ، وإلا سقطت فى مستنقع الصراع والحرب الأهلية. وهنا يبرز دور الدين كصانع للمبادىء يختلف عن العقل البشرى الخالص ، واختلاف الدين عن العقل البشرى الخالص لا يعنى أن الدين يقف فى جانب اللاعقل ، بل يعنى أن الدين صنعه العقل الإلهى الكامل ، وليس العقل البشرى القاصر ، وشتان بين كمال ونقص.

ورأى الغرب أيضا فى الحرية فضيلة والعبودية رذيلة ، فقرر كسر القيود ، وقضى بأن كل إنسان حر فى أن يفعل ما يشاء ، فأصبح من حق الرجل أن يزهد فى النساء ويعاشر الرجال ، ومن حق المرأة أن تفعل نفس الشىء مع بنات جنسها ، بل أبيح زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة. كما منحت الدول فى الغرب لكل إنسان الحق فى اختيار جنسه ، فانتشر بينهم ذكور يجرون جراحات ليتحولوا إلى إناث ، وإناث يغيرون جنسهم ليصيروا ذكورا. ووصل السفه إلى حد إعطاء المرأة الحق فى أن تقتل النفس الحية الموجودة داخل رحمها إن ارتأت أن الأطفال يمكن أن يعوقوها عن العمل أو الاستمتاع بالحياة. وأصبح من حق المرأة أن تكشف عن جسدها وتهبه لمن تشاء دون زواج طالما وجد التراضى. وهكذا قادهم العقل إلى المبالغة فى ترسيخ قيمة الحرية حتى تحولت إلى فوضى عارمة وثورة شنيعة على الطبيعة النقية والفطرة السوية ، ونتج عن كل ذلك تناقص متزايد فى أعداد السكان ، وصارت دولهم مهددة بالانقراض ، وسُمعت فى أرجائها صرخات التحذير من خطر المهاجرين المسلمين الزاحفين ليستعمروا بلادهم سلما ، والحقيقة أن الأولى بالغربيين أن ينظروا إلى نقاط ضعفهم بدلا من أن يبحثوا عن عدو وهمى يحملونه مسئولية ما يجرى لهم.

والغربيون أيضا أقروا بقيمة الجمال ، ورأوا أن الجمال فضيلة والقبح رذيلة ، لكنهم اشتطوا فى حكمهم ، فتركوا العنان للمرأة لتستخدم كل وسائل التجميل الممكنة بما فى ذلك إجراء عمليات التجميل التى لم يعد هدفها فقط تجميل القبيح وإخفاء العيوب الخلقية بل إضفاء مزيد من الجمال

على وجوه هى بالفعل جميلة. والرجال أيضا لحقوا بالسباق ، فخبت لدى كثير منهم روح الرجولة، وصار من المتعذر التفرقة بينهم وبين والنساء. لقد انشغل الإنسان بالجسد ، ونسى الروح. انشغل بالتوافه، وغفل عن مآسى البشرية ، وصم آذانه عن تأوهات المعذبين فى بقاع الأرض البائسة. ولو استمع هؤلاء إلى صوت الدين لفهموا أن الروح أهم من الجسد ، وأن الله تعالى لا ينظر إلى الشكل بل إلى القلب والعمل: قال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: 4]. وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ لَا ينظر إِلَى صوركُمْ وَلَا أموالِكم وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وفى سورة التحريم أورد القرآن صفات النساء المرشحات للزواج بالنبى فضمت القائمة سبع صفات ، وورد فى ذيلها صفة واحدة تدل على الجمال: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحريم: 5].

والحضارة الغربية أيضا رأت أن تشجيع النابغين والمهرة يؤدى إلى نهضة الأمم وقوتها ، ولكنهم بالغوا فى تشجيع المواهب حتى رأيناهم يبرعون فى عروض الاستربتيز (فن خلع الملابس) ، وفى إخراج الأفلام الإباحية ، وكتابة القصص الفاضحة ، وصنع التماثيل العارية بما فى ذلك تمثال يصور مشهد اغتصاب رجل لامرأة. ولا أنسى مقالا لولا أنه ورد فى صحيفة الجارديان البريطانية[39] الجادة لما صدقته. كان عنوان المقال كالتالى: "الفنانة التى تبيض من فرجها– أو لماذا يكون فن الأداء بهذه السخافة؟

The artist who lays eggs with her vagina – or why performance art is so silly

لقد تكلم المقال – المنشور بتاريخ 22 أبريل 2014– عن فتاة اسمها ميلو موارى برعت فى صنع كرات تحتوى على سوائل ملونة ، وكانت تضع هذه الكرات الصغيرة فى داخل فرجها ، ثم تخرج على الجمهور فى الشارع وهى عارية تماما ، ثم تضغط على هذه الكرات بعضلات الفرج ، لتتفجر ويخرج السائل منها فيقع على الأرض ، فتحرك جسدها بطريقة خاصة أثناء نزول السائل كى ترسم فى النهاية أشكالا فنية متعددة الألوان على الأرض ، ولا عزاء للعقل !! ورغم أن كاتب المقال كان

---

39) **The artist who lays eggs with her vagina – or why performance art is so silly**. By Jonathan Jones. The Guardian. 22/4/2014. https://www.theguardian.com/artanddesign/jonathanjonesblog/2014/apr/22/artist-eggs-vagina-paintings-performance-art-milo-moire. Accessed on February 21, 2020.

ينتقد هذه المرأة السفيهة إلا أنه لم يطالب بمحاكمتها ولا عقابها ، فالحرية عندهم شيء مقدس. ولكن أى حرية تلك التى تسمح للمجنون بأن يعبث بحياة العقلاء؟ ولو قرأ هؤلاء قصة قارون التى وردت فى القرآن لعلموا أن الله تعالى يمنح الناس ليمتحنهم ، ويرى كيف يتصرفون فيما عندهم من نعم: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 76، 77]. إن هذه المرأة الساقطة لا تختلف عن قارون ، فهى تعتقد أن الفضل فى جمال جسدها ومواهبها الحركية يجب أن ينسب إليها هى ، أما لو كانت تعتقد أن الفضل يرجع إلى الله عز وجل لفكرت كثيرا قبل أن تستغل مواهبها فيما يغضب ربها.

ورأى الغربيون كذلك أن الرياضة شيء مهم لصحة الجسم ، فشجعوا الصغار والكبار على ممارستها، لكنهم انخرطوا فى أنواع من الرياضات فى غاية الوحشية والخطورة مثل مصراعة الثيران، وتسلق الجبال ، والملاكمة والمصارعة الحرة. وهذه الألوان من الرياضة لا تفيد الجسم بل تضره ، وتعرضه لأخطار شديدة قد تؤدى للوفاة أو الشلل. ولو كان هؤلاء يؤمنون بالله لعلموا أن جسد الإنسان ليس ملكا له ، ولكنه منحة من الله ، والله وحده صاحب الحق فى استردادها متى شاء ، وأن الإنسان لا يملك أن يتخذ قرارا بإيذاء نفسه أو قتلها ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَن تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومَن تحسَّى سمّاً فقتل نفسه فسمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومَن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)[40]

ومن محاسن الغربيين تقديرهم للحيوانات ورأفتهم بها ، وهذا سلوك قويم لا غبار عليه. ولكن لأن هؤلاء يعتمدون على عقولهم القاصرة وبصيرتهم المحدودة فلذلك وجدنا كثيرا منهم يبالغون فى احترام الحيوان إلى حد تحريم ذبحه وتناول طعامه ، وهؤلاء هم النباتيون. ولو كان هؤلاء يؤمنون بالله لنظروا بعين العطف إلى عشرات الآلاف من البشر الذين يموتون كل عام بسبب المجاعات ونقص الغذاء ، والذين يمكن أن تنقذ أرواحهم الثروة الحيوانية التى لا يمكن اعتبارها أغلى من حياة الإنسان. ومن العار أن يُظهر الغربيون المتحضرون قمة الرأفة بحيوانات توشك أن تنقرض، بينما تسلط حكوماتهم طائراتها وأسلحتها الفتاكة لتقتل وتحرق وتدمر وتشرد ملايين البشر حول العالم ،

---

[40]) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخارى.

لا لشىء إلا لشهوة السلطة وإرادة القوة. ومن الحماقة أن تربى المرأة كلبا فى بيتها ، فتطعمه وتسقيه وتنظفه وتعالجه وتنام معه وتصطحبه أينما ذهب ، لكنها ترفض أن تحمل وتنجب ابنا حتى لا يعطلها عن مسيرة عملها.

والإنسان الغربى قاده عقله الطيب إلى أن الرأفة صفة حميدة ، ولكن هذا العقل المتحرر من قيود الدين ارتأى وجوب الرأفة بالمجرم ، ولهذا ألغيت عقوبة الإعدام فى كثير من الدول الحديثة ، وعُدت من قبيل الوحشية المنافية للإنسانية. ولو أنصت هؤلاء لصوت العقل الإلهى لما أخذتهم بالمجرم رأفة ، ولأدركوا أن عقاب مجرم واحد يقى عشرات الناس من شره ، وأن الأولى من البكاء على صرخات المجرم أن ننصت لتأوهات الضحية ، وفى هذا المعنى قال تعالى عن فلسفة عقوبة الإعدام: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة: 179]. ونفس المنطق السقيم جعل الرأى العام الغربى ينفر بشكل كبير من بقية حدود الإسلام مثل جلد الزانى وشارب الخمر وقطع يد السارق. إنهم يعتبرون الحدود وحشية لا تتفق والقيم الإنسانية المعاصرة. لكن الإسلام واضح وقاطع فى هذه المسألة ، فلا مجال للرحمة مع مرتكب الكبيرة ، قال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور: 2]. وتحدث المولى عز وجل عن جريمة السرقة فأظهر نفس الشدة والعنف: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [المائدة: 38]. أما عن عقوبة الإفساد فى الأرض فهى أقسى ما ورد فى القرآن: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: 33]. إن العقل الإلهى المحيط الشامل يقدم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد، بينما العقل البشرى الضيق يرأف لحال المجرم ، ويهمل بقية أفراد المجتمع ، ولا مجال للمقارنة بين الحكمة الإلهية والسفه البشرى.

هذه الأمثلة وغيرها تظهر الدور الأخلاقى للدين باعتباره صانعا للمبادىء ومنشئا للقيم ، وليس مجرد حاث عليها. لقد تميز الإنسان على بقية الملخوقات الأرضية بالعقل والذكاء ، لكن عقل الإنسان قاصر ومحدود ، وإن فطن إلى جانب غاب عنه جانب آخر ، وحياة الناس وتفاعلاتهم أكثر تعقيدا من أن نحيط بها مهما بذلنا من جهود ، وما يزيد الأمور تعقيدا أن عالم النفس والروح

شديد الغموض ، ولا سبيل لسبر أغواره ، وعلى ذلك فمن الحكمة أن يتحلى الإنسان بقليل من التواضع ، وينصت لصوت مَن خلق الإنسان وصوره ونفخ فيه الروح ، ويعرف ما الذى يَصلح له وما الذى يضره.

إن علينا أن ندرك أن بعض العقل قد يضر ، لكن العقل الكامل لا يمكن أن يضر . وقد اعتمد الغربيون على العقل البشرى الناقص وهم يخوضون بحر الأخلاق اللجى ، فكانوا وبالا على البشرية.

وليس فى انصياع الإنسان للعقل الإلهى حَجْر على العقل البشرى ، ولا منع له من التفكير ، فالله تعالى لم يرسم للبشر منهجا كامل التفاصيل ، لكنه وضع خطوطا عريضة تسمح بحرية كبيرة للحركة داخلها. إذن العقل الإنسانى ماهر وقاصر ، حر ومقيد ، أما من يمجد العقل وينكر وجود أى قصور فيه فهو يرفع الإنسان لمقام الألوهية ، ومع الأسف هذا هو الواقع الحاصل الآن حيث صار العقل إلها يحكم العالم ، فجَرَّ على الحياة الويلات ، وملأها بالمنغصات.

خلاصة القول أن العالم بحاجة إلى الدين ، ليس فقط لكون الدين دافعا أساسيا يساهم فى نشر الفضيلة ، ولكن أيضا لأن الدين صانع للفضيلة ومنشىء للمبادىء ، وبدون الدين يسود الحياة رذائل يظنها الجهلاء خلقا قويما. إننا نقول للملحدين: بفرض أنكم أخيار ، فهذا لا يغنى عن الدين.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

10- سوء الأخلاق سبب للإلحاد

ها نحن أولاء قد أثبتنا أهمية الدين لازدهار الأخلاق ، والآن سيفاجأ القارىء بأننا نقلب القضية. تقول الفكرة التقليدية أن "المرء يفقد أخلاقه بعد أن يصبح ملحدا" ، لكن يمكننا أيضا أن نقول أن "المرء أصبح ملحدا لأنه كان من الأصل بلا خلق".

إن من كان بلا خلق فمن طبعه التكبر والغطرسة والتمرد وعصيان الأوامر ، أما ذو الخلق فهو متواضع ، ويعترف لأهل الفضل بفضلهم ، ويطيع من تجب عليه طاعتهم.

من كان ذا خلق سيجد أن من واجبه تقديم الشكر للإله الذى خلقه وأنعم عليه بنعم لا تحصى ، أما الإنسان الذى لا خُلق له فلن يجد حرجا فى نكران فضل الله لأن هذا الملحد قد ألِف من الأصل الجحود ونكران الجميل فى تعاملاته مع الناس.

الإنسان الفاضل شخص متواضع ، لا يرى لنفسه حجما أكبر من الواقع ، ولا يغض من أقدرا الآخرين ، ولا يشعر بالحقد على من هم أحسن منه ، أما من كان بلا خلق فهو يغار من كل كبير، ويحقد على كل ناجح ، ولا يطيق أن يسجد لله أو يدعوه ويتذلل إليه ، بل إن الملحد قد يكفر لمجرد أنه يغار من مكانة رجل الدين ، فهو يرى فى جلوسه فى المسجد –كواحد من عامة الناس يستمع إلى واعظ ينصحه ويأمره وينهاه– غضا من قدره.

ثم إن سوء أخلاق المرء تجعل قلبه ينجذب لذلك النوع من العقائد التى تفتح الباب على مصراعيه لإشباع الشهوات والملذات ، ولذلك فهو يذهب إلى الإلحاد ليس لأنه اقتنع به فكريا ، ولكن لأن الإلحاد يطلق العنان لرغباته. وهذا أهم سبب للإلحاد هذه الأيام ، فقد انجذب إلى الكفر اليوم تلك الطائفة من الشباب التى كانت تصنف من قبل على أنهم "مسلمون عصاة" ، فلما واتتهم الفرصة، وأصبحت الحكومات ووسائل الإعلام تشجع الإلحاد تخلوا عن لقب "عاصى" ، وسعدوا بلقب "ملحد".

وقد قلنا فى موضع آخر أن الكفر فى ذاته يدخل فى باب الظلم ، ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]. إن من يعرف أن الله تعالى هو الإله الحق ويكفر به فهو ظالم ومنحط ، وهو لا يختلف قط عن قاض أصدر حكما بإعدام برىء وتبرئة مجرم ، ومثله أيضا كمثل مدير يحابى موظفا فاشلا ، ويهين موظفا مجتهدا، والملحد لا يختلف أيضا عن طبيب تناقش مع طبيب أصغر منه حول علاج أحد المرضى فى

المستشفى ، فأصر الطبيب الكبير على رأيه رغم أنه أحس أن رأى زميله الأصغر هو الصواب، وذلك حتى لا يقال أنه جاهل ، فكانت النتيجة وفاة المريض بسبب القرار الخاطىء الذى نشأ من الاستكبار، ولم يشعر أحد من الزملاء ولا من أهل المريض بأن الطبيب الكبير قد أخطأ ، ولم يشعر الطبيب نفسه بأنه تسبب فى وفاة نفس بريئة ، لكن كم من الذنوب تقترفها النفوس وهى فى غيبوبة الدنيا ! وهكذا فقرار الكفر فى ذاته ينم عن سوء أساسى فى الخلق.

ورغم هذا لا ننكر أن فئة من الملحدين هذه الأيام كانوا فى الأصل متدينين ، بل كان منهم سلفيون متشددون فى تمسكهم بتعاليم دينهم. نعم هذا حق ، لكن من قال لك أن كل من يراه الناس متدينا هو حسن الخلق؟ من قال لك أن كل ذى لحية ذو الخلق؟ من أخبرك ان كل ذات نقاب امرأة فاضلة؟ أعرف فتاة رأت زميلتها فى الكلية خطبت بعد أسبوع من ارتدائها الخمار (الحجاب الطويل) فظنت أن الخمار يجلب الخطاب ، فارتدت هى الأخرى على الفور خمارا ، وبعد عدة أشهر لم يخطبها أحد فخلعت الخمار وعادت للتبرج. أعرف كذلك نساءا يرتدين نقابا على ملابس ضيقة ، ونساءا يرتدين نقابا ويكشفن فى نفس الوقت رقابهن أو بعض أرجلهن. ومن النساء من ترتدى النقاب ، لكنها تكلم الرجال بجرأة شديدة ، وتضحك أمامهم بصوت عال. ومثل هذه المرأة تكون فى الغالب قد ارتدت النقاب بضغط من أهلها ، وليس لاقتناعها به ، ولذلك حين تلوح أمامها أول فرصة للتحرر منه فإنها تقتنصها ، بل قد تتحول إلى عداء الدين الذى لم تكن يوما من أنصاره الحقيقيين. وقد عرفت فتاة منتقبة لم تتزوج ، فتحولت إلى الإلحاد ، ظنا منها أن النقاب هو الذى حرمها من الزواج. ولو كان عند هذه الفتاة شىء من صفة اسمها العدل لهاجمت النقاب باعتباره تشددا ، ولدعت فى نفس الوقت إلى ارتداء الحجاب الطويل بدلا منه حتى لا تُحرم المرأة من فرص الزواج[41] ، لكنها لحماقتها انتقلت من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، متجاوزة الوسط ، مع أن الوسطية لم تكن السبب فيما جرى لها. ونفس الأمر ينطبق على الرجال ، فكثير من الشباب انضموا للجماعات الإسلامية المختلفة أو صاروا متدينين وربوا لحاهم لمجرد الرغبة فى إبراز تفوقهم على عامة الناس. كثيرون يشعرون بالفخر لكونهم يطيلون الصلاة أكثر من عامة الناس ، أو يحفظون القرآن ويجيدون تلاوته بالتجويد والقراءات المختلفة ، أو يقرأون فى كتب الفقه والتراث التى لا يستطيع فهمها الكثيرون ، أو يجيدون الفتيا فى الأمور المختلفة ، أو يصعدون المنابر ويخاطبون الجماهير من أعلى ، أو يقلدون الشيخ الفلانى فى لكنته وحركاته وصرخاته. وأنا أعرف كثيرين على هذه الشاكلة. وهذا النوع من الناس اتجه إلى الدين ليس لأنه هو الحق ، ولكنه لأنه

---

41) لسنا هنا فى مجال المفاضلة بين النقاب والخمار. والذى لا شك فيه أن كلاهما مقبول فى الإسلام. وما لا يمكن قبوله هو غطاء الرأس القصير الذى يظهر الرقبة ، وكذلك الملابس الضيقة ، والملابس الشديدة الاناقة التى تلفت أنظار الرجال.

يحب الظهور والشهرة ، ومثل هؤلاء يسهل عليهم فى أى لحظة ترك الدين والانتقال إلى الإلحاد إن تبين لهم أن الدين لم يحقق لهم طموحاتهم ، لأنهم كانوا من الأصل بلا خلق حتى لو بدا للناس خلاف ذلك. على سبيل المثال لم يستطع أحدهم بعد تدينه أن ينافس قدامى السلفيين فى دراسة الدين ، فترك السلفية التى كان يظن أنها ستحقق له التفوق والتميز على الآخرين.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الرابع: احذر الإنسانية

رغم أن لى حظا من الثقافة إلا أننى ظللت لأكثر من عشرين عاما أجهل المدلول الخطير لمصطلح الإنسانية أو "مذهب الإنسانية" Humanism. كانت أول مرة أقابل فيها كلمة (الإنسانية) لما كان عمرى ثلاثة عشر عاما حين اشتركت فى مسابقة مدرسية لعمل بحث مستمد من كتاب عنوانه (الإسلام دين الإنسانية). وقتها فهمت أن كلمة (الإنسانية) ترادف الخير والرحمة ، إلا أننى بدأت أشعر بالريبة نحو هذا المصطلح لما وجدته يتداول على ألسنة شخصيات عالمية غير مؤمنة. ولما ظهر الإلحاد فى السنوات الأخيرة فى بلادنا ، أخذ الملحدون يرددون كلمة (الإنسانية) كثيرا ، فأصبحت على يقين أن "الإنسانية" هى الاسم الحركى الذى يخفى وراءه الإلحاد وجهه القبيح.

الإنسانية هى الكلمة البراقة التى يوقعون بها المؤمن فى فخ الإلحاد. إن كثيرا من المواقع والصفحات التى يديرها الملحدون ترفع شعار الإنسانية حتى تكسر الحاجز النفسى الذى يفصل المسلم عن الإلحاد ، فهم يعلمون أن المسلم حين يسمع كلمة (إلحاد) ينفر ويخاف ويبتعد ، أما كلمة (الإنسانية) فمن ذا الذى يعترض عليها؟ ولكن شيئا فشيئا يتشبع المسكين بأفكار الإلحاد ، ليجد نفسه بعد قليل قد ابتعد عن دينه إلى غير رجعة. إننا نحذر المسلمين من كلمة (الإنسانية) ، ونؤكد أن كل من يدعو بشكل منهجى متعمد إلى مذهب اسمه الإنسانية فهو ملحد.

ولما أصبحت على يقين من اعتماد الملحدين بشكل كبير على مصطلح الإنسانية بدأت أشعر بغيظ شديد كلما سمعت هذا المصطلح المخادع ، ولكن وجدت أن من الواجب علىَّ أن أضع يدى على سبب رفضى لكلمة (الإنسانية) التى تبدو فى ظاهرها طيبة مثل كلمات مثل الخير والعدل والحق.

فى البداية لم ألجأ إلى الكتب للقراءة عن مذهب الإنسانية لأننى لم أكن أسمع عن مذهب اسمه الإنسانية ضمن المذاهب الفلسفية الكبرى. كنت أسمع عن الفلسفة النقدية والعقلانية والمادية والمثالية والماركسية والتجريبية والبراجماتية والوجودية والوضعية والتحليلية والبنيوية والتفكيكية ، أما الإنسانية فلم تكن – حسب معرفتى المتواضعة بالفلسفة– من بين المذاهب الكبرى.

وفى غيبة المعلومات بدأت أفكر من الصفر. كان أحد أسباب غيظى من كلمة (الإنسانية) أنها تسمية خاطئة ، فالكلمة تستعمل على أنها كلمة جميلة مثلها مثل الخير والحق والجمال ، مع أنها

مشتقة من كلمة (الإنسان) ، والإنسان ليس بهذا الحسن والجمال. لقد كنت أصرخ فى وجه كل من يردد مصطلح الإنسانية: " **هذا المصطلح لا يشرف أحدا**". إن الإنسانية تعنى الانتماء للإنسان، لكن ألم يكن هتلر إنسانا؟ ألم يكن موسولينى إنسانا؟ ألم يكن لينين وستالين وماوتسى تونج وهولاكو ونيرون من الناس؟ نعم كانوا كذلك، وأنا لا يشرفنى الانتماء إلى هؤلاء.

إن الإنسان مخلوق يمتزج فيه الخير والشر ، وجانب الشر فيه ليس قليلا ، بل هو الغالب ، وإن أردت دليلا فَوَلِّ وجهك شطر أى بلد من بلاد العالم ، أو تقلب بين القنوات الفضائية ، لتجد القتل والحرب والسرقة والرشوة والفساد والتلوث والغش والغيبة والإهانة. انظر إلى قتلى الحروب: إن دولة واحدة مثل العراق قتل فيها ملايين من المدنيين بسبب الحصار الأمريكى الطويل الذى أعقبه غزو، ثم فتنة طائفية مدبرة ممنهجة. وسوريا قتل فيها ملايين ، وجرح ملايين ، وهُجر ملايين لسبب بسيط هو أن رئيس الدولة يريد أن يبقى مستمتعا بالجلوس فى قصر الرئاسة. واليمن عادت إلى العصر الحجرى ، وتحولت إلى واحدة من أفقر دول العالم بسبب جنون الشيعة الذين يسعون إلى السيطرة على العالم الإسلامى. وانظر كذلك إلى ليبيا وفلسطين ولبنان ومصر وميانمار وأفغانستان، وتذكر ما جرى فى البوسنة والهرسك وكوسوفا ورواندا وبورندى والصومال. تذكروا ما فعله التتار فى بغداد حين قتلوا مليون مدنى. تذكروا ما فعله تيتوس الرومانى فى فلسطين حين تسبب فى مقتل مليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً من اليهود ، واسترق 97 ألفا منهم[42]. والقائمة أطول من أن يسعها الإحصاء.

أهذه هى الإنسانية التى تريدوننا أن نجعلها دينا؟ أنا لا يشرفنى الانتماء إلى هذا الجنس البشرى سفاك الدماء. ولو كان لى أن أختار لاخترت الانتماء إلى جنس الملائكة الذين هم خير خالص ، و"الملائكية" أفضل حتما من "الإنسانية". إن مصطلح الإنسانية مصطلح مضلل ، فهم يستخدمونه كمرادف للخير ، مع أنه فى الحقيقة ليس كذلك.

وإن قيل أن **مصطلح الإنسانية يشير إلى تفوق الإنسان على الحيوان فى الجانب الأخلاقى** فإن هذا أيضا خطأ ، فكثير من الحيوانات أليف وديع رقيق مثل العصافير والفراشات والأرانب والحمام والدجاج وغيرها من الحيوانات التى لا تضر أحدا. كما أنك إن تأملت فى حياة بعض الحيوانات

[42]) **قصة الحضارة** (11/ 188). تأليف ويل ديورانت.

لوجدت أن العلاقة بين أفرادها يسودها الوئام والسلام والتناغم بدرجة أفضل مما نرى فى عالم البشر ، فالتعاون بين أفراد النمل وأفراد النحل والطيور المهاجرة قل أن تجد له مثيلا فى عالم البشر. وفى القرى كنا نرى قطعان الغنم وقد وقفت على أفرادها طيور بيضاء دون أن تظهر الخراف أى امتعاض أو نفور. ثم إنه إذا كان هناك حيوانات مفترسة ، فمن البشر من هم أشد افتراسا من الوحوش ، بل إن امتلاك الإنسان للعقل جعله أكثر خطورة من الأسد والنمر والفهد والثعبان ، فقد مكنه العقل من مضاعفة نصيبه من الشر ، فتراه قد اخترع آلة للشر لا يمتلك مثلها أكثر الحيوانات فتكا ، ألا وهى القنبلة النووية التى يمكنها أن تدمر مئات الآلاف فى لحظة واحدة. إذن من السطحية اعتبار الإنسانية مرادافا للخير والحيوانية مرادفا للشر. هذا هراء.

وأثناء تعرضى لموضوع الإنسانية بدأت أشعر أن من غير المقبول أن أحلل مدلول مذهب من المذاهب من مجرد طريقة استخدام العامة له دون الرجوع إلى منظريه الجادين. وهنا بدأت أبحث عن الكتب التى تتناول هذا الموضوع ، فوقع فى يدى كتاب للفيلسوف كورليس لامونت ، وقد طُبع هذا الكتاب سبع مرات حتى عام 1997 فقط. ومع قراءة الصفحات الأولى من الكتاب أدركت أنه قد صدق حدسى ، وأن **الإنسانية هى والإلحاد شىء واحد** ، وأن مذهب الإنسانية ليس أكثر من صياغة جذابة لمذهب قبيح. وسنقدم للقارىء الآن الخطوط العريضة لمذهب الإنسانية كما صاغها هذا المؤلف فى عشر نقاط[43] دون تغيير فى نص عباراته. وهذه النقاط العشر تجسد – كما يقول المؤلف– مذهب الإنسانية فى شكله المعاصر الأكثر قبولا، وسيدرك القارىء على الفور أن **الإلحاد يدخل فى صلب مذهب الإنسانية:**

أولا: يؤمن مذهب الإنسانية بميتافيزيقا طبيعية أو بموقف تجاه الكون يعتبر **كل أشكال ما فوق الطبيعى خرافة** ، وينظر إلى **الطبيعة على أنها مجموع الوجود** ، وعلى أنها نظام دائم التغير من المادة والطاقة ، يوجد بشكل مستقل عن أى عقل أو وعى.

تعليقنا: لاحظ كيف ينكر مذهب الإنسانية بصراحة وجود كل الغيبيات بما فيها الله ، وذلك من خلال عبارة (كل أشكال ما فوق الطبيعى خرافة). ولاحظ أيضا قول المؤلف أن الطبيعة

43) **The philosophy of humanism**. By Corliss Lamont. Chapter1, page 13.

هى (مجموع الوجود) ، وهذا يعنى أن الكون المادى هو كل شىء فى الوجود ، وهذا يمثل إنكارا لوجود الله والملائكة والجنة والنار ، وغيرها من الموجودات غير المادية.

ثانيا: يؤمن مذهب الإنسانية – مستقيا بشكل خاص من قوانين العلم وحقائقه – أننا **نحن البشر نتاج تطورى للطبيعة** التى نحن جزء منها ، وأن **العقل يرتبط بشكل لا ينفصم عن عمل المخ ،** وأننا –**بوصفنا وحدة لا يمكن فصلها للجسد والشخصية– لا يمكن أن يكون لدينا بقاء واع بعد الموت.**

تعليقنا: لاحظ عبارة (نحن البشر نتاج تطورى للطبيعة) الذى يعنى أن الإنسان ليس من خلق الله ، ولكنه خلق بفضل عمليات طبيعية محضة من خلال التطور من سلف حيوانى سابق كما تؤكد نظرية داروين. لاحظ كذلك أن مذهب الإنسانية ينكر وجود الروح ، وهذا ما نجده فى عبارة (العقل يرتبط بشكل لا ينفصم عن عمل المخ) ، فالعقل Mind مصطلح يشير إلى الظواهر النفسية والروحية للإنسان ، أما المخ Brain فهو مصطلح يعنى ذلك العضو المادى الموجود داخل الجمجمة والذى يتكون من أعصاب. والإسلام يؤكد أن كل إنسان مكون من روح وجسد أو عقل ومخ ، وأن الروح تبقى بعد الموت لتحاسَب يوم القيامة ، أما مذهب الإنسانية فهو يرى أن العقل والمخ شىء واحد ، وشخصية الإنسان وجسده شىء واحد ، وهذا ما نجده فى عبارة المؤلف: (بوصفنا وحدة لا يمكن فصلها للجسد والشخصية). والاتحاد الكامل للجسد مع الشخصية (الشخصية تعنى الظواهر النفسية كالتفكير والوعى والذاكرة والحب والخوف) معناه أنه لا يوجد لدينا إلا جسد بلا روح ، وأن الإنسان سينتهى تماما بالموت ، ولن يبقى منه شىء ليحاسب أمام الله. وهذه النتيجة يختتم بها المؤلف كلامه بشكل صريح حيث يقول: (لا يمكن أن يكون لدينا بقاء واع بعد الموت)

ثالثا: يؤمن مذهب الإنسانية – **بما لديه من إيمان أقصى بالجنس البشرى**– أن **البشر يمتلكون قدرة أو إمكانية حل مشاكلهم الخاصة** من خلال الاعتماد بشكل أساسى على العقل والمنهج العلمى الذى يتم تطبيقه بشجاعة وخيال.

تعليقنا: لاحظ هنا كيف يقول المؤلف أن الإيمان الأقصى Ultimate faith لمذهب الإنسانية هو بالجنس البشرى ، وهذا يعنى بوضوح أنه لا يؤمن بشىء بعد البشر ، أى

أنه ينكر وجود الله ، ويُحل الجنس البشرى محل الله. لاحظ أيضا كيف يؤكد المؤلف أن الإنسان هو من يحل مشاكله بنفسه من خلال الأسباب المادية (العقل والعلم) ، وهذا يعنى بوضوح أنه لا دور لله فى حياة الناس ، وأن الله لا يوفق أحدا ، ولا يعين أحدا ، ولا يشفى مريضا ، ولا ينصر وظلوما ، ولا يخزى ظالما.

رابعا: يعتقد مذهب الإنسانية – **معارضا لكل نظريات الحتمية والجبرية والقضاء والقدر** الشاملة– أن البشر رغم كونهم مشروطين بالماضى إلا أنهم يمتلكون حرية حقيقية للاختيار والفعل المبدع، وأنهم – داخل حدود موضوعية معينة– **مُشَكلو مصيرهم الخاص.**

تعليقنا: ينكر مذهب الإنسانية هنا أى تدخل لله فى الكون وفى حياة الناس ، ويؤكد أن مستقبل الإنسان يحدده أمران هما ماضيه وإرادته الحرة ، وهذا العاملان هما اللذان يشكلان بصورة كاملة مصير الإنسان ، ولا مكان لله فى هذا المشهد.

خامسا: يؤمن مذهب الإنسانية بخُلُق يؤسس كل القيم الإنسانية فى الخبرات والعلاقات **الدنيوية** ، ويحمل – بوصفه هدفه الأسمى– السعادة والحرية والتقدم (الاقتصادى والثقافى والخلقى) **فى هذا العالم** لكل البشرية بصرف النظر عن الشعب والعرق والدين.

تعليقنا: هنا نجد أن مذهب الإنسانية يرى أن كل القيم والأخلاق يجب أن تنبع من الخبرات والعلاقات الدنيوية this–earthly experiences and relationships، وفى هذا إنكار واضح للفضائل الدينية التقليدية من قبيل تقوى الله والخضوع له وطاعته وحبه وذكره وشكره. لاحظ أيضا كيف يرى مذهب الإنسانية أن هدفه الأسمى هو تحقيق السعادة والحرية والتقدم فى الدنيا فقط ، ولا مكان للسعادة فى الآخرة فى مشروع مذهب الإنسانية.

سادسا: يؤمن مذهب الإنسانية بأن الفرد يحصل على الحياة الجيدة من خلال الربط المتناغم للإشباع الشخصى والتطوير المستمر للذات مع العمل الجاد وغير ذلك من الأنشطة التى تسهم فى رفاهية المجتمع.

سابعا: يؤمن المذهب الإنسانى بأقصى تطوير ممكن للفن والوعى بالجمال ، بما فى ذلك تقدير جمال الطبيعة وروعتها بحيث تصبح الخبرة الجمالية واقع منتشر فى حياة كل الناس.

ثامنا: يؤمن مذهب الإنسانية ببرنامج اجتماعى بعيد المدى يدعم التأسيس العالمى للديمقراطية والسلام ومستوى معيشة مرتفع على أساس نظام اقتصادى مزدهر على المستوى القومى والدولى.

تاسعا: يؤمن مذهب الإنسانية بالتطبيق الاجتماعى الكامل للعقل والمنهج العلمى ، وبالتالى يؤمن بالإجراءات الديمقراطية والحكومة البرلمانية ، مع حرية كاملة للتعبير والحريات المدنية فى جميع مناحى الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية.

عاشرا: يؤمن مذهب الإنسانية – توافقا مع المنهج العلمى– بالشك الدائم فى الافتراضات والقناعات الأساسية ، بما فى ذلك افتراضاته وقناعاته الخاصة. إن المذهب الإنسانى ليس عقيدة جديدة بل فلسفة متطورة منفتحة دائما على الاختبار التجريبى ، والحقائق المكتشفة حديثا ، والتفكير الأكثر صرامة.

وإذا تأملنا هذه النقاط العشر لوجدنا أن **أول أربع نقاط منها تعبر بشكل صريح عن الإلحاد**. وفى ترتيب مكونات مذهب الإنسانية بهذا الشكل مفاجأة أكيدة للمسلمين السذج ، فقد أخر المؤلف الكلام عن الحرية والديمقراطية والجمال والأخلاق إلى ذيل القائمة، وصدَّر تعريفه لمذهب الإنسانية بإنكار واضح قاطع لوجود الله ووجود أى تأثير له على مجريات الأحداث فى الكون. لقد كان الرجل صريحا فأكد للقارىء أن **أهم عناصر مذهب الإنسانية هو الإلحاد**.

والشاب الساذج الذى لا يصدق أن مذهب الإنسانية بهذا القبح فعليه أن يكمل ما قاله المؤلف تعقيبا على هذه النقاط العشر حيث **لخص مذهب الإنسانية بدرجة أشد تركيزا ، وحصره تقريبا فى إنكار الله والآخرة:**

[أعتقد أن هذه النقاط العشر تجسد مذهب الإنسانية فى شكله المعاصر الأكثر قبولا. وهذه الفلسفة يمكن وصفها بشكل أكثر صراحة بأنها "إنسانية علمية" أو "إنسانية علمانية" أو "إنسانية طبيعية" أو "إنسانية ديمقراطية" حسب التأكيد الذى يبغى المرء أن يعطيه. أيا ما كان اسمه فإن المذهب الإنسانى هو وجهة النظر القائلة بأن **الناس ليس لديهم إلا حياة واحدة يحيونها** ، ويجب أن يصنعوا أغلبها فيما يتعلق بالعمل المبدع والسعادة ؛ وأن السعادة البشرية هى مبررها الخاص ، **ولا تحتاج لأى تصريح أو دعم من مصادر فوق الطبيعة** ؛ وأنه على أى حال فإن **ما هو فوق الطبيعة – الذى يتم تصوره فى العادة على هيئة آلهة سماوية أو جنات خالدة– لا يوجد** ؛ وأن

البشر – مستخدمين ذكاءهم الخاص ومتعاونين بحرية مع بعضهم البعض– قادرين على بناء قلعة دائمة للسلام والجمال على هذه الأرض].

ويكمل المؤلف بعد قليل متكلما بصراحة شديدة عن **إنكار مذهب الإنسانية للجنة ولأى سعادة خارج نطاق هذا العالم:**

[فى حقبة من التأزم والتفكك المتواصل كما فى القرن العشرين نواجه إغراء الهروب إلى مجال تعويضى ما من **العزاء الزائف أو الفائق للطبيعة**. إن مذهب الإنسانية يقف دون مواربة ضد هذا الاتجاه الذى يعبر عن الإنهزامية ويشجعها. إن الفلسفة الإنسانية تجاهد باستمرار لتذكيرنا أن **وطننا الوحيد فى هذا العالم الدنيوى. ولا جدوى من بحثنا فى مكان آخر عن السعادة والإنجاز لأنه لا يوج مكان آخر نذهب إليه.** إن علينا نحن البشر أن نجد مصيرنا وأرضنا الموعودة هنا والآن ، أولا نجدهما على الإطلاق. **ومذهب الإنسانية يهتم بحياة مستقبلية ، ليس بمعنى جنة ما خرافية فى السماوات** ، ولكن كاستمتاع متواصل بالوجود الدنيوى من قِبل جيل بعد جيل عبر الزمان الخالد].

وإذا ذهبنا إلى الجمعية الإنسانية الأمريكية American Humanist Association لوجدناها ترفع شعارا إلحاديا فجاً هو: " خَير بلا إله" GOOD WITHOUT A GOD ، أى أن الإنسان يمكن أن يكون حسن السلوك دون إيمان بالله. وتتبنى هذه الجمعية التعريف التالى لمذهب الإنسانية:

(مذهب الإنسانية هو فلسفة تقدمية للحياة تؤكد – **بدون الاعتقاد فى الألوهية أو أى اعتقادات أخرى فائقة للطبيعة**– قدرتنا ومسئوليتنا عن أن نحيا حياة أخلاقية من تحقيق الذات ، تتطلع إلى الخير الأكبر)[44].

وتُعرف هذه الجمعية نفسها ومجهوداتها قائلة[45]:

(لقد وقفت الجمعية الإنسانية الأمريكية كصوت الإنسانية فى الولايات المتحدة على مدى 75 عاما. نحن نجاهد لتحقيق مجتمع تقدمى حيث "**كون المرء خيّرا بدون إله**" طريقة مقبولة ومحترمة للحياة. ونحن نحقق ذلك من خلال دفاعنا عن الحريات المدنية **والحكم العلمانى** بواسطة **مد أيدينا إلى العدد المتزايد من الناس من غير ذوى الإيمان الدينى التقليدى** ، ومن خلال التنقيح والتطوير

[44]) **Definition of Humanism**. https://americanhumanist.org/what-is-humanism/definition-of-humanism/
45) About the American Humanist Association. https://americanhumanist.org/about/

المستمرين للرؤية الكونية الإنسانية. إن **مذهب الإنسانية يتضمن مجموعة من الرؤى غير الإلهية (الإلحاد واللاأدرية والعقلانية والمذهب الطبيعى والعلمانية وغيرها)** ، مع إضافة العنصر المهم للرؤية الكونية الشاملة ومجموعة القيم الأخلاقية التى تقوم عليها فلسفة التنوير ، المدركة للمعرفة العلمية، وتحركها رغبة فى تلبية حاجات الناس **هنا والآن.** نحن نعتبر الإنسانيين **وغير المؤمنين بإله هم لب حركتنا** ، لكننا دائما راغبين فى العمل مع الأصدقاء والحلفاء فى القضايا ذات الاهتمام المشترك. والمواقف التى نتخذها والأعمال التى نقوم بها ليست ببساطة من أجل منفعتنا الخاصة، لكنها من أجل تقدم كل المجتمع والعالم الذى نحيا فيه).

ويقول هورسفيلد: [ما يمثله مذهب الإنسانية هو موقف فلسفى وأخلاقى يؤكد قيمة ووكالة البشر – بشكل فردى وجماعى– وبشكل عام **يفضل التفكير النقدى والدليل (العقلانية والتجريبية) على قبول العقيدة أو الخرافة.** ومعنى مصطلح الإنسانية تأرجح حسب الحركات الفكرية المتتابعة التى ارتبطت به. لقد صاغ المصطلح عالم اللاهوت فريدريش نيهامر Friedrich Niethammer فى بداية القرن التاسع عشر. وبشكل عام فإن المذهب الإنسانى يشير رغم ذلك إلى منظور يؤكد تصورا ما للحرية والتقدم الإنسانى. وفى العصر الحديث فإن الحركات الإنسانية تصطف بشكل نموذجى **مع العلمانية** ، واليوم يشير المذهب الإنسانى بشكل نموذجى إلى **موقف غير إلهى من الحياة** يتمركز حول وكالة الإنسان **ويتطلع إلى العلم وليس إلى الوحى من مصدر فائق للطبيعة كى يفهم الكون.**][46]

وبالنسبة لى فأنا أفضل فى كثير من الأحيان الرجوع إلى الموسوعات والمعاجم لأن طابعها الأكاديمى أقرب نسبيا إلى الموضوعية والحياد ، وأبعد عن الانفعالات والأهواء. وإذا ذهبنا إلى معجم كمبريدج الفلسفى[47] لوجدناه يذكر أن مذهب الإنسانية ليس عقيدة خاصة محددة، ولكنه يمثل رؤية عامة للعالم ، ويمكن تعريفه على أنه (مجموعة من الافتراضات التى تُعَين للبشر وضعا خاصا فى مخطط الأشياء). ويواصل معجم كامبريدج الكلام عن مذهب الإنسانية فيؤكد أنه **يتناقض مع فكرة الألوهية:**

---

[46]) **Horsfield, John**. (2017). Humanism, humanity and faith؟

[47]) **The Cambridge dictionary of philosophy**. Page 396-397.

[إنه يأتى إلى البؤرة حين يقارَن بموقفين متنافسين. فمن ناحية يمكن إظهار **تناقضه مع التأكيد على المجال الفائق للطبيعة والمتعالى الذى يعتبر البشرية معتمدة بشكل متطرف على النظام الإلهى**. ومن ناحية أخرى هو يقاوم الاتجاه للتعامل مع البشرية بشكل علمى باعتبارها جزءا من النظام الطبيعى ، على قدم المساواة مع الكائنات الحية الأخرى. إن المذهب الإنسانى – شاغلا الموضع الثالث– يميز فى البشر إمكانات وقدرات فريدة يمكن تنميتها والاحتفاء بها من أجل مصلحتهم].

وفى موضع آخر يشير معجم كمبريدج إلى **استغناء أتباع مذهب الإنسانية عن الدين** فيقول: [....معتقدين أن **بالإمكان العيش بثقة بدون يقين ميتافيزيقى أو دينى** وأن كل الآراء قابلة للمراجعة والتصحيح فإنهم يرون الازدهار البشرى معتمدا على التواصل الصريح والنقاش والنقد والتوافق الذى لا إكراه فيه].

وأتباع مذهب الإنسانية يتفرقون فى اتجاهات شتى ، لكن **معجم كمبريدج يلخص أوجه الاتفاق بينهم ، ويذكر من بينها العلمانية أى تنحية الدين عن الحياة:**

[إن طريقة التفكير الإنسانية عمقت ووسعت من تقاليدها بمجىء مفكرى القرن الثامن عشر. وقد شمل هؤلاء الفلاسفة الفرنسيين أمثال فولتير وديديروت وروسو ، وشخصيات أوربية وأمريكية أخرى مثل بنثام وهيوم وليسنج وكانط وفرانكلين وجيفرسون. وبرغم أن هؤلاء المفكرين لم يكونوا يتفقون دوما مع بعضهم البعض إلا أنهم كونوا عائلة متحدة تأييدا لقيم مثل الحرية والمساواة والتسامح **والعلمانية** والعالمية. وبرغم أنهم دافعوا عن الاستخدام غير المقيد للعقل إلا أنهم أرادوه أيضا أن يُطَبق فى الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مشجعين الإبداع الفردى ، وممجدين الحياة النشطة فوق الحياة التأملية. لقد آمنوا بإمكانية كمال الطبيعة البشرية ، وبالحس الأخلاقى والمسئولية ، وبإمكانية التقدم].

وفى كتاب "رفيق أوكسفورد للفلسفة"[48] نجد أن مذهب الإنسانية بدأ فى العصر الحديث كابتعاد جزئى عن الله ، **وانتهى بالانفصال الكامل عن الله والتبنى التام للإلحاد:**

[48]) **The Oxford Companion to Philosophy**. Page 375-376.

(يقترن مذهب الإنسانية أيضا بعصر النهضة حين كان يدل على **حركة مبتعدة عن الله باتجاه الإنسان كمركز للاهتمام**. وقد ظل الله كخالق وسلطة عليا – كان إنسانيو عصر النهضة بعيدين عن الإلحاد– **لكن نُظر إلى نشاطه على أنه أقل مباشرة وأقرب إلى تحكم عام ، وليس تدخلا يوميا** ، وهذا مكن من قيام نظرة علمية رأت الكون على أنه محكوم بقوانين عامة رغم أنها وضعت من قِبل الله. وحين نشب الصراع بين العلم والدين فى القرن التاسع عشر – أساسا بسبب تناقض الداروينية مع قراءة أصولية للكتاب المقدس– **اكتسب مذهب الإنسانية ارتباطه الحديث مع الإلحاد واللاأدرية**. وبعدئذ أصبحت الإنسانية – غالبا تسمع الإنسانية العلمية– مقترنة بالعقلانية ليس بمعانيها الفلسفية الأساسية ولكن **فى مناشدتها للعقل تناقضا مع الوحى** أو السلطة الدينية كوسيلة لاكتشاف العالم الطبيعى والطبيعة ومصير الإنسان ، وأيضا باعتبارها **مانحة أساسا للأخلاق**. ويستخدم مصطلح الإنسانية الأخلاقية أحيانا فى السياق الأخير.)

ومع ذلك أصر بعض اتباع الأديان على الانخراط فى الحركة الإنسانية العالمية التى أصبحت فى نظر الكثيرين هى الخير المطلق. لقد تساءل هؤلاء: لماذا يُستبعد الدين من حركة الإنسانية مع أن الدين هو مصدر الخير والسلام والرحمة؟ وقد يرى البعض فى ذلك حسن نية من جانب المتديين، لكن الحقيقة أن أولئك المتدينين الذين انضموا إلى مذهب الإنسانية تخلوا عن لب الدين ، ولم يبق لهم منه إلا الاسم. وفى أحد الأبحاث[49] أقر المؤلف بالطابع الإلحادى لمذهب الإنسانية ، لكنه حاول أن يثور على استبعاد المسيحية من فكرة الإنسانية. وقد ورد فى هذا البحث ما يلى بخصوص مصطلح الإنسانية:

(على حين أنه فى البداية تضمن المصطلح أيضا القيم المسيحية إلا أنه فى أعقاب اتجاهات معينة لعصر التنوير **صارت الإشارات إلى الحقيقة والفضيلة الدينية مستبعدة من مفهومه. وذهب البعض حتى إلى الجدال بأن الخضوع لله يقتل مذهب الإنسانية**. ولذلك فنحن نشهد ظهور الإنسانية الماركسية والإنسانية الوجودية لجان بول سارتر وآخرين. وموقف هايدجر غامض نوعا ما. أخيرا هناك الاتحاد الدولى والإنسانى الذى **ينظر إلى مذهب الإنسانية على أنه تحرير من الأيدولوجيات والعقيدة الدينية** ، ويصر على مهمة الإنسان فى أن يمنح بنفسه معنى لحياته. والشىء المشترك بين هذه الأنواع المختلفة من مذهب الإنسانية هو القناعة بأن **الإنسان قيمة**

---

[49]) **Humanism. Its Roots and Development. What humanism consists of?** By .L.J. Elders.

أساسية ومركز المرجعية لكل ما يفعله المرء ويرغب فيه. **واستبعاد أى بعد دينى** يثير السؤال: ما الذى يُكون الإنسانية؟...... **يعتقد البعض أن الإنسانية الحقيقية غير ممكنة إن لم تكن معادية للدين. وبهذه الطريقة فإن وظيفة الإنسانية ستكون أن تحرر الإنسان من العقائد الدينية.** والأنواع المذكورة آنفا من الإنسانية تشترك فى أنها تجعل الإنسان القيمة العليا ومركز المرجع ، لكن هناك اختلافات معتبرة بينهم. وهذا يثير مسألة مكونات الإنسانية الأصلية. يجب علينا أن **نختبر ما إذا كان هذا الرفض للدين يتماشى مع الإنسانية الحقة......** فى الحقيقة إن أحد أهم إسهامات المسيحية للإنسانية يوجد على مستوى الحياة الخلقية ، أى الاعتقاد بكون الإنسان مدعو إلى الدخول فى تواصل مع الله ، أى إلى مصير يتجاوز حدود العالم الطبيعى ؛ والإصرار على القيم المطلقة مثل الحق وحقوق الإنسان وعصمة الحياة وضبط العواطف والأهواء بالعقل والواجب تجاه الخير العام واللطف والتعاطف مع من يعانون والإحسان النشط إلى المحرومين. الحقيقة أن تراث الإيمان المسيحى قد أصبح مكونا أساسيا للإنسانية الغربية.)

وإذا ذهبنا إلى موقف الملحدين مما يسمى بالإنسانية الدينية لفوجئنا أنهم يقبلون بها ويتعاونون معها ويشجعونها ، وحين نقرأ كلامهم عنها نعرف السبب ، فالإنسانية الدينية هى والإلحاد شىء واحد ، أو هى إلحاد مُقَنع ، والفرق بين الاثنين هو اختلاف فى الاسم مع الاتفاق فى المسمى، تماما مثل الفرق بين (هزيمة 1976) و (نكسة 1976) ، وقولهم عن ممثلة أنها (ارتدت فستانا جريئا) بدلا من قولهم (ارتدت فستانا فاضحا). يقول فريد إدوارد[50]:–

(إن حقيقة أن مذهب الإنسانية يمكنه أن يكون فى نفس الوقت دينيا وعلمانيا يمثل بلا شك مفارقة، بيد أنها ليست المفارقة الوحيدة من هذا النوع. مفارقة أخرى هى أن **كلا من الإنسانية الدينية والعلمانية تضع العقل فوق الإيمان ، عادة إلى حد تحاشى الإيمان تماما.** الإنقسام بين العقل والإيمان غالبا يتم التأكيد عليه فى المذهب الإنسانى حيث يقف الإنسانيون إلى جانب العقل. وبسبب هذا فإن الإنسانية الدينية يجب ألا ينظر إليها كبديل للإيمان ، ولكن كطريقة بديلة للتدين..... ولا تنتهى المفارقات هنا ؛ **إن الإنسانية الدينية بلا إله ، بلا إيمان بما فوق الطبيعة، بلا إيمان بالحياة بعد الموت ، بلا إيمان بمصدر أعلى للقيم الأخلاقية. وبعض أتباعها ذهب إلى حد اقتراح أنها دين بلا "إيمان" من أى نوع** ، حيث تعتمد المعرفة على الدليل الذى يعتبر

---

50) **What Is Humanism?** By Fred Edwords.

مفضلا. وإضافة إلى ذلك **فإن التصور الشائع "للمعرفة الدينية" كمعرفة تكتسب من خلال وسائل غير علمية ليس مقبولا لدى نظرية المعرفة الإنسانية الدينية.....** ومن السهل أن نلخص الأفكار الأساسية المشتركة التى يعتنقها كل من الإنسانية الدينية والإنسانية العلمانية ، وهذه الأفكار كما يلى:

1- مذهب الإنسانية هو أحد تلك الفلسفات التى هى من أجل أولئك الناس الذين يفكرون من أجل أنفسهم. لا يوجد مجال فكرى يخشى المرء الإنسانى أن يتحداه ويستكشفه.

2- مذهب الإنسانية فلسفة تركز على **الوسائل البشرية لفهم الواقع.** ولا يزعم الإنسانيون أنهم يمتلكون أو أن من المتاح لهم **معرفة متعالية** مفترضة.

3- المذهب الإنسانى هو فلسفة للعقل والعلم سعيا وراء المعرفة. ولذا فحين يتعلق الأمر بمسألة أكثر الوسائل مشروعية لاكتساب معرفة العالم فإن **الإنسانيين يرفضون** الإيمان التعسفى **والسلطة والوحى والحالات المتغيرة للوعى.**

4- الإنسانية هى فلسفة خيال. يعترف الإنسانيون أن **المشاعر الحدسية والحس الباطنى والتكهن وومضات الإلهام والعاطفة والحالات المتغيرة للوعى وحتى التجربة الدينية رغم أنها ليست وسائل مشروعة لاكتساب المعرفة** إلا أنها تبقى مصادر مفيدة للأفكار التى تستطيع أن تقودنا إلى طرق جديدة للنظر إلى العالم. وهذه الأفكار بعد أن يتم تقييم فائدتها عقلا يمكن بعد ذلك تطبيقها غالبا كمقاربات بديلة لحل المشاكل.

5- الإنسانية **فلسفة لهنا والآن.** وينظر الإنسانيون إلى القيم البشرية على أن لها معنى فقط فى سياق الحياة البشرية ، **وليس فى الوعد بحياة مفترضة بعد الموت.**

6- الإنسانية فلسفة شفقة. إن الأخلاق الإنسانية تتعلق فقط بمواجهة الحاجات البشرية والإجابة على المشكلات البشرية لكل من الفرد والمجتمع ، ولا تلقى بالاً لإشباع رغبات كيانات إلهية مفترضة.

7- الإنسانية فلسفة واقعية. يعترف الإنسانيون بوجود مآزق أخلاقية وبالحاجة للمراعاة المتأنية للعواقب الفورية والمستقبلية فى صنع القرار الأخلاقى.

8- الإنسانية تتناغم مع علم اليوم. ويعترف الإنسانيون لذلك أننا نعيش فى عالم طبيعى ذى حجم هائل وعمر هائل ، وأننا **تطورنا على هذا الكوكب عبر فترة طويلة من الزمن** ، وأنه

لا يوجد دليل قاطع على وجود روح قابلة للانفصال ، وأن البشر لديهم حاجات فطرية معينة تشكل بطريقة فعالة الأساس لأى نظام أخلاقى موجه نحو الإنسان.

9- تتناغم الإنسانية مع الفكر الإجتماعى المستنير اليوم. يلتزم الإنسانيون بالحريات المدنية وحقوق الإنسان **والفصل بين الكنيسة والدولة** ومد الديمقراطية المشاركة ليس فقط فى الحكومة ولكن فى مكان العمل والتعليم ومد الوعى العالمى وتبادل المنتجات والأفكار دوليا ومقاربة مفتوحة لحل المشاكل الاجتماعية ، وهى مقاربة تسمح باختبار بدائل جديدة.

10- الإنسانية تتناغم مع التطورات التقنية الحديثة. والإنسانيون راغبون فى المشاركة فى الاكتشافات العلمية والتقنية الناشئة لكى تمارس نفوذها الخلقى على هذه الثورات وقت حدوثها خاصة فى مصلحة حماية البيئة.

11- الإنسانية بشكل مجمل هى **فلسفة لمن يحبون الحياة.** ويتحمل الإنسانيون مسئولية حياتهم الخاصة ، ويستمتعون بمغامرة كونهم جزءا من الاكتشافات الجديدة ، ناشدين المعرفة الجديدة ، وباحثين عن خيارات جديدة. **وبدلا من العثور على العزاء فى إجابات سبق صنعها للأسئلة العظيمة للحياة** فإن الإنسانيون يستمتعون بالنهاية المفتوحة للبحث وحرية الاكتشاف التى تحتمها.

****

وهكذا تجد أنه لا خلاف بين أحد حول وجود الإلحاد فى صلب مذهب الإنسانية ، ولكن طريقة العرض تختلف ، فبعض المؤلفين يتسم بالجرأة ، فيبرز طابع الإلحاد فى المذهب ، وبعضهم الآخر يُصَدر قيم الخير للمشهد بدرجة أكبر. ويعجبى جدا تعريف الجمعية الإنسانية الأمريكية السابق لأنه مباشر وصريح وواضح ، ويمكننى أن أختصره فى جملة واحد قائلا: (مذهب الإنسانية = إلحاد+خير) أو (مذهب الإنسانية= خير – إله) ، وهذا هو المدلول الكامل لشعارهم (خَيِّرٌ بلا إله) Good without God.

وهكذا خدع الملحدون فى بلادنا الشباب الساذج ، وأفهموهم أن (مذهب الإنسانية = خير فقط) ، تاركين هؤلاء المساكين ليكتشفوا عنصر الإلحاد بعد فوات الأوان. إنه نفس أسلوب مروج المخدرات الذى يوقع الأبرياء فى مستنقع الإدمان عن طريق تقديم حبوب تساعدهم على تقوية النشاط الذهنى. نعوذ بالله منهم.

ومن يصر على إحسان الظن بمذهب الإنسانية ويصدق أولئك الكتاب الذين يحاولون بدهاء إخفاء نزعته الإلحادية فعليه أن يلاحظ أن ما يُكتب عن هذا المذهب يخلو –فى أحسن الأحوال– من الإشارة إلى الله ، فهو يحث الناس على عمل الخير من أجل الإنسانية ، وليس من أجل إرضاء الله ، وهذا كاف لكى يرفضه المؤمن تماما لأن الله تعالى يثيب الإنسان على النية والقصد ، وأى خير لا يُقصد به وجه الله تعالى فلا يمكن أن يكون خيرا حقيقيا كما سبق أن أوضحنا.

ثم إن ما يزيد من بريق مصطلح الإنسانية فى أعين البسطاء أنه يحمل معنى الشمولية ، فالإنسانية تبدو للوهلة الأولى أكبر من أى شعب وأى دين محدود ، وهذا إغراء للمؤمن الذى يظن أنه حين يترك دينه فإنه سيخرج من دائرة ضيقة إلى دائرة أوسع وأكبر ، ولكن نسى هؤلاء أن المسلم ينتمى إلى دين الله ، والله تعالى أكبر وأعظم من الإنسانية ومن كل ما فى الوجود ، ولذلك فمن يترك الإسلام إلى الإنسانية فهو فى الحقيقة يتردى ولا يترقى ، ويخرج من السعة إلى الضيق.

كما أن من ينظر إلى فضائل الإنسانية وقيمها يجد أنها تشمل العدل والحرية والجمال والبحث العلمى والتفكير العقلانى ومساعدة الفقراء. لكن **ما الجديد فى هذه الفضائل؟ إنها نفس الفضائل التى يحث عليها الإسلام** ، فلماذا ننحى الدين عن مجاله الذى برع فيه؟ **وفضلا عن ذلك فإن فضائل الإنسانية ليست محددة المعالم ، فلا أحد يعرف على وجه الدقة ماذا تعنى؟** وإذا كان من الإنسانية أم نمنح المرأة كامل حريتها ، فهل من الإنسانية أن نعطيها الحق فى قتل جنين داخل أحشائها كى تستمع بحياتها مع صديقها؟ ترى أيهما ينتمى إلى الإنسانية: أنصار الإجهاض أم أعدائه مع العلم أن الجميع يرفع شعار الإنسانية؟ وإذا كان من الإنسانية أن نمنح الحرية الكاملة لكل الناس ، فهل من الإنسانية أن نبيح للناس تعاطى المخدرات؟ من يمثل الإنسانية بشكل حقيقى: مدمنو المخدرات أم أعدائها؟ ثم إن الإنسانية فى يوم من الأيام كانت تشمئز من الشذوذ الجنسى، أما اليوم فهى ترحب به ، فأي العصرين أصدق تعبيرا عن الإنسانية؟ وإذا رجعنا للمصادر السابقة التى تعرف مذهب الإنسانية لوجدنا أنها تعترف بأن هذا المذهب قابل للتغيير ومفتوح للتطوير طبقا لمعطيات التجربة والعقل والعلم ، وهذا وجه آخر من أوجه الخلل فى بينة هذا المذهب الذى يفتقر إلى الصلابة والتماسك. وقد وجه أحد الكتاب سهما إلى قلب مذهب الإنسانية فتساءل: ترى إن

أدت حرية البحث ببعض العقول إلى إثبات وجود الله استنادا إلى أسباب فلسفية وتاريخية ، فهل سيتخلى الإنسانيون وقتها عن مذهب الإنسانية؟ [51]

إذن لم يبق من فائدة لمذهب الإنسانية إلا أنه يعمل على توحيد كل البشر ومحو الخلافات بينهم؟

إن كان هذا هو مقصدهم ، فهو مقصد نبيل ، لكن الطريق الذى يسلكونه لتحقيق هذا الهدف طريق مضل. إنهم ينظرون حولهم ، فيجدون أن الدين سبب مهم للتفرق والتناحر بين الأمم ، فيكون الحل فى نظرهم أن يقضوا على الدين تماما ، فيصبح كل البشر فى كل أرجاء الأرض بلا دين ، فيزول أصل الخلاف بينهم. وهذا أسلوب يدعو للضحك. ولماذا لا يكون توحيد البشر من خلال جمعهم حول دين واحد هو الدين الحق؟ لماذا لا ندعو الناس من كل الأديان أن يفتحوا آذانهم وقلوبهم للحق أنى كان؟ لماذا لا ندعوهم لإزالة الأحقاد التى تعوق عن اتباع الحق؟ ولماذا تفترضون أن كثرة عدد الأديان معناه أنها جميعا على ضلال؟ لماذا لا نقول أن واحدا فقط منها هو الدين الحق؟ وهل كثرة عدد الفرق التى تتنافس على بطولة كأس العالم لكرة القدم معناه أنه لا يوجد أى فريق فى العالم يستحق الكأس أم معناه أن المنافسة يجب أن تنتهى بهزيمة الجميع أمام الفريق الأقوى؟ لماذا لا نقول بالمثل أن كل الأديان يجب أن تتراجع ، ويبقى الإسلام وحده؟

****

وبعد لقد أيقنت أن **مذهب الإنسانية يتلخص فى جملة واحدة** هى: **(**العمل من أجل سعادة الإنسان على الأرض دون الالتفات إلى الله**)**.

إن مذهب الإنسانية يطفح بالغرور ، فأتباعه يرون فى أنفسهم القدرة والكفاءة على خوض غمار الحياة دون حاجة إلى الله. إنهم قادرون على التفكير والتأمل والكتابة والتنظير والإبداع والنجاح دون معونة من السماء. إن أهم مدلولات مذهب الإنسانية أن الإنسان هو صانع نفسه ، ولا فضل لله عليه. مذهب الإنسانية محاولة لخلق إله جديد بدلا من الله ، والإله هذه المرة هو الطبيعة البشرية نفسها ، وهذا يعنى خلق ملايين الآلهة بعدد سكان الأرض فى كل العصور ، فالآن أصبح بمقدور كل فرد على كوكب الأرض أن يحمل لقب إله ، وما الغرابة فى ذلك ، أليس دور الإله أن يكون

[51]) **Humanism. Its Roots and Development. What humanism consists of?** By .L.J. Elders.

حاكما وآمرا وناهيا وموفقا؟ والآن أصبح الإنسان هو سيد نفسه الذى يحدد القيم والفضائل والتشريعات والقوانين ، كما أصبح الإنسان سيد الكون بما ابتكره من آلات واختراعات ووسائل للراحة. ماذا بقى من دور للإله فى حياة يتحكم فيها الإنسان بالكامل؟ إن مذهب الإنسانية هو إعلان وفاة لله ، وتنصيب حكام جدد للكون هم الإنسان. الإنسانية هى انتقال من التوحيد إلى تعدد الآلة ، انتقال من إله السماء إلى أصنام الأرض. الإنسانية انحدار وانحطاط.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الخامس: لا أخلاق بدون الإسلام

من مهازل هذا العصر إهمال العلمانيين لأمر العقيدة ، والاهتمام المبالغ فيه (الاهتمام المصطنع) بالأخلاق ، وشاع قول قائلهم: " لا تحدثنى عن دينك ، بل أرنى أخلاقك ومبادئك ، فليس المهم ما اسم الإله ولا عدده ولا صفاته ولكن المهم هو القيم والمبادىء التى يدعو إليها. ليس المهم أن تكون مسلما أو مسيحيا أو يهوديا أو بوذيا بل المهم أن تكون متمتعا بالحب والرحمة والتعاطف والسلام".

وهذه المقولة الأخيرة بالنسبة لرجل الشارع شديدة الجاذبية ، لكنها قطعا شديدة التضليل ، ومع ذلك فقد انتشرت – لفظا ومعنى–على نطاق واسع فى الفترة الأخيرة ، حتى صار المسلم يخجل من الكلام حول العقائد ، ويشعر بأن من المفروض عليه أن ينحنى إجلالا لكل من يدعى الفضيلة حتى لو كان ملحدا عربيدا أو صاحب دين مكانه اللائق فى مستشفى الأمراض العقلية!

والداء أخطر فى بلاد الغرب حيث أصبح الرأى السائد فى وسائل الإعلام وعند رجل الشارع أن الأخلاق أهم من العقائد ، وقد أدى ذلك إلى انتشار ظاهر تغيير الملة Transdenomination، فبعد أن كان من الصعب جدا أن يترك الإنسان ملته ومذهبه أصبح هذا الأمر شديد الشيوع هذه الأيام. ومرد ذلك إلى أن "**العامل المهم فى الهوية الدينية اليوم ليس هو الملة التى ينتمى إليها المرء بالذات** ، وإنما هو أين يقع المرء على الطيف الليبرالى/المحافظ... **والإيمان المعاصر يقدَّم بشكل أساسى من ناحية اللغة الأخلاقية وليس من ناحية العقائد ، والتوجه الخلقى وليس الانتماء المؤسسى هو المعيار المُعَرف للهوية الدينية**".[52] وقد صاحب هذا التغيير ظهور الكنائس الضخمة Megachurches التى يتردد عليها أعداد كبيرة جدا من الأفراد. وكثيرا ما تضم الكنيسة من هذا النوع فى عضويتها أفرادا من مختلف الطوائف وليس من طائفة واحدة بعينها[53].

وقد عانيت كثيرا بسبب هذه الثقافة وأنا أدعو الأجانب إلى الإسلام. وأعترف أننى كنت فى البداية أخجل من بدء نقاش حول الدين وإثارة حوار حول العقائد مع أصدقائى الأجانب. لقد كانوا يشعروننى بأننى إنسان من كوكب آخر يتحدث عن أمور بالية لن تجر إلا الكراهية والعنف والدماء ، وأن الكلام عن الأخلاق يجب أن يكون مجردا عن الدين والعقيدة. ولكن بفضل الله سرعان ما تخلصت

---

[52]) "**Postmodernism and Religious Institutions**". By Dinges, William D. The Way, 36 (3), 215-225. London. 1996. ISSN: 0043 1575. https://www.theway.org.uk/Back/36Dinges.pdf

[53]) **The Kingdom, the Power, and the Glory: Megachurches In Modern American Society"**. By Scott Thumma, Dissertation, Emory Univ. 1996. http://hirr.hartsem.edu/megachurch/dissertation.html

من هذا الخجل ، وبدأت أدعو إلى الإسلام بجرأة وقوة دون خجل ، فأنا على الحق وهم على الباطل.

وفى السنوات الأخيرة ازداد نفوذ الأقليات فى البلاد الإسلامية بشكل كبير ، ومن مظاهر هذا النفوذ حرص وسائل الإعلام العلمانية على إظهار الأديان الأخرى غير الإسلام بمظهر جميل براق باعتبارها تدعو للتسامح والإخاء والمساواة والحب ، وأصبح من غير المقبول أن يُظهر المسلم انتقادا لهذه الأديان ، بل أصبح من غير المقبول أن يتكلم المسلم عن دينه وكأنه هو الدين الوحيد الذى يدعو إلى الخلق الحسن ، وأصبح من المحتم على كل من يشيد بفضيلة فى الإسلام أن يُعقب على الفور بعبارة: (الإسلام وكل الأديان السماوية). إنهم لا يجبرونك فقط على أن تحترم الباطل، بل يكرهونك على أن تخفى اعتقادك فى تفوق دينك وتميزه! ومؤخرا لحقت ديانات أخرى بالقطار مثل البوذية ، فأصبح يروَّج لها على أنها دين محترم يدعو إلى الخلق والفضيلة مثله مثل الأديان السماوية.

ونحن نؤكد هنا أن من حق اليهود والنصارى أن ينسبوا لأنفسهم من الفضائل ما يريدون، فقد سبقهم القرآن ، واعترف بأن بعضهم على خلق ، كما فى قوله تعالى: { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} [آل عمران: 75]. وإذا كنا نعترف بحسن أخلاق بعض أهل الكتاب ، إلا أن عليهم أن يعلموا جيدا أن كفرهم بالإسلام عمل غير أخلاقى ، وأن جراحات التجميل التى يجريها الإعلام لن تجدى نفعا مع قلوب شُوهت بنار الحقد وسواد المصالح الزائلة. وكثيرا ما يستدعى نموذج جراح القلب المسيحى المصرى مجدى يعقوب باعتباره دليلا على أن الخير موجود فى جميع الأديان ، وأن الدين ليس مهما بنفس قدر أهمية الأخلاق ، وأن الجنة ليست حكرا على المسلم وحده. ولكن نحن نرفض هذا ، ونعلن بكل وضوح أن المسيحى أو اليهودى أو أى صاحب ملة أخرى غير الإسلام يمكن أن يكون مؤدبا ودودا لينا محسنا ، لكن كفره بالله جريمة أخلاقية من أبشع الجرائم. وليس من حقنا بالطبع أن نحاكمه على كفره ، فقد كفل له الله عز وجل حرية العقيدة فى الدولة الإسلامية ، لكن يجب أن يكون واضحا للجميع أنه كافر ، وأن الكفر عمل غير أخلاقى. وقد سبق أن تكلمنا فى فصل سابق عن الأسباب التى دعتنا إلى اعتبار الإلحاد جريمة أخلاقية، والآن سنقدم الأسباب التى تثبت كيف أن اعتناق أى دين غير الإسلام يمثل جريمة أخلاقية لا تغتفر:

1- الكفر بالإسلام كذب وتزوير

أبشروا يا أحبائى. باركوا لى. لقد كنت بالأمس أجلس فوق سطح منزلى ليلا ، فإذا بالسماء تضىء فجأة ، وظهر فى الأفق طبق طائر ، نزلت منه كائنات فضائية ، واتجهت نحوى. فى البداية خِفت منهم ، لكنهم اقتربوا أكثر وأكثر، وسلموا علىَّ ، وجلسوا معى حتى هدأتُ ، ثم أخبرونى أنهم من كوكب بعيد أكثر تقدما من كوكب الأرض ، وأن اختيارهم قد وقع علىّ لأحمل لأهل الأرض دينا جديدا يدعو إلى المحبة والإخاء والمساواة والتسامح ، دينا يعطى للمرأة كل الحقوق ، ويسوى بينها وبين الرجل فى كل شىء ، دينا يتبنى حقوق الإنسان ، ويدعو للقضاء على الجهل والمرض والتخلف ، دينا يدعو لمحاربة الفساد ، وينصف الفقراء ، ويحافظ على البيئة. لقد لقنونى كل هذه المبادىء ، وأخبرونى أننى صرت نبيا للبشرية ورسولا للإنسانية ، ثم بثوا فى جسدى قوة فضائية غريبة حولتنى إلى إله ، وها أنا ذا أدعوكم اليوم لأن تؤمنوا بى نبيا، وتتخذونى إلها معبودا. ولا تخافوا منى ، فأنا لن أكلفكم بصلاة ولا صيام ولا زكاة ولا جهاد ، وأبشركم أنه لا حياة بعد الموت، ولا جنة ولا نار ، وأنا لا أَعِد من يطيعنى بأكثر من السعادة فى الدنيا ، أما من يعصانى فسيحيا فى اكتئاب وقلق وفقر.

تخيل عزيزى القارىء أننى وقفت فى يوم من الأيام أقول للناس هذا الكلام فهل تصدقنى؟ هل تؤمن بى إلها ونبيا لمجرد أننى أنادى بالمحبة والتسامح وحقوق الإنسان ومساواة المرأة بالرجل والحفاظ على البيئة؟ وهل تتوقع من ملايين المثقفين فى كل أنحاء العالم أن يعتنقوا دينى ويسجدوا لى لمجرد أن المبادى والأخلاق التى أدعو إليها تستهويهم وتروق لقلوبهم؟ أم أن من له ذرة عقل فسيسألنى: ما الدليل على صدقك؟ هات ما عندك من برهان على أن هذه الكائنات زارتك فعلا؟ وهل أنت متأكد أنك لم تكن واقعا تحت تأثير مخدر أو تعانى من مرض نفسى؟

وإن تصادف أن حقق هذا النبى المزعوم نجاحا ساحقا ، واتبعه ملايين البشر حول العالم ، فهل ستكون سعيدا به؟ وهل تتبعه مثل غيرك رغم أنك تعلم أنه يكذب ، ويدعى لنفسه مقاما أكبر من حجمه ؟ هل بات ذبح الحقيقة خلقا قويما؟

إن الاهتمام بالعقيدة ينبع من قيمة الصدق ، وهى أحد أهم القيم كما قلنا من قبل. لقد كان أهل الكتاب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يفتخرون بأنهم أهل دين وصلاح ، فنزل الرد القرآنى الرائع ليقول: {**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا**} [النساء: 49، 50]. وهذه الآية

تقول باختصار أن الكافر كذاب ومزور لأنه ينسب إلى الله عز وجل ما ليس فيه ، وما هذا بالإنسان الصالح. وكيف يكون صالحا من افترى على الله الكذب؟ إن من قال أن الله غير موجود فهو مزور ، ومن قال أن الله ثالث ثلاثة فهو مزور ، ومن قال أن لله ولدا فهو مزور ، ومن قال أن الله عز وجل يحب بنى إسرائيل وحدهم من دون الناس فهو مزور ، ومن نادى بوحدة الوجود، وزعم أن الله يتخذ شكل إنسان أو حيوان أو حشرة فهو مزور. وإذا كان الإنسان السوى يكره التزوير، فكيف نحترم من يرتكب أبشع أنواع التزوير ، ألا وهو التزوير فى أمر يتعلق بإله الكون؟

لقد كان القرآن رائعا حين فضح حقيقة الكفر ، وبين أنه ليس مجرد موقف فكرى ، بل تزوير وتزييف وافتراء على الله ، ومن قبيل ذلك قوله تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [يونس: 68، 69]. وقال كذلك: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: 20، 21]. والآيات المشابهة كثيرة.

وحين مدح القرآن النصارى فإنه مدحهم لأنهم يرضخون للحق ، ولا يستكبرون عن اتباع الإسلام إذا وصلتهم دعوته: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) } [المائدة: 82، 83]. وهذه الآية الأخيرة يجب أن تكون الأساس الذى نبنى عليه نظرتنا لغير المسلم الذى يفعل الخير ؛ فنشيد بأخلاقه إن رأينا منه أمانة أو صدقا أو مودة ، لكن نؤكد له فى نفس الوقت أنه لا يمكن أن يكون ذا خلق حقيقى ، وهو يستكبر عن اعتناق الإسلام ؛ فرفض الدين الحق كذب وتزوير فى أهم شأن من شئون الكون. وقد ندد القرآن فى عبارات شديدة القسوة بكتمان أهل الكتاب للحق الموجود فى كتبهم المقدسة ، فقال تعالى مثلا: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } [البقرة: 174، 175]. وقال تعالى أيضا: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } [البقرة: 159].

لقد كان المسلمون الأوائل أصحاب فطرة سليمة حين لقبوا نبى اليمامة المزعوم بمسيلمة الكذاب ، وهو اللقب الذى أطلقه أول مرة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام[54]. لقد أدرك هؤلاء المسلمون بالبداهة أن العقيدة الباطلة لا وصف لها إلا الكذب ، أما الإنسان المعاصر فيعيش فى حالة انتكاس للفطرة ، جعله يشيد بالمزور لمجرد أنه أقسم أنه على خلق. وهنا نتذكر المثل المصرى المعروف: (قالوا للص احلف ، فقال: جاءك الفرج). عجبا!

2- العقيدة تنعكس على الأخلاق

من الأمور الشديدة الأهمية التى لا تحظى بالاهتمام الكافى أن غياب العقيدة الصحيحة لا يتوقف فقط عند حدود الفكر والنظر ، بل يتعدى ذلك إلى مجال الخلق والعمل.

ولكن كيف ينعكس فساد العقيدة على مجال الأخلاق؟

إن الإنسان لكى يصنع الخير ويبتعد عن الشر اتباعا لتعاليم دينه فلا بد أن يكون على يقين من أن هذا الدين صحيح ، **ومن لا يؤمن بصدق عقيدته فلن يجتهد فى اتباعها** ، فالعمل تابع للنظر ، ومن أهم ضروريات الإيمان بالعقيدة أن تكون متسقة مع العقل وخالية من التناقضات. حقا كثير من الناس يتقبلون الأديان عن طريق الوراثة من الآباء والأجداد دون تفكير أو نقد أو تمحيص إلا أن كثيرين أيضا يتمتعون بالذكاء ، وهؤلاء سيشكون فى عقائدهم الفاسدة ، وقد يكفرون بها ، فتكون النتيجة أن يمتنعوا عن أعمال الخير التى يدعو إليها دينهم. وعلى ذلك فالعقيدة الخرافية المجافية للمنطق كثيرا ما تؤدى إلى سوءالخلق.

خذ مثلا المسيحية: لقد لفظ العقل الغربى الحديث المسيحية وكتابها المقدس الذى يحتوى على ما لا يحصى من الخرافات والأساطير التى لا يقبلها إلا ساذج ، وكيف لعقل علمى أن يصدق على سبيل المثال أن عمر الكون بضعة آلاف عام فقط؟ وكيف لطفل أن يصدق أن الواحد يساوى ثلاثة والثلاثة تساوى واحد؟ ولما انصرف الغربيون عن المسيحية لم يتركوا فقط عقيدتها، بل تركوا أيضا أخلاقها ، فانتشر بينهم الزنا واللواط والأنانية والجشع والتنافس والتكالب على المال والحروب والظلم، وأبيح الإجهاض وزواج الشواذ ، وانتشرت المذاهب الأخلاقية الفاسدة مثل الشيوعية والعدمية والأناركية وتأليه المرأة. **إن من الصعب أن تقنع إنسانا معاصرا بأن يعمل الخير من أجل إرضاء**

---

54) ورد ذلك فى الكتاب الذى رد به الرسول عليه السلام على مسيلمة ، وقد كان نصه بحسب ما رواه ابن إسحاق: (مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ: السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يُشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.). انظر: **السيرة النبوية لابن هشام** (2/ 600).

إله يشك فى وجوده. وكيف يحاول المرء أن يلتزم بأخلاق دينه وهو من الأصل يرتاب فى صدق عقيدته؟

ومن هنا كان لزاما على كل إنسان حريص على أخلاق مجتمعه وأخلاق البشرية أن يدعو الناس إلى اتباع الدين الحق ، وألا ينخدع بشعار الفضيلة الذى يرفعه أتباع كل دين ، فمن الصعب على الأخلاق أن تزدهر فى ظل دين باطل يرفضه العقل ، على الأقل بالنسبة للأذكياء والنابهين. الأخلاق فى هذه الحالة تشبه شجرة خضراء غُرست فى أرض سبخة ، فهل يتوقع لها ازدهار؟

3- الكفر بالإسلام استخفاف بالعقول

سبق أن أوضحنا كيف أن الإلحاد ضرب من ضروب الجنون ، والآن نقول أن نفس الشيء يسرى على كل ما عدا الإسلام من أديان.

وفى بلاد المسلمين أصبح من ينتقد عقائد الأديان الأخرى متهما بالسطحية والتخلف ، مع أن احترام هذه العقائد الخالية من العقل هو عين السطحية والتخلف.

لقد كان لى اطلاع بالديانة الهندوسية ، ولم أجد فيها إلا خرافات مضحكة يستحيل أن يستسيغها عقل الطفل. إن السمة الرئيسية فى الهندوسية هى التناقض واللاعقلانية ، ولهذا أصابنى الذهول حين رأيت بعض الغربيين يبدون إعجابهم بها ، بل وجدت بعضهم يعتنقها ويتخذها دينا ، وصدمنى قول إحدى السيدات الأمريكيات أن الهندوسية دين لا يعرف الإرهاب ، وأن الإرهاب يأتى من الإسلام. ولن أناقش الآن تلك السلمية المزعومة التى تتمتع بها الهندوسية[55] ، ولا ذلك الإرهاب المفترى الذى جاء به الإسلام ، ولكن الذى يغيظ المرء حقا أن تتقبل تلك المرأة كل الحماقات الفكرية والفلسفية الموجودة فى الهندوسية دون أى اعتراض ، وتركز فقط على موضوع أخلاقى مثل الإرهاب. لقد كدت أصرخ فى وجهها: ألم يتحرك عقلك بسبب قوم يعتقدون أن هناك آلهة كثيرة ، وأن هذه الآلهة الكثيرة ليست فى الحقيقة كثيرة بل هى إله واحد ، وأن هذا الإله ليس مختلفا

---

[55]) على سبيل المثال وقعت أعمال عنف طائفية فى الهند ترتب عليها استهداف منازل المسلمين ومحالهم ، ومقتل أكثر من 30 شخصا وإحراق مسجدين ، وتمزيق المصاحف ، وذلك أثناء زيارة الرئيس الأمريكى ترامب ، فلم نسمع منه إدانة ولم يذرف دمعة على دماء المسلمين. انظر هذا التقرير للبى بى سى ولصحيفة والنيويوركر:

العنف في الهند: ماذا وراء أسوأ موجة عنف طائفي في العاصمة دلهي منذ عقود؟ بى بى سى 27 فبراير 2020.
https://www.bbc.com/arabic/world-51657742

THE REAL OBJECTIVE OF MOB VIOLENCE AGAINST MUSLIMS IN INDIA. By Isaac Chotiner. THE NEW YORKER. February 28, 2020. **https://www.newyorker.com/news/q-and-a/the-real-objective-of-mob-violence-against-muslims-in-india**

عن الكون ، بل هو والكون شىء واحد ، والإنسان ليس فى الحقيقة إنسانا ، بل هو الله نفسه ، وهذه فلسفة وحدة الوجود؟

ووجدتُ أيضا أن البوذية تحظى بشعبية فى الغرب بما تتضمنه من تجارب روحية وحديث جذاب عن الأخلاق. ومنذ عدة سنوات لم أكن أعرف شيئا يذكر عن البوذية ، فقررت أن أحزم أمتعتى ، وأهاجر إلى كتبها التى كتبها معتنقوها ، فما هى إلا بضع صفحات حتى اكتشفت المهزلة. إنه دين تافه طفولى لا يصمد أمام أبسط أدوات النقد والتحليل رغم المحاولات المستميتة للبوذيين لأن يلبسوا دينهم ثوب العلم والحداثة. إنهم ينكرون وجود الله ووجود النفس مثل الملحدين ، والأسوأ أنهم يؤكدون فى نفس الوقت وجود دورات متوالية من الحياة يحياها كل إنسان بعد أن يموت ، وحين تسألهم: ومن الذى يخلق الإنسان فى صورة كائن آخر فى الحياة التالية؟ ومن الذى يثيب الإنسان أو يعاقبه بخلقه فى صورة حسنة أو سيئة فى الحياة التالية طبقا لعمله وأخلاقه فى الحياة الحالية؟ ثم كيف يحدث هذا إذا كان الإنسان جسدا بلا روح ، ولا يبقى منه شىء بعد الموت؟ حين تطرح هذه الأسئلة لا تسمع إجابة شافية. إننى أضرب كفا بكف من ذلك الإنسان المتحضر الذى لم تستوقفه أخطاء البوذية القاتلة ، وركز البصر فقط على جوانبها الروحية والأخلاقية.

والمصيبة لا تقتصر على البوذية والهندوسية ، بل تجاوز المرض كل الحدود ، فاجتاحت الغرب معتقدات وخرافات جديدة لم يسمع بها أحد من قبل ، وانتشر السحر والشعوذة. وقد كان لى على الفيسبوك صديقة عجوز كانت منشوراتها تنطوى على جوانب أخلاقية ، لكننى فوجئت فى أحد الأيام أنها تحاول إقناعى بعقيدة غريبة ، ولما بحثت عنها وجدتها شكل من أشكال عبادة الشيطان. لقد ذُبح العقل الغربى على أنصاب الأخلاق ، والأخلاق منهم براء. لقد أبرم الشيطان الصفقة ببراعة ، فضحى بالأخلاق مقابل العقيدة. لقد ساقهم إبليس إلى الخرافة ، وترك لهم شيئا من الأخلاق كى يطمئنوا إلى أنهم فى ظل هذه العقائد الجديدة لا يزالون على الطريق الصحيح. إنه نفس الأسلوب الماكر الذى يفعله العميل المزدوج حين يقدم للدولة أخبارا صحيحة بجوار أخبار كاذبة كى يطمئنوا إليه.

وهكذا نجد أن الإسلام هو العقل، أما الأديان الأخرى فتتضمن كثيرا مما يجافى العقل ، ولهذا كان من قبيل الفضيلة أن نتمسك بالإسلام وأن نرفض ما سواه من الأديان ، فالدعوة إلى نشر الجنون ليست من الأخلاق فى شىء.

4- عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك

إن الاختلاف بين الأديان فى العقائد ليس من قبيل التفاهات والسخافات. إن من العار أن تطلب منى أن أغضب لمفكر أو عالم غُمط حقه ، وفى نفس الوقت تجلدنى إن تجرأت ودافعت عن إله سلبه الناس من صفاته ، وانتقصوا من حقه ، وقالوا عنه ما ليس فيه؟ لماذا يغضب المفكر المستنير حين يقرأ مقالا يتضمن هجوما لاذعا على طه حسين أو سلامه موسى أو فرج فودة ، وفى نفس الوقت يطلب من المسلم أن يتقبل بصدر رحب عقيدة النصارى بما تتضمنه من إهانة لله عز وجل وهجوم وقح على محمد عليه الصلاة والسلام ؟

إن تشويه الآخرين لا يمكن أن يكون عملا أخلاقيا. وأى دين غير الإسلام يتضمن حتما تشويها لله ، وتغييرا لصفاته ، وافتراء على ذاته ، وتحريفا لأقواله ، وهذا عمل غير أخلاقى. وهل يرضى رئيس الدولة أن يحرف أحد الصحفيين حديثا أجراه معه ، وينشر على لسانه كلاما لم يقله؟ وهل يرضى مفكر كبير أن يغير رئيس التحرير دون علمه بعض الأفكار التى تضمنها مقال صحفي له ؟ لماذا إذن نظهر الاحترام لمن حرفوا الكتب السماوية التى أنزلها الله أو باركوا تحريفها؟ ولهذا فالمسلم يستحيل أن ينظر إلى أصحاب الديانات الأخرى على أنهم نماذج أخلاقية فاضلة. الكفر بالإسلام ينطوى على نقص أخلاقى خطير.

إن كل من اتُهم بما ليس فيه فمن حقه أن يغضب لنفسه ، ومن واجبنا أن نغضب له ؛ من حق عميد الكلية على سبيل المثال أن يغضب إن أشيع عنه أنه لا يقدر على اتخاذ قرار بنفسه إلا بعد الرجوع إلى وكيل الكلية ، ومن حق رئيس الجمهورية أن يغضب إن قيل أن وزير الدفاع يتصرف دون الرجوع إليه ، فكيف بعد هذا تريدون منا أن نسكت حين يشاع عن الله ما ليس فيه؟

كيف نسكت إن قال اليهود أنهم شعب الله المختار؟ وهل يرضى رئيس تحرير إحدى الصحف الكبرى أن يشيع أحد الصحفيين المبتدئين أنه من المقربين إليه وأنه يبدى إعجابا لا حدود له بأسلوبه الجميل ومستقبله الواعد؟

وكيف نسكت على من يسجدون للأصنام ، ويدعون أنها تشفع لهم عند الله ، بينما لا يمكن للوزير أن يتهاون إن علم أن سكرتيره يشيع بين الناس أنه على علاقة وثيقة به ، وأنه قادر على أن يتوسط لهم عنده ويقضى لهم حوائجهم إلى حد أن أصبح السكرتير يتمتع بمكانة كبيرة بين الناس بفضل هذه الإشاعات ، ونسى الناس الوزير نفسه ، وصاروا يقصدون من يملك مفاتيح بابه؟

ولنفس السبب كيف نسكت على اعتقاد النصارى بأن مريم العذراء وبقية القديسين يشفعون لهم عند الله؟

وكيف تطلبون منا أن نؤمن بفلسفة الخطيئة الأصلية المسيحية التى تقول أن البشرية ورثت خطيئة آدم ، بينما لا أحد منا يحترم رجلا اختلف مع صديقه فقاطعه ، ولم يكتف بذلك بل ظل يقاطع أبناءه وأحفاده رغم أنهم حاولوا مرارا التودد إليه بصدق ، وأعلنوا براءتهم من أبيهم وإدانتهم لأخطائه؟

وكيف نسكت على الملحد الذى يقول أنه لا حياة بعد الموت ولا ثواب ولا عقاب فى نفس الوقت الذى لا يمكن أن نتسامح مع صحيفة أشاعت أن امتحان آخر العام قد ألغى بسبب الظروف السياسية ، ثم فوجىء الطلبة أن الامتحان قد عقد فى موعده ؟

وكيف نتسامح مع فيلسوف يحاول إقناعنا بأن الله لا علم له بالتفاصيل والجزئيات ، بينما لو قيل عن رئيس الاستخبارات أنه لا يعرف دبيب النملة لهاج وماج؟

إذن العقيدة تبنى على قيمة أخلاقية أساسية هى قيمة "عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك به"، فكما تكره أن يقال عنك ما ليس فيك فمن واجبك أن تكره أن يُقال عن الله ما ليس فيه.

5- الكفر بالإسلام استكبار

سبق أن ذكرنا فى فصل سابق كيف أن الإلحاد فى ذاته عمل غير أخلاقى لأن الملحد يستكبر ، ويرفض الاعتراف بوجود الله حرصا على كرامته ومكانته وزعامته. ونفس الفكرة تنطبق على كل من يؤمن بدين غير الإسلام. إن من الصعب جدا على رئيس دينى لإحدى الطوائف أو الأقليات أن يترك دينه ويعتنق الإسلام ، وذلك لأنه إن أصبح مسلما فسيكون مجرد فرد عادى وليس زعيما دينيا.

6- موادعة الآخرين لها حدود

أمرنا الإسلام بحسن معاملة المخالفين فى الدين ممن لا يظهرون العداوة للإسلام ، فقال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: 8، 9].

ورغم ذلك فمن غير المقبول أن يبالغ المسلم فى حسن معاملة أهل الكتاب إلى حد نسيان أنهم كفار ، وأنهم بحاجة إلى الهداية ، وأن من واجبه دعوتهم إلى الحق. إن حرص المسلم على تغيير عقائد الآخرين ينبع من مبدأ أخلاقى راسخ هو حب الخير للآخرين ، فمن يحب إنسانا لا يمكن أن يراه على عقيدة باطلة ، فيتركه دون أن يتدخل ليصحح له فكره ، ويرشده إلى العقيدة التى يظن أنها تحقق له الخير والفوز. لقد كان كثير من المسلمين فى بلادنا يتبارون لتهنئة النصارى بأعيادهم ظنا منهم أن هذا من قبيل الوحدة الوطنية والبر بشركاء الوطن، فكنا نقول لهم: إن هذا ليس برا بهم ، فمن يتمنى الخير لأخيه لا يتركه على باطل يؤدى به إلى الهلاك. إن كنتم فعلا صادقين فى حبكم للنصارى فاجتهدوا فى دعوتهم إلى الإسلام ، وحببوهم فيه حتى لا يكونوا من الخاسرين يوم الدين. وإن كنتم تحبون صحبة أصدقائكم من النصارى ولا تقدرون على فراقهم فاحرصوا على أن يدخلوا إلى الإسلام مثلكم ، فتجتمعوا معهم فى جنة الخلد بإذن الله. أرأيت إن همَّ صديقك الكافر بتناول طعام تعلم مسبقا أنه منتهى الصلاحية ، فهل تتركه ؟ هذه جريمة أخلاقية ، بل جريمة من وجهة نظر القانون الوضعى العلمانى. وهل من الأخلاق أن ترى صديقك يحاول الانتحار فتتركه يشنق نفسه بحجة أنك إن حاولت منعه سيغضب منك؟ فليغضب كما يشاء طالما أنك تهدف إلى إنقاذه.

وفضلا عن ذلك فإنه لا أحد من الناس يحب الجهل ، ولذا فنحن إن رأينا شخصا يصدق أوهاما سارعنا إلى تصحيح أخطائه. وهذا سلوك فطرى ، فحب الحقيقة مغروس فى النفوس ، ومن يسمع الخطأ ولا يصححه فاعلم أن فى قلبه مرضا ، أو أنه مصاب باللامبالاة حتى لو كان هذا الخطأ صغيرا ولا يضر أحدا. هب أنك كنت تجلس مع بعض الأصحاب ، ووجدتهم يتكلمون عن فرنسا، فقال أحدهم أن عاصمة فرنسا هى لندن، فهل تسكت أم تنبرى لتصحيح المعلومة؟ وفى أحد الأيام تكلمت نجمة سينيمائية معروفة على إحدى الفضائيات ، فقالت أن المبشرين بالجنة أربعة ، فثارت ثائرة الناس على هذا الجهل المشين. والطبيب الذى يجلس وسط مجموعة من الناس وهم يتكلمون بكل ثقة عن التفاصيل الدقيقة لأحد العيوب الخلقية فى القلب فلا بد أن يشعر بالغثيان. وبالمثل نتساءل: كيف تطلبون من المسلم أن يقف صامتا وهو يرى بعينيه جهل أصحاب الأديان الأخرى بدين الله الحق؟ إن الدعوة إلى العقيدة الصحيحة تدخل فى باب نشر العلم ومحاربة الجهل.

ثم كيف ينسى المثقفون العلمانيون مصطلح (التنوير) الذى أطلق على تلك الفترة التى نمت فيها روح العداء للدين فى أوربا فى العصر الحديث؟ كيف يرضى العلمانيون أن يسمى نشر عقائد الإلحاد تنويرا ، وفى نفس الوقت ينكرون على المسلم نشر نور عقيدته بحجة أن كل

العقائد غير مهمة ، وأن الخلق الحسن والسلوك الطيب يكفى؟ ولماذا يبارك العلمانيون نشاط المسيحيين فى نشر عقيدة التثليث والصلب بين المسلمين؟ لماذا لا يتركون المسلم الصادق الأمين الذى يساعد الفقراء ويواسى المرضى فى حاله طالما أن الأخلاق هى كل شىء عندهم؟ أم أن المسألة لا تعدو عداء مقنّعا للإسلام؟

وهناك فكرة لاحظت أنها تروج بين بعض الملحدين الغربيين ، فهم يتساءلون: كيف يحرص الله كل هذا الحرص على العقيدة ، فيفصل فيها القول ، ويكرر الكلام ، ويكثر من التحذير؟ إن هذا الاهتمام المبالغ فيه بالعقيدة يجعل الله يبدو وكأنه مرشح برلمان يدُور على الناخبين قائلا لهم: "انتخبونى انتخبونى. من فضلكم. أتوسل إليكم".

الحقيقة أن هذا الكلام لا يصح على الإطلاق ، فالله تعالى لا يضيره شىء لو كفر به كل الناس، كما أنه عز وجل لو شاء لأجبرهم جميعا على الإيمان. إن حرص الله على أمور العقيدة نابع من كونه إلها عادلا ، والعادل لا يعاقب إلا بعد أن ينذر ويحذر: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15]. الله عز وجل يعلم أن الإنسان مخلوق مادى ، غارق فى الدنيا وشهواتها التى تشغله عن البحث عن الحقيقة ، وتنسيه مصيره ومستقبله فى الآخرة ، ولذلك كان لا بد أن يبالغ الله فى الإنذار والتحذير. والمدرس المهمل هو ذلك الذى يشرح الدرس للتلاميذ بسرعة ، ثم يتركهم مسرعا ليشاهد مباراة كرة قدم ، أما المدرس الجاد فهو يشرح الدرس ، ثم يعيد الشرح مرة واثنتين وثلاثة كى يستوعبه كل الطلبة ، وبهذا لا تبقى حجة لأحد إن رسب فى الامتحان. وإذا تتبعنا تاريخ الأديان على مر العصور لوجدنا أن الله تعالى كان معه كل الحق فى المبالغة فى محاولة ترسيخ العقيدة الصحيحة فى قلوب الناس لأن كل الأديان الصحيحة التى سبقت الإسلام إما أنها اندثرت أو كادت تندثر أو شُوهت بشكل كبير ، وأقلها تشوها كان اليهودية التى لا تزال تبتعد عن الإسلام ببون شاسع. إنك إن ذهبت تصارع بطل العالم فى الملاكمة فإن مدربك لن يكف عن تلقينك الدروس قبيل المباراة ، وسيظل يعيد نفس النصائح مرارا وتكرارا حتى لا تنهزم كما انهزم غيرك.

ثم تعالوا معى وانظروا إلى هذا الولد الذى يسب أباه ويتطاول عليه. إن الأب يحزن ويغضب ليس لأن ابنه قد أهانه ولكن لأنه انحرف وسار فى طريق لم يكن يتوقعه الأب على الإطلاق ، فقد كان الولد مؤدبا مهذبا ، ولكنه لما التحق بالمدرسة الثانوية اختلط برفاق السوء ، فجروه معهم إلى الوحل، وما إهانته لأبيه إلا مؤشر على هذا الانحراف الخطير. إن الأب لا يغضب لنفسه ، بل يغضب لأن سلوك ابنه قد تغير للأسوأ. إنه يحزن ليس لأنه قد أهين بشكل شخصى، ولكن لأن

إهانة ابنه هى الجزء الظاهر من جبل الجليد ، ولئن استمر فى هذا الطريق فسينتهى حتما إلى الضياع والسجن. إن إهانة الأب لا تمثل مشكلة كبيرة بالنسبة له ، أما دخول ابنه إلى عالم المخدرات والفواحش والجريمة فهو ما يستحيل أن يحتمله. وبنفس الطريقة سنجد أن الله تعالى لا يضيره ولا يهمه أن يسخر منه الملحدون ، ولكنه لكونه رب الناس فهو حريص على مصلحة الناس، وهو يعلم أن من يصل إلى درجة الإلحاد فهو قد وصل إلى قمة الانحراف الأخلاقى الذى يجعله مستحقا للخلود فى النار.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب السابع: انظر إلى أخلاق المسلمين

أظن أننا بحمد الله قد حاصرنا شبهات الإلحاد حول علاقة الدين بالأخلاق ، ولكن يبقى أمل أخير يلوذ به الملحدون على الدوام. إنك ستسمع ملحدا يقول: (إن كلامكم عن أهمية الدين للأخلاق نظرى تماما ، فيكفى أن تحول بصرك إلى بلاد المسلمين لترى انتشار الرذائل والضغائن والحروب بشكل يفوق ما تجده لدى بلاد الملحدين والكفار).

ولمثل هؤلاء نقول: نعم أخلاق المسلمين الآن فى انحطاط ، ولكن من أدراك أن الدين لا يلعب دورا في أخلاق المسلمين رغم انحطاطها؟ **ألا يمكن القول أنه لولا الدين لكان المسلمون أكثر انحطاطا مما هم عليه الآن؟** إن الطالب قد يحصل على مجموع صغير قدره 55% في الامتحان فيتحسر أبوه على الكتب الدراسية الكثيرة التي اشتراها له وعلى المدرسين الذين أحضرهم له فى البيت ، لكن الحقيقة أن الأب لو لم يكن قد استعان بهذه الكتب وبهؤلاء المدرسين لحصل ابنه على مجموع 15% فقط. وبنفس المنطق نؤكد أن **الدين ليس دوره أن يحول معتنقيه إلى مجموعة من الملائكة الذين لا تنتشر بينهم الرذائل ، ولكن دوره أن يحسن أخلاقهم ويهذب سلوكهم فوق ما هو متوقع من الدوافع الأخلاقية الطبيعية** ، فإذا كانت الدوفع الطبيعية قادرة على أن تجعل أخلاق الناس متوسطة فإن الدين يجعلها جيدة ، وإن كانت الدوافع الطبيعية قادرة على جعل الأخلاق جيدة فإن الدين يجعلها ممتازة ، وهكذا.

إن الدين أداة "تحسين جزئى" ، لا أداة "تحسين كامل" للأخلاق ، ليس لأن الدين به نقص ، ولكن لأن النقص من السمات الأساسية للإنسان ، ومن المستحيل على الطبيعة البشرية أن تتحول إلى طبيعة ملائكية فى الدنيا، وحتى الأنبياء كانت تصدر منهم هفوات فى بعض الأحيان. ولقد تعلمنا من الطب أنه **فى بعض الأحيان يكون غاية المأمول أن نقلل من شدة المرض لا أن نقضى عليه تماما** ، فمثلا فى حالات الصرع المستعصية يعتبر من قبيل النجاح أن يتمكن الدواء الجديد من تقليل عدد نوبات الصرع التى تحدث كل يوم حتى لو لم ينجح فى منع حدوثها بشكل كامل. إن تقديم بعض العون إلى المريض أفضل من ألا نقدم له أى شىء على الإطلاق. وبالمثل **يجب النظر إلى الدين على أن دوره أن يعمل جزئيا على السمو بأخلاق المؤمنين ، وهذا بلا شك أفضل مما لو عاش الناس بلا دين.**

وعلى ذلك فإن رأيت داعية إسلاميا يخطىء أو يصدر عنه عمل غير أخلاقى فلا تسارع إلى القول: "أهؤلاء هم رجال الدين؟ الدين لا علاقة له بالأخلاق". احذر أن تفكر بهذه الطريقة ، وكن محايدا، وقارن حال هذا الرجل الآن بحاله منذ سنوات قبل أن يهديه الله حين كان فاسقا ومنحلا وعربيدا. لقد تغير الآن ولم يعد يصدر منه إلا التوافه واللمم. لقد نقله الدين نقلة كبيرة جدا ، فلماذا تتجاهل الإنجاز الكبير الذى تحقق؟ **وهل من العدل أن نعاير طالبا لحصوله على المركز الثالث فى الامتحان وليس على المركز الأول رغم أنه كان طوال الأعوام السابقة يأتى فى المركز الأخير؟** أذكر الآن أحد المفكرين الإسلاميين كان يغضبنى بسبب صدور تلميحات جنسية خفيفة فى كلامه، ولكننى قرأت فيما بعد اعترافا له بأنه كان يرتكب الزنا مثل كثير من شباب جيله ، فشعرت بأننى تحاملت على الرجل أكثر من اللازم. حقا الرجل مخطىء بسبب التلميحات التى لا تليق برجل دين، لكن الإنجاز الأخلاقى الذى حققه ضخم بكل المقاييس ، فقد تاب عن الزنا ، واكتفى بقليل من الكلمات الجنسية الخفيفة جدا. فانتقد كما تشاء رجال الدين ، انتقدهم بهدف تقويمهم ، لكن لا تتخذ من أخطائهم أساسا للقول بأن الدين لا يرفع الأخلاق ، وأن غير المتدين يمكن أن يكون أفضل خلقا من المتدين.

ثانيا: حين ترى سوء أخلاق المسلمين فى أحد الجوانب فكن محايدا ، وابحث عن جوانب أخرى حسنة لهم ، ثم قارن بين مجمل الأخلاق هنا وهناك. ومن المقارنات التى سمعتها كثيرا أن الدول الأوربية تقدم الرعاية الصحية للأجانب المقيمين فيها ، بينما الدول العربية الغنية تترك المرضى الوافدين (بما فيهم الوافدين المسلمين) يقاسون لعجزهم عن دفع نفقات العلاج. ولا شك أننا ندين بشدة موقف هذه الدول الإسلامية لأن من واجب المسلم أن يتصدق على المريض الفقير ، بل حتى على الكافر الفقير والحيوان الجائع ، لكننى فقط أريد أن ألفت النظر إلى مشاهد أخرى فى غاية القبح والقذارة عند غير المسلمين.

على سبيل المثال أوردت كلا من صحيفة "وول ستريت جورنال" العالمية ومجلة تايم الأمريكية تقريرا فى عام 2016م عن قيام الفلاحين الأمريكيين بإلقاء كميات ضخمة من اللبن الحليب فى الحقول والبحيرات والطرق وأعلاف الحيوانات ، وذلك بسبب وجود فائض ضخم فى إنتاج الألبان ترتب عليه انخفاض فى الأسعار. وبلغت الكميات التى تم التخلص منها 43 مليون جالون. وهذه الكمية من اللبن تكفى لملء 66 حمام سباحة أولمبى ، وهى أكبر كمية تم التخلص منها فى الستة

عشر عاما الأخيرة[56، 57]. والآن ما رأيكم فى هذا السفه والانحطاط الأخلاقى؟ ألا يعلم الأمريكيون أن ملايين الفقراء حول العالم يموتون من الجوع؟ ألا يعلمون أن هناك ملايين غيرهم تهفو نفس الواحد منهم إلى زجاجة لبن أو علبة جبن فى محل البضائع (السوبر ماركت) فلا يقدر على شرائها بسبب غلو سعرها ، وأن السعر لو انخفض لكان أسعد الناس بزوال الحرمان؟ والغريب أن هذا الخبر يمر فى العالم بمنتهى البساطة دون أن يثير امتعاض أحد. ماذا لو كان المسلمون هم الذين يفعلون ذلك؟

وفى عام 2018م شاركتُ على مجموعة فى الفيسبوك اسمها #me too مخصصة لسرد تجارب النساء فى حوادث التحرش والاغتصاب. الحادثة الأخيرة التى قرأتها على هذه المجموعة كانت لشابة أمريكية فى السادسة عشرة من عمرها ، أخذت تروى كيف أنها لما كانت فى السادسة من عمرها (نعم ست سنوات) ذهبت لبيت جدها ، وهناك اصطحبها جدها لمكان خال، ثم تحرش بها ، واستمر الجد يكرر نفس الفعلة حتى الآن ، بل إن هذا الشيخ الفاجر كان يفعل نفس العمل مع أختها. نحن إذن أمام رجل كبير السن يفعل الفاحشة مع حفيدتين له. والقصة لا تقف عند هذا الحد ، فالشيء الأكثر إثارة فى نظرى أن هذه الفتاة لما ضاقت بالرجل أخبرت والديها فكان رد فعلهما مثيرا للغثيان ، حيث أخبراها أن الجد وعدهما ألا يكرر تحرشه بها مرة أخرى ، وكأنه كان يخطف من يدها قطعة حلوى كلما ذهبت إلى بيته!!

إننى لما تمعنت فى القصة وجدت أنها مذهلة من نواح عدة:

1- أن من تحرش بالفتاة هو رجل كبير السن ، أى أننا لسنا أمام شاب ذى غريزة متقدة ، ولكننا أمام رجل يفترض أن شهوته قد فترت. لقد كنا نتوقع منه الحكمة والوقار ، فإذا به يتصرف كالمراهق المحروم.

2- أن الفتاة كان عمرها ست سنوات فقط ، أى أنها لم تكن شابة فاتنة تغرى الرجال.

---

56) **America's Dairy Farmers Dump 43 Million Gallons of Excess Milk.** By Kelsey Gee. Wall Street Journal. Updated Oct. 12, 2016. https://www.wsj.com/articles/americas-dairy-farmers-dump-43-million-gallons-of-excess-milk-1476284353

57) **Dairy Farmers Pour Out 43 Million Gallons of Milk Due to Surplus**. By Melissa Chan. *Time*. Oct 13, 2016. https://time.com/4530659/fanners-dump-milk-glut-surplus/

3- أن هذا الرجل هو جدها وليس رجلا غريبا عنها ، أى أنه يفترض أن يكون أحرص عليها حتى من أبويها.

4- أن الرجل لم يكتف بالفتاة ، بل بأختها أيضا.

5- أن الجريمة لم تكن مجرد نزوة عابرة ، بل ظلت تتكرر لمدة عشر سنوات.

6- أن رد فعل الأبوين كان فاترا لدرجة بشعة. ولو حدث هذا الأمر فى إحدى بلاد المسلمين لثار الأبوين على الجد الفاسق ، وقطعاه إربا ، أو على الأقل لقاطعاه مدى الحياة.

7- رد فعل الفتاة يبدو فاترا جدا ، فقد كنت أتوقع منها أن تنتحر أو تكتئب أو تمتنع عن الذهاب لبيت هذا الوحش ، ولكنها بالعكس ظلت تتردد على بيته ، وكأن ما فى البيت مجرد ذبابة تحوم حول وجهها. ويبدو أن الفتاة وجدت شيئا من المتعة فيما يحدث ، ولقد تأكدت من هذا لما دخلت إلى صفحتها على الفيس بوك فوجدت لها صورا عديدة مع أصحابها كلها تشع بهجة وسعادة دون أى أثر لحزن أو اكتئاب.

8- أن منشور هذه الفتاة لم يتفاعل معه على الفيس بوك إلا 14 شخصا فقط رغم مرور أكثر من 24 ساعة على نشره ، وهذا دليل كبير على شيوع هذا النوع من الجرائم إلى درجة أنها صارت من قبيل المألوف والمعتاد الذى لا يثير الدهشة ولا التعاطف.

9- بفرض أن هذه الفتاة اخترعت هذه القصة كى تلفت انتباه أصدقائها ، فسيبقى هذا دليلا قويا على شيوع هذا النوع من الجرائم فى المجتمع لأن الفتاة لم تخجل من نشر صورتها واسمها ، وهو ما يعنى أن معرفة الآخرين بقصتها لن يؤثر كثيرا على وضعها أو مكانة أحد من أهلها فى أعين الناس ، وما ذلك إلا لأن هذه الجرائم صارت مألوفة عندهم لأقصى حد.

10- لما قرأت هذه القصة ظننت أنها من النوادر ، لكننى فوجئت بقصص اغتصاب عديدة مشابهة ، منها فتاة كان أبوها يفعل معها الفاحشة ، وأخرى كان صديق أمها يعتدى عليها، وغير ذلك من قصص تثير الغثيان.

هذا مثال واحد يثبت أن الإنسان الغربى أبعد ما يكون عن صورة الملاك التى رسمها فى مخيلتنا الملحدون.

وأذكر أيضا تقريرا أوردته إحدى الصحف الأجنبية[58] عن حملة ذاع صيتها على وسائل التواصل الاجتماعى (بالتحديد على تويتر) ، وكان هدف الحملة هو إبداء التعاطف والتأييد للنساء اللائى يتعرضن للاغتصاب. لقد وجدت نصيرات الحركة النسائية أن كثيرا من النساء اللائى يتعرضن للاغتصاب يتبولن رغم إرادتهن أثناء العدوان عليهن. وكانت الوسيلة التى قررت من خلالها النساء المشاركات فى الحملة التعاطف مع ضحايا الاغتصاب هى أن تتبول كل منهن على ملابسها ، ثم تصور نفسها وهى ترتدى السروال (البنطلون) بعد أن ابتل ، ثم تعرض الصورة على الملأ فى صفحتها الشخصية على تويتر. وسميت هذه الحملة "تبول من أجل المساواة" (#PISSFOREQUALITY). لقد أردن أن يوصلن رسالة للضحايا مفادها: "لا تحزنَّ مما حدث لكنَّ. وإن كنتن تخجلن من التبول الذى حدث لكنَّ أثناء الاغتصاب فها نحن أولاء قد صرنا مثلكن نتبول ونبلل ملابسنا".

وأسخف من ذلك حملة تبنتها نصيرات الحركة النسائية – وورد ذكرها فى نفس الصحيفة– اسمها " حركة الطمث الحر" (Free bleeding) ، وهى تهدف للفت الانتباه إلى أن نزول الطمث ليس شيئا يدعو للخجل ، ولهذا قرر هؤلاء النسوة تصوير أنفسهن أثناء الدورة الشهرية ، وقد نزلت قطرات الدم على سيقانهن ثم قمن بعرض الصور على وسائل التواصل الاجتماعى. وقد تحمست إحدى الرياضيات فشاركت فى سباق للجرى فى لندن ، ودماء الدورة الشهرية على سروالها!

ألِى هذا الحد وصل السُّخف بالبشر؟!! رحماك يا رب.

وعلى صحيفة الإكسبريس قرأنا بتاريخ 11 أغسطس 2016 عن فتاة استرالية عمرها 26 عاما اكتشفت الشرطة أنها مارست الجماع ، ليس مع أحد أصدقائها ، ولكن مع أحد الكلاب! وقد تكررت العملية ثلاث مرات ، وصورت الفتاة الجماع على هاتفها ، واعترفت بذلك[59].

---

58) **#PISSFOREQUALITY: FEMINISTS FALL FOR 4CHAN TROLL CAMPAIGN BY PEEING THEMSELVES.** By Paul Joseph Watson. INFOWARS. October 5, 2015. https://www.infowars.com/pissforequality-feminists-fall-for-4chan-troll-campaign-by-peeing-themselves/. Accessed on February 3, 2018.

59) **Australian woman pleads guilty to having sex with DOG and then taping it.** By VICKIIE OLIPHANT. Express. Updated Aug 20, 2016. https://www.express.co.uk/news/world/698905/Australian-woman-Queensland-guilty-sex-dog-video-phone ; Accessed February 3, 2018

وقرأنا أيضا بتاريخ 23 أبريل 2014 فى "نيويورك بوست" [60] وغيرها من الصحف عن ثلاث نساء من السحاقيات احتلفن بزواجهن! نعم إنه زواج لا يجمع رجلا بامرأة ولا حتى امرأة بامرأة بل يجمع امرأة وامرأة وامرأة: ثلاثة! وقد قسمت النسوة المهام بينهن ، فاضطلعت إحداهن بتنظيف البيت ، والثانية بإعداد الطعام ، والثالثة بالعمل خارج البيت للإنفاق على الأسرة. بل وصل الفجور إلى حد أن تقوم إحدى الزوجات بتلقيح نفسها صناعيا بواسطة حيوان منوى لرجل مجهول لتصبح حبلى ، وينتظر أن يكون المولود ابنا للزوجات الثلاثة.

وفى صحيفة الميرور [61] بتاريخ 21 مارس 2014 قرأنا عن محاكمة أم من شمال أيرلندا بتهمة إجبار طفلها على مشاهدتها وهى تمارس الجماع مع أخيها ومع صديقها ، وقد فعلت الأم نفس الشيء مع بناتها الأطفال ، وكانت تتعلل بأنها تريد أن تعلمهن الجنس من خلال جعلهن يشاهدنها وهى تمارسه مع الآخرين . كما كانت هذه الأم الشيطانة تجبر ابنها على أن يقوم بأعمال أخرى مخلة معها.

وقرأنا أيضا فى صحيفة "الصن" [62] بتاريخ 12 أغسطس 2016 عن أم مجرمة ألقت – متعمدة– بطفلتها البالغة من العمر عاما واحدا فى الفرن ، فأصيبت الرضيعة بحروق فى غاية الخطورة واحتاجت لثمانية وعشرين جراحة كى تبرأ مما جرى لها.

وفى "الصن" [63]أيضا قرأنا بتاريخ 30 ديسمبر 2016 عن رجل ضايقته ابنة زوجته البالغة من العمر خمس سنوات بإلحاحها فى طلب الطعام ، فما كان من الرجل إلا أن جثم على صدر الطفلة وطنعها بشكل متكرر حتى ماتت ، ثم ألقى الفودكا على جسدها وأشعل فيها النيران.

---

60) **Married lesbian ‘throuple’ expecting first child.** By David K. Li April 23, 2014. New York Post. https://nypost.com/2014/04/23/married-lesbian-threesome-expecting-first-child/ . Accessed February 3, 2018

61) **Evil mum who forced her son to watch her having sex with her brothers to be sentenced.** Mirror. By Jilly Beattie. 21 MAR 2014. https://www.mirror.co.uk/news/uk-news/evil-mum-who-forced-son-3269426. Accessed February 3, 2018.

62) **'I NEVER GOT AN APOLOGY' Teen forgives mum who BROILED her in an oven when she was a baby and was sentenced to 25 years behind bars.** By hayley richardson. The Sun. 12 Aug 2016, 20:12. https://www.thesun.co.uk/living/1602083/teen-forgives-mum-who-broiled-her-in-an-oven-when-she-was-a-baby-and-was-sentenced-to-25-years-behind-bars/ Accessed February 3, 2018.

63) **THE MONSTER OF MICHIGAN Stepdad ‘stabbed his five-year-old daughter to death and set her body on fire with vodka because she asked him for a snack’.** By Maryse Godden, 30 Dec 2016. The Sun. https://www.thesun.co.uk/news/2504049/stepdad-stabbed-his-five-year-old-daughter-to-death-and-set-her-body-on-fire-with-vodka-because-she-asked-him-for-a-snack/ Accessed February 3, 2018.

وفى صحيفة "جيروزاليم أون لاين" [64] بتاريخ 22 أبريل 2014 قرأنا خبرا عن احتجاج النساء الفرنسيات على انتشار الفاشية فى أوروبا من خلال تعرية النصف العلوى لأجسادهن بشكل كامل مع رسم علم الاتحاد الأوربى عليه.

أما عن الممثلة أنجيلينا جولى فهى تستحق أن نتوقف عندها بعض الشيء ، فقد جعلها الملحدون قدوتهم ومثلهم الأعلى ، ودليلهم الأكبر على أن الإنسان المتحضر يمكن أن يعمل الخير دون حاجة إلى الدين. وبصراحة استفزتنى معايرة الملحدين لنا بأنجيلينا جولى ، ولم أكن أعرف من هى، فشرعت أبحث وراءها ، فوجدت مقالا فى صحيفة ميل أون لان عن تلك الممثلة[65] ، وكان عنوانه: (التاريخ الغريب لحياة أنجيلينا جولى العاطفية). لقد تضمن المقال اقتباسات من حديث سابق للممثلة ، وهى تتباهى فيه بانحرافاتها الجنسية التى بدأت وهى طفلة صغيرة فى فترة الحضانة قبل دخول المدرسة. تقول أنجيلينا جولى: (كنت عضوة فى جماعة تسمى فتيات القُبل Kissy girls. كنت شديدة الميل للجنس فى فترة الحضانة). وتكمل أنجيلينا الكلام عن فترة الطفولة ، فتذكر أنها ابتدعت لعبة بموجبها كانت تُقَبل الفتيان ، ويعقب ذلك خلع الملابس والمداعبات الجنسية.

ويكمل المقال أن أنجيلينا حولى فقدت عذريتها فى عمر الرابعة عشرة بمباركة أمها. تقول أنجيلينا: (عندما كنت فى سن الرابعة عشرة كنت إما مندفعة بشكل متهور فى الشوارع مع صديقى أو أنه كان يذهب معى إلى غرفة نومى ، بينما كانت أمى فى الغرفة المجاورة). وتكمل الممثلة: (لقد بدأت إقامة علاقة جنسية مع صديقى ، ولكن لم أشعر أن الجنس والعواطف كافية. وفى لحظة أردت فيها أن أشعر بقرب أكبر لصديقى انتزعت سكينا وجرحته. ورد هو علىَّ بجرحى. لقد تبادلنا شيئا ما ، وغطتنا الدماء ، وكان قلبى يتسارع. ومنذ ذلك الحين كنت كلما شعرت بالاختناق قطعت

---

64) **WATCH: Nude Protest against the Fascist Plague in France.** Apr 22, 2014. By Rachel Avraham. Jerusalem Online. http://www.jerusalemonline.com/news/world-news/around-the-globe/watch-nude-protest-against-the-fascist-plague-in-france-4915 . Accessed on February 3, 2018.

65) **Vials of blood, knife play, kissing her brother, lesbian flings and 'sexual kindergarten': The bizarre history of Angelina Jolie's love life**. By ROSS MCDONAGH. 20 September 2016. Mail Online.https://www.dailymail.co.uk/tvshowbiz/article-3798877/Vials-blood-knife-play-kissing-brother-lesbian-flings-sexual-kindergarten-bizarre-history-Angelina-Jolie-s-love-life.html

جسدى. لدىَّ ندبات كثيرة. كان سنا شعرت فيه بالمغامرة ، وبعد قليل من كئوس الخمر كانت الأمور تقع).

وحين بلغت الممثلة سن العشرين كانت قد جربت كل أنواع المخدرات الممكنة ، بما فى ذلك الكوكايين ومخدر الهلوسة Ecstacy وال LSD والهيروين الذى وصفته بأنه مخدرها المفضل. وفيما بعد (عام 1996م) قابلت أنجيلينا جولى الرجل الذى أصبح زوجها الأول جونى لى ميلر الذى أنقذها من الضياع فى هذه الأيام المظلة. وفى نفس العام التقت أنجيلينا جولى بعارضة الأزياء جينى شيميزو التى أقامت معها علاقة جنسية (سحاق) ، وعن ذلك تقول أنجيلينا: (ربما كنت سأتزوج جينى شيميزو لو لم أتزوج زوجى. لقد وقعت فى غرامها منذ أول ثانية رأيتها فيها). وقد ادعت شيميزو فيما بعد أن علاقتها بأنجيلينا جولى استمرت لسنوات بعد زواجها: (أنا وأنجيلينا أقمنا علاقة رائعة حقا استمرت لسنوات طويلة. كنت أواعدها بينما كانت تلتقى بأناس آخرين. كانت من ذلك النوع من الناس الرائع والمتفتح). وبعد ثلاث سنوات من الزواج طلقت أنجلينا جولى من زوجها. وفى العام التالى (عام 2000م) أثارت أنجيلينا جولى ضجة عندما صُورت وهى تُقبل أخيها هيفين قبلة عاطفية فى فمه فى الكواليس أثناء حفل جولدن جلوبز (الكرة الذهبية) ، ثم كررت نفس القبلة الحميمة بعد ثلاثة أشهر فى حفل توزيع الأوسكار. وبعد أن حصلت على أول جائزة أوسكار لها افتتحت كلمتها للجمهور قائلة: (أنا فى حالة غرام شديد مع أخى الآن). وفى هذا الشهر بدأت أنجيلينا جولى مواعدة "بيلى بوب ثورنتون" ، ثم تزوجته بعد ذلك بشهرين ، ثم انفصلا. وفى عام 2005م اتُهمت أنجيلينا جولى بأنها السبب وراء انفصار "براد بيت" من زوجته لما علمت بعلاقته بأنجيلينا جولى أثناء تصويرهما لأحد الأفلام. وقد أنكرت أنجيلينا جولى تلك العلاقة فى هذه الفترة ، لكنها اعترفت أنها وقعت فى حب الرجل أثناء تصوير الفيلم. وقالت أنجيلينا جولى فى أحد الأحاديث الصحفية: (أن أكون على علاقة مع رجل متزوج –بينما كان أبى يخدع أمى– ليس شيئا يمكن أن أغفره. لا يمكن أن أن أنظر إلى نفسى فى الصباح إن فعلت هذا. ما كان لى أن أميل إلى رجل يخدع زوجته). لكن علاقة أنجيلينا جولى تأكدت ببراد بيت عام 2006م عندما أعلنت أنجيلينا جولى أنها حامل منه. وبعد سبع سنوات كانت علاقة الزنا هذه قد نشأ عنها ست أطفال (ثلاثة منهم من الزنا وثلاثة بالتبنى) ، فأعلن الاثنان عام 2012م الخطبة ، ثم تزوجا عام 2014م.

ورغم كثرة الشائعات التى سرت عن علاقة أنجلينا جولى بأبطال أفلامها إلا أنها صرحت يوما بأنها لم تقم علاقة إلا بأربعة رجال فقط طوال حياتها ، ثلاثة منهم كانوا أزواجها. لكن يؤكد المقال أن أنجيلينا تناقض نفسها ، فقد سبق لها أن اعترفت فى حوار مع نيويورك بوست عام 2004م أن لها أصدقاء كثيرين. تقول أنجيلينا جولى: (لقد ظللت طيلة عامين بلا رجل حولى ، ثم قررت أن أقترب أكثر إلى الرجال الذين كانوا بالفعل أصدقاء مقربين لى. إنه نوع من طريقة الكبار فى القيام بعلاقات الكبار. رغم أن هذا يبدو جنونيا إلا أن لقائى برجل فى أحد الفنادق لسويعات قليلة ، ثم عودتى بعدها كى أضع طفلى فى الفراش دون أن أرى هذا الرجل مرة أخرى لأشهر قليلة هو تقريبا ما يمكننى فعله الآن. أستطيع الآن أن أشعر أننى امرأة وأقترب من رجل ، لكنها ليست علاقة تتعارض مع أسرتى. ولم يحدث أبدا أن أقمت علاقة ليلة واحدة فى حياتى ، فهؤلاء أشخاص أعرفهم جيدا).

وإذا لخصنا الجرائم الأخلاقية التى اقترفتها أنجلينا جولى كما ورد فى هذا المقال لوجدناها كما يلى:

1. الزنا
2. زنا المحارم
3. الشذوذ الجنسى (السحاق)
4. التباهى بالانحراف الجنسى فى الطفولة.
5. تعاطى المخدرات
6. الدموية والعنف (جرح صديقها لمجرد المتعة)
7. الكذب على وسائل الإعلام
8. إقامة علاقة مع رجل متزوج.
9. إقامة علاقات كثيرة مع رجل غير زوجها.

هذه فقط تسعة جرائم كبرى اقترفتها أنجيلينا جولى وردت فى مقال واحد ، فما بالك بما ورد فى الصحف الأخرى ، وما خفى عن الصحف؟ كما أن هذا المقال لم يرد فى صحيفة إسلامية متشددة، وإنما فى صحيفة عالمية معروفة ، كما أن المقال اعتمد بشكل أساسى على تصريحات الممثلة نفسها.

أعرف أن الملحد سيقول: (وما العيب فى إقامة علاقة بين رجل وامرأة بلا زواج؟ أنتم تسمونها زنا، لكننا نسميها حبا). حسنا ، لكن ما رأى الملحد فى بقية قائمة الجرائم؟ فليقل لنا الملحد هل يوافق على المخدرات وزنا المحارم والكذب والدموية؟ فإن كان يوافق عليها فقد أثبت لنا أن الإلحاد بلا أخلاق ، وإن قال: لا ، فقد أثبت لنا أن أنجيلينا جولى التى يصورونها ملاكا هى فى الحقيقة شيطانا. وأقسم لكم أننى رأيت صورة لهذه الممثلة مع أخيها فبدا لى وجه كليهما كما لو كان وجه شيطان ، وأنا أقصد شيطان بالمعنى الحرف لكلمة شيطان ، ولست أقصد المبالغة فى قبح وجهيهما. أقسم لكم أن هذه ليست مبالغة. وأقسم لكم مرة أخرى أننى لما رأيت صورة هذه الممثلة فى شبابها أيقنت أننى أمام فتاة من ذلك النوع المستهتر السطحى الشديد الانحراف الذى تعرفه بمجرد النظر إليه. ويبدو لى أن اليهودية العالمية والماسونية المسيطرة على وسائل الإعلام تتعمد مساندة المنحرفين أخلاقيا، وتظل تلمع فيهم ، حتى يصبحوا نجوما ذوى شعبية وتأثير على الجماهير ، فينتشر الفساد والانحلال الأخلاقى العالم ، وتظل الجماهير منشغلة لاهية بملذاتها وشهواتها ، فيبقى اليهود والماسون وحدهم مسيطرين على حكم العالم ، متحكمين فى مصائر الشعوب ، فلا شىء يضمن للطغاة والفاسدين البقاء أكثر من بقاء الناخبين بعيدين عن القرار السياسى. ولا شك عندى أن إظهار أنجيلينا جولى لعلاقتها الجنسية مع أخيها فى يوم حصولها على جائزة جولدن جلوبز ثم عند حصولها على جائزة الأوسكار جاء بتوجيهات من الماسونية العالمية التى أرادت توجيه رسالة للرأى العام مفادها: (نجوم الفن الناجحين يمارسون زنا المحارم ، فلم لا تكونون جميعا مثلهم؟)

وأعتذر للقارىء المسلم عن إيراد هذه التفاصيل المشينة ، ولكن ما العمل ، وقد أصبح الكثيرون فى هذا العصر ينكرون الانحطاط الأخلاقى لأهل الفن ، ويصورونهم لنا على أنهم جميعا أناس أفاضل حكماء عاقلون محبون للخير. أكرر الاعتذار ، وليسامحنى الله.

على أى حال هذه ليست محاولة منا لتتبع كل الجرائم الأخلاقية التى تقع فى الغرب ، وإنما هى مجرد نماذج على نوعية الجرائم الفظيعة التى تنتشر هناك. والشىء المهم أن هذه النماذج ليست وقائع نادرة ، ولكنها منتشرة بشكل كبير جدا ، ومن كثرتها أصبحت الصحف تغطيها فى مساحات أقل نسبيا مما تستحق ، ولو حدثت جريمة واحدة من هذه فى بلاد المسلمين لأصبحت حديث كل بيت وكل محطة فضائية لشهور طويلة. ورغم ذلك فلا زالت هذه الجرائم قادرة على إثارة قدر من

التشويق ، وهى تُستغل لزيادة تزيع الصحف والمجلات ، وهذا يتجلى من اختيار عنوان مثير جذاب، ثم عرض صور فاضحة لشخصيات الجريمة. ولو كان هؤلاء يفزعون من هذه الجرائم لوجدتهم يحللون الظاهرة ، ويغوصون فى أسبابها ، ويستضيفون المحللين الذى يفسرونها ، ويطالبون البرلمانات بتشديد العقوبات لوقفها، لكن شيئا من هذا لا يحدث ، وهو ما يؤكد أن الإعلام شريك فى نفس الجرائم التى يفضحها. إن الصحيفة التى تتكلم عن امرأة ارتكبت جريمة أخلاقية فإنها تعرض أحداث الجريمة بطريقة تثير شهية القارىء ، وتجعله بدلا من أن يغضب لوقوع الجريمة وإيذاء الأبرياء فإنه يستمتع بقراءة تفاصيلها ، ويتسلى بها كما يتسلى بقراءة الروايات الأدبية، بل يمكن أن له أن يبدى إعجابه بجمال المجرمة وأناقتها وشخصيتها. إن الشىء المفزع أن الغرب الذى برع فى كل مجالات الحضارة قد برع بشكل مماثل فى الثورة على الأخلاق وتحدى الله. إنهم يتفننون فى ابتكار سلوكيات غريبة وأخلاقيات شاذة لم تعرف قط على مدار التاريخ. إن الجرائم التى تقع فى بلاد المسلمين هى جرائم تقليدية مثل السرقة والقتل والرشوة والسب والقذف ، أما أهل الغرب فحلقوا فى سماء إبليس. لقد تفوق الغرب علينا نوعيا فى الشذوذ الأخلاقى. ورغم كل هذا الانحطاط الأخلاقى إلا أنه كان بالإمكان أن نبتلع هذا الانحراف لو كان الرأى العام عندهم يبدى غضبا حقيقيا مما يحدث ، ويسعى بشكل جاد لوقف تلك المهازل. كان يمكن التغاضى عن انحطاط الأخلاق عندهم لو كانت البرلمانات تسن قوانين رادعة ، ولكن الاستقرار هناك بلغ حدا شنيعا يشعرك أن كل السلطات (التنفيذية والقضائية والتشريعية والإعلامية) تتواطأ لتخريب الأخلاق وتدمير الفضيلة.

وعلى الجانب الآخر انظر إلى بلاد المسلمين وإلى دول الخليج بالتحديد تجد فضيلة عظيمة فى المجتمع ألا وهى التماسك الأسرى ، واحترام الأبناء للآباء. إن الآباء وكبار السن عموما يتمتعون بمكانة متميزة فى المجتمع ، ومن القليل أن تسمع عن عقوق الوالدين أو إهانة الكبار هناك ، بينما فى أوروبا يترك الفتى بيته لما يكبر ، وتصير علاقته بأبويه مثل علاقته بالأجانب ، وأذكر أننى رأيت برنامجا على قناة إم بى سى4 منذ أكثر من عشر سنوات يستضيف رجلا وزوجته وأمه لحل مشاكل بينهم أمام الجمهور. ولقد هالنى الأسلوب الوقح الذى تكلم به الابن عن أمه أمام ملايين المشاهدين ، فقد كان يسخر منها بشكل متكرر وبطريقة لاذعة لا يفعلها أشد المسلمين إجراما.

ثالثا: السبب الرئيسى لانحطاط أخلاق المسلمين اليوم هو البعد عن الدين والتلوث بالقيم الغربية المادية. إن جرائم المخدرات والسرقة والاغتصاب والظلم والفساد والاستبداد السياسى والتحرش والانحلال كلها أثر مباشر لمحاربة الإسلام فى بلاد المسلمين. إن جريمة التحرش الجماعى التى انتشرت فى السنوات الأخيرة هى نتيجة مباشرة لتلوث شبابنا بالثورة الجنسية القادمة من الغرب ، فهذه الظاهرة لم تكن معروفة أبدا فى بلادنا إلا بعد أن فتحنا بوابات حصوصنا للإعلام الغربى ، ليحتل بيوتنا ، ويسكن فى غرف نومنا فى ظل نظام دولى يضيق الخناق حول كل دولة تحاول الحفاظ على أخلاق المسلمين.

إن الشىء المثير أن الغرب هو الذى يدفع حكامنا إلى محاربة الإسلام ، ويعتبر نشر التدين جريمة لا تغتفر لأى حاكم مسلم ، ولنا فيما حدث فى الجزائر والصومال ومصر وفلسطين عبرة ، حيث رأينا الغرب يهب حين يشتم رائحة أى صحوة إسلامية فى بلد مسلم. وبعد ذلك نفس هذا الغرب الذى يحمى الرذائل فى بلادنا هو الذى يعاير المسلمين بسوء أخلاقهم !!

رابعا: لماذا ضيق النظرة؟ لماذا تبنى حكمك على أخلاق المسلمين وأخلاق غيرهم استنادا إلى هذه اللحظة فقط؟ لماذا لا تنظر إلى مجمل لحظات التاريخ على مدار عمر الإسلام البالغ أكثر من 1400 عام؟ إنهم يعيبون اليوم على المسلمين الهمجية والتأخر العلمى والكسل وغياب النظافة والأمية ونقص الثقافة. ولو عاد بهم الزمان إلى الوراء لرأوا نفس هذه المسالب فى كل شعوب أوربا باستثناء بلاد الأندلس المسلمة. والكلام فى هذا الموضوع يطول ، ولكن يكفى هنا أن نشير إلى مشهد واحد ألا وهو مشهد النظافة:

لقد كانت أوربا قارة فى غاية القذارة فى العصور الوسطى. كان الأوربيون يتخلصون من الفضلات الآدمية والقمامة والحيوانات الميتة فى الطرق وفى الأنهار[66]. لقد اعتقدوا أن الحياة الدنيا هى فترة استعداد للخلود فى الآخرة ، وظن بعضهم أن من الإثم أن يتم إفساد الجسد الفانى بواسطة الأنشطة غير الدينية مثل الاستحمام. وكما هو متوقع فإن نقصان النظافة وظروف المعيشة قدما أرضا خصبة لانتشار كثير من الأوبئة فى العصور الوسطى. لقد كانت ظروف المعيشة– بشكل عام–

66) **Ulf Christian Ewert.** Water, Public Hygiene and Fire Control in Medieval Towns: Facing Collective Goods Problems while Ensuring the Quality of Life. *Historical Social Research*, Vol. 32 — 2007 — No. 4, 222-251

فى غاية السوء. كانت أكواخ الفقراء وكذلك قلاع الأغنياء مظلمة وقذرة وبلا تهوية. كانت صناعة الملابس صعبة ، وكانت أثمانها باهظة ، وكان لا بد من الاحتفاظ بها. وبما أن الغسيل يؤدى إلى بلاء الملابس فلذلك كان من النادر أن يتم تنظيفها. وكان الناس ينامون عرايا بسبب خشونة الثياب ، ونادرا ما كانت المنازل تنظف ، ولذلك كثرت القذارة والحشرات. كانت موارد الماء متعفنة، وكان الطعام يفسد بسرعة ، ولذا كان لا بد أن أن يضاف إليه كثير من التوابل لجعل طعمه مقبولا. وكتب الرحالة من الشرق لدى عودتهم لبلادهم واصفين النَّتْنُ الرهيب فى مدن أوربا وكذلك القذارة الشخصية[67]. ونورد الآن مقتطفات من مقال كتبه رامى محيى الدين[68]:

[أوروبا الحالية لا علاقة لها إطلاقا بأوروبا العصور الوسطى، أو حتى أوروبا القرن التاسع عشر، والأوروبى الحالى الأنيق والنظيف لا علاقة له أيضا بذلك الأوروبى الذى عاش قبل بضعة قرون، والذى كان يعتقد أن الاغتسال يسبب أضرارا بدنية وصحية، وأن الأطفال الذين يستعملون الماء كثيرا تتعرض أبدانهم للهشاشة، فى تلك الأيام البعيدة، كان أغلب الأوروبيين يغتسلون فى مناسبتين، الاستعداد للزواج، أو فى حالة المرض. فى مذكرات الكاتب ساندور ماراى، الذى ولد فى بداية القرن العشرين فى عائلة بورجوازية ذات أصول نمساوية هنغارية، وأصدر كتابا يؤرخ لتاريخ الوساخة فى أوروبا، بل أيضا لتاريخ الوساخة فى عصره، حين يعترف بأن الاعتقاد الذى كان شائعا فى عائلته الغنية هو أن الاغتسال الكثير يضر بالصحة، فقد كان الأوربيون كريهى الرائحة. يقول موراى فى كتابه "اعترافات بورجوازى": إن الأوربيين كانوا يعتبرون أن الاستحمام كفرا، ووصف مبعوث روسيا القيصرية ملك فرنسا لويس الرابع عشر بقوله: إن رائحته أقذر من رائحة الحيوان البرى".. وكانت إحدى جواريه تدعى دى مونتيسبام تنقع نفسها فى حوض من العطر حتى لا تشم رائحة الملك. الروس أنفسهم وصفهم الرحالة أحمد بن فضلان أنهم: "أقذر خلق الله حيث إنهم لم يكونوا يستنجون من بول ولاغائط"، وكان القيصر الروسى (بيتر) يتبول على حائط القصر فى حضور الناس. يقول العلامة محمد تقى الدين الهلالى المغربى فى ترجمته لكتاب "مدنية المسلمين بإسبانيا" للعالم الأمريكى الشهير جوزيف ماك كيب فى معرض كلامه عن إيزابيلا ملكة قشتالة: الملكة إيزابيلا الأولى التى قتلت المسلمين فى الأندلس لم تستحم فى حياتها إلا مرتين، وقامت

67) **Constance Dauber Jones**. Disease and medicine in the middle ages. *LABORATORY MEDICINE*. VOL. 10, NO. 1, January 1979.

68) **تعرف على تاريخ النظافة الأوروبية وأسباب شهرة العطور الفرنسية**. رامى محيى الدين- اليوم السابع- 2016/8/14

بتدمير الحمامات الأندلسية، ومنع الملك فيليب الثانى الإسبانى الاستحمام مطلقا فى بلاده، وابنته إيزابيل الثانية أقسمت أن لا تقوم بتغيير ملابسها الداخلية حتى الانتهاء من حصار إحدى المدن، والذى استمر ثلاث سنوات؛ وماتت بسبب ذلك، هذا عن الملوك، ناهيك عن العامة. وكان الهنود الحمر يضعون الورود فى أنوفهم عند لقائهم بالغزاة الأوروبيين بسبب رائحتهم التى لا تطاق .
يقول المؤرخ الفرنسى دريبار : نحن الأوروبيون مدينون للعرب بالحصول على أسباب الرفاهية فى حياتنا العامة، فالمسلمون علمونا كيف نحافظ على نظافة أجسادنا، فإنهم كانوا عكس الأوروبيين الذين لا يغيرون ثيابهم إلا بعد أن تتسخ وتفوح منها روائح كريهة، فقد بدأنا نقلدهم فى خلع ثيابنا وغسلها، وكان المسلمون يلبسون الملابس النظيفة الزاهية حتى أن بعضهم كان يزينها بالأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والمرجان.]

إن من الظلم البين أن ننظر إلى حاضر الأوربيين ، ونتغافل عن ماضيهم ، وأن نُبرز حاضر المسلمين ، ونتعامى عن ماضيهم.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الثامن: هل الجنة دار انحلال

لما بدأت أتابع حركة الإلحاد الأخيرة ظننت أننى سأقابل مفكرين غاصوا فى الحياة والفلسفة والعلم، فصادفتهم شكوك أدت بهم إلى إنكار وجود الله ، فشمرت عن ساعدى لأتصدى لهذه الشبهات ، ولكن كانت المفاجأة أننى أمام مجموعة من الشباب الجاهل الذى لا يعرف كيف يكتب أو يقرأ ، ولا يلم بأبسط قواعد الدين الإسلامى التى يعرفها طالب المرحلة الابتدائية. إنهم لا يعرفون شيئا عن حقائق اللغة العربية والفيزياء والأحياء والفلسفة. إنهم مجموعة من الأشخاص كانوا فى الأصل يمارسون حياتهم فى انفصال تام عن الإسلام ، فلا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج ، وإنما فقط ملذات بلا حدود. وشباب مثل هؤلاء من السهل أن ينتقلوا إلى الإلحاد لأن الإسلام لم يكن له من الأصل وجود فى حياتهم باستثناء البطاقة الشخصية وشهادة الميلاد.

ومن بين أسخف الشبهات التى يركز عليها الملحدون بشدة هى القول بأن حرص المسلم على النساء والخمر فى الجنة لا يختلف عن حرص الملحد عليهما فى الدنيا. وقد لخص أحد المتحذلقين هذا الموقف فى القول التالى:

"نظرية النسبية: الفرق بين الباحث عن الخمر والجنس في الحياة الدنيا والباحث عنهما في الآخرة هو فقط فرق في التوقيت وليس في الأخلاق".

إن الملحدون يكررون هذا الكلام السخيف بفخر وإعجاب ، وكأنهم يشهرون فى وجوه المؤمنين سلاحا فتاكا لا راد له ، مع أنك لو قلَّبت هذا السلاح فى يديك لاكتشفت على الفور أنه سلاح من ورق ، لا يصلح إلا للعب الأطفال. لقد بلغت ضحالة التفكير ذروتها. أقسم لكم أننى أشعر بأننى أضيع وقتى وأنا أشرع فى دحض هذه التفاهات ، ولكن ما العمل وهذه هى البضاعة الرائجة فى سوق الإلحاد الذى يقوم علي الدولار ، وتحرسه الأباتشى والإف 16؟ فلنرد ، وعلى الله التوكل:

أولا: متع الدنيا كثيرا ما تضر ، بينما متع الآخرة لا ضرر فيها. خذ مثلا خمر الدنيا ، ستجد أنها سيئة الطعم وكريهة الرائحة ، كما أنها تسبب تليف الكبد والتهاب البنكرياس والسرطان وارتفاع ضغط الدم واضطراب نبضات القلب وجلطات المخ والاكتئاب والقلق وضعف جهاز المناعة والإصابة بالدرن والالتهاب الرئوى وحدوث تشوهات وإعاقات فى الجنين. وفى تقرير صادر من

منظمة الصحة العالمية عام 2014 [69] نقرأ أن الكحول مسئول عن أكثر من مائتى مرض. وأهم مما سبق أن الخمر مسئولة عن الحوادث والسب والقذف والاغتصاب والقتل والزنا والعدوان على الزوجة والأولاد والتفكك الأسرى والفقر والبطالة. هذه هى خمر الدنيا ، أما خمر الآخرة فهى شراب طيب ، جيد الطعم والرائحة ولا تسبب السكر ولا الصداع ولا تحدث فسادا أو ضررا للجسم: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} [الصافات: 45 – 47].

(كأس): إناء به خمر. **(من معين):** من منابع جارية. **(بيضاء):** خمر ذات لون أبيض. **(لذة للشاربين):** ذات طعم لذيذ لمن يشربها. **(غول):** فساد وهلاك كالصداع والقىء والمغص. **(ينزفون):** تذهب عقولهم.

الفرق إذن شاسع بين شراب خبيث وشراب طيب ، وكلاهما يسمى خمرا. والعقل يقول أن المسمى أهم من الاسم ، بيد أن الملحد يصر بغباء منقطع النظير أن الاسم هو كل شىء ، وأن الإسلام مخطىء لأنه حرم خمر الدنيا وأباح خمر الآخرة. أى عقول لديهم؟

وحين نأتى إلى كلام الملحدين عن الجنس ، فإننا نقول أن الإسلام أباح الجنس فى الدنيا، بل حرم الرهبنة ، ودعا إلى التناسل وتعمير الأرض ، وفى الحديث الشريف: "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم"[70]. كل ما فى الأمر أن الإسلام نظم شهوة الفرج ، فجعل إشباعها مباحا فقط فى إطار الزواج ، وذلك لأن استمرار الحياة الاجتماعية السليمة على الأرض يتطلب التزاما من كل من الأب والأم ، وهذا لا يكون إلا بالزواج والأسرة ، فالزواج يجبر الأب على أن يرعى أولاده بالمشاركة مع المرأة ، وهل تريدون أن يقضى الرجل شهوته ، ثم يترك الأولاد للمرأة لتشقى بهم (كما يحدث فى عالم القطط والكلاب) ، بينما هو يتنقل بين أحضان الخليلات؟ إن العزوف عن الزواج يؤدى إلى إثقال المرأة بأعباء الأسرة كلها ، بينما يتمتع الرجل بحياة لا مسئولية فيها ، وهذا ظلم فادح. كما أن العزوف عن الزواج فى العصر الحديث أدى إلى انتشار وسائل منع الحمل لأن المرأة تريد أن تستمتع بحياتها دون منغص، فترتب على هذا عواقب خطيرة من أهمها ما نشهده الآن من تناقص شديد فى أعداد السكان فى أوروبا واليابان ، وغيرها من البلدان التى تشعر بخطر كبير على وجودها فى المستقبل غير البعيد. وفضلا عن ذلك فالانفلات الجنسى يتسبب فى انتشار

---

[69]) **WHO**. Global status report on alcohol and health 2014.
http://apps.who.int/iris/bitstream/10665/112736/1/9789240692763_eng.pdf ; Accessed February 5, 2018

[70]) حديث صحيح ، رواه أبو داود والنسائى وأحمد ، الحاكم وابن حبان والطبرانى والبيهقى وسعيد بن منصور والمحاملى. وصححه الألبانى. انظر: **آداب الزفاف في السنة المطهرة** (ص: 132).

كثير من الأمراض مثل الإيدز والالتهاب الكبدى والسرطان ، وغيرها. ولهذه الأسباب وغيرها حرم الإسلام الزنا. لكن فى الآخرة الوضع مختلف حيث لا يوجد حمل ولا ولادة ولا أطفال يحتاجون للطعام والتربية والتهذيب وغرس الأخلاق، ولا يوجد كذلك فيروسات ولا جراثيم ولا سرطان. ولهذا سيكون من حق المرء فى الآخرة أن يمارس الجنس بلا حدود ، وليس فقط مع زوجته ، وذلك لأن الجنس فى الجنة لا يترتب عليه أعباء اجتماعية ولا أضرار صحية.

ورغم ذلك لا يزال الملحد الجاهل يردد كالببغاء أن الإسلام قد حرم الجنس فى الدنيا وأباحه فى الآخرة. أيها الأحمق: **هذا جنس وذاك جنس ، لكن المسمى فى الدنيا غير المسمى فى الآخرة.** هناك ماء فى نهر النيل ، وماء آخر فى البحر المتوسط. هذا ما ، وذاك ماء ، لكن شتان بين ماء عذب وماء مالح. وبنفس الطريقة نقول **أن الجنس فى الدنيا يختلف عن الجنس فى الآخرة:** الجنس فى الدنيا كثيرا ما يكون ضارا ، أما الجنس فى الآخرة فلا ضرر منه ، ولذا فلا قيود عليه.

أيها الملحدون: تأملوا جيدا هذا المثل: الطالب العاقل هو الذى يحرم نفسه من اللعب واللهو والرحلات ومشاهدة التلفاز فى أيام الامتحانات ، ولما ينتهى الامتحان وتظهر النتيجة وينجح يصبح من حقه أن يلهو ويلعب كما يشاء. والله عز وجل لم يفعل أكثر من ذلك. لقد طلب الله تعالى من الناس أن يحرموا أنفسهم فى الدنيا من بعض الملذات (كالخمر والنساء) بشكل مؤقت ، وبعد انتهاء الدنيا سيكون من حقهم الاستمتاع بكل ما حرموا أنفسهم منه. الدنيا تشبه الاختبارات الدراسية التى نعرفها فى الدنيا ، بل هى فى الحقيقة اختبار بالمعنى الحرفى للكلمة ، قال تعالى: { إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ} [الإنسان: 2]. وقال أيضا: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ } [محمد: 31]. ورغم ذلك يتصرف الملحد بعقلية الطالب الفاشل الذى لا يطيق الجلوس أمام الكتاب ، ويقضى يومه كله فى لعب الكرة والخروج مع الأصحاب دون ان يلقى بالا للاختبار القادم الذى سيحدد مصيره.

إن فلسفة الحرمان فى الإسلام ليست بدعا من القول ، فهى لا تخرج عن المثل القائل: (لا مكسب بلا ألم) ، وبالمثل من يُرد الجنة فليتعب ، وليدفع ثمنها ، أما من يرد الشراء بلا مقابل فهو مجنون ، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 142]

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

خاتمة: الملحدون والحرب القذرة

كالعادة يقوم الملحدون بقلب الحقائق ، فيردون على اتهامات خصومهم بإلقاء نفس التهم على هؤلاء الخصوم ، فيزيحون العبء من على كواهلهم بطريقة عبثية كما لو كانوا يتخلصون من جمرة ملتهبة ألقيت عليهم ، فيتركون خصومهم مشغولين برفع البلاء من على كواهلهم. الملحد معروف أنه شخص عديم الأخلاق ، بل الواقع الذى لا شك فيه أن أغلب الملحدين تركوا الدين لأنهم ضاقوا بقيوده وأوامره ونواهيه ونزعته الأخلاقية الصارمة. ومن جرأتهم ألقى الملحدون بالتهمة على المؤمنين، واجتهدوا فى السنوات الأخيرة فى رسم صورة للملحد تظهره على أنه شخص فاضل عفيف مثقف يكره الفساد ، بينما المؤمن شخص منافق ، يحقد على الآخرين ، ويكره النجاح ، وينشد الزعامة ، ويتاجر بالدين من أجل أغراض دنيوية. لقد بلغت الوقاحة بأحد الملحدين المصريين المشهورين إعلاميا أن رسم صورة لمخ بشرى ، ورسم تضاريس المخ على شكل فتيات عاريات ، وقال ساخرا أن هذا هو مخ المسلم السَلفى.

إن الملحدين لا يكفون عن السخرية من اعتقاد المسلم فى وجود الحور العين فى الجنة ، ويستنتجون من هذا أن المؤمن لديه هوس بالجنس ، مع أن المتوقع من كل رجل فى العالم أن تكون لديه رغبة فى الجنس ، والرجل الذى لا يحب الجنس هو شخص مريض يحتاج للعلاج. ومن العجيب أن تجد الملحد الذى يخرج كل يوم مع عاهرة لا يعجبه المؤمن الذى يتمنى أن يكون له من النساء مائة ألف ، لكنه فى نفس الوقت يتحكم فى نفسه حتى لا يغضب ربه ، ويقرر الاكتفاء بزوجته أملا فى أن يعوضه الله فى الآخرة عما حرم منه فى الدنيا. بالله عليكم أيهما أكرم وأشرف: مؤمن يمسك بلجام نفسه أم ملحد يطلق لها العنان كالطفل الصغير؟

ولقد وصل السفه بالملحدين إلى أن أصبحت أكثر التهم التى يوجهونها إلى الإسلام أنه دين النكاح؟! وهنا تبلغ المهزلة ذروتها ، فالملحدون العرب شديدو الجهل بالدين ، وقد استغل زعماؤهم هذا الجهل فأقنعوهم بأن كلمة النكاح فى القرآن والسنة تعنى الزنا فقط ، مع أن كلمة (النكاح) اشتهرت فى اللغة العربية كمقابل للسفاح (الزنا)، كما أن القرآن يستخدم كلمة (النكاح) دائما ليشير إلى (الزواج) ، ومن قبيل ذلك آية تتحدث عن زواج لا يحدث فيه جماع: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ

وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [الأحزاب: 49]. لكن الملحد الجاهل باللغة وبالدين يردد كالببغاء ما يمليه عليه شياطين الإنس الذين يعبدهم.

والحقيقة أن الملحدين العرب أصروا على ممارسة نفس اللعبة القذرة حتى آخر الشوط ، فأخذوا يرددون بكثافة فى وسائل الإعلام كلمات مثل "السبايا" و "رضاع الكبير" و"جهاد النكاح" وغيرها من الكلمات التافهة التى لا أحب أن أقف عندها الآن حرصا على وقتى وأعصابى. ولو كان عند الملحد ذرة من عقل لتوارى خجلا من الناس ، فهو لا يكف عن اتهام الإسلام بتقييد حريات المرأة، ويهاجم الحجاب والنقاب ، ويسخر من الدعوة لغض البصر والفصل بين الجنسين ، ومع ذلك تراه يتهم نفس هذا الدين المتشدد بأنه دين الانحلال والإباحية؟! أى عقول تلك؟

إن الملحد يشبه تاجر مخدرات ضبطته الشرطة وهو يحمل قطعة من الحشيش ، فما كان منه إلا أن أخرج قطعة مخدرات أخرى ، ودسها – أما عينى الضابط– فى جيب أحد المواطنين الشرفاء الواقفين بجواره ، ثم قال للضابط: (اقبض على هذا المجرم ، واتركنى فأنا برىء). نعم الملحدون يفعلون نفس الشىء دون ذرة خجل. لقد نجحوا فى الفرار من قفص الاتهام ، وزجوا بالمؤمنين مكانهم ، وليس هذا بسبب قوة منطقهم بل لأنهم يملكون وسائل الإعلام ، ويستقوون بالمال والسلطة والنظام العالمى الشيطانى. ألا فليعلم هؤلاء أن كلمة الله هى العليا ، وأن من عادى الله فليس له إلا الخزى والمهانة. وأختم كلامى بآية من أروع آيات القرآن الكريم:

{وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)} [الرعد: 41، 42]

تم الكتاب بحمد الله.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

المراجع

1. **آداب الزفاف في السنة المطهرة**. تأليف محمد ناصر الدين الألبانى. دار السلام 1423 هجرية، 2002 م.

2. **السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير).** تحقيق: مصطفى عبد الواحد. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان. 1395 هـ - 1976 م

3. **السيرة النبوية لابن هشام.** تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة الثانية، 1375هـ - 1955 م

4. **العنف في الهند: ماذا وراء أسوأ موجة عنف طائفي في العاصمة دلهي منذ عقود؟** بى بى سى 27 فبراير 2020.https://www.bbc.com/arabic/world-51657742

5. **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال**. تأليف أبى حامد الغزالي . حققه وقدم له: الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد. الطبعة السابعة. دار الأندلس للطباعة والنشر- بيروت- 1967م

6. **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. تأليف "أبو عبيد الله المرزباني . تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى 1995م – 1415 هجرية.

7. **تاريخ ابن خلدون.** تحقيق: خليل شحادة. دار الفكر، بيروت. الطبعة الثانية، 1408 هـ - 1988 م

8. **تعرف على تاريخ النظافة الأوروبية وأسباب شهرة العطور الفرنسية**. رامى محيى الدين- اليوم السابع- 2016/8/14

9. **تفسير الشعراوي**. مطابع أخبار اليوم. 1997م

10. **تفسير المنار**. تأليف محمد رشيد رضا. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1990 م

11. **"حتى الملائكة تسأل" قصة الإسلام فى أمريكا**. صفحة 268-269. تأليف دكتور جيفرى لانج. تعريب دكتور زين نجاتى. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة. الطبعة الأولى 2002م

12. **رجال المعلقات العشر**. تأليف مصطفى الغلايينى. المكتبة العصرية- صيدا بيروت. 1418 هجرية- 1998م

13. **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الأولى، (لمكتبة المعارف). 1415 هـ - 1995 م

14. **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري.** حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق للنشر والتوزيع. الطبعة الرابعة، 1418 هـ - 1997 م

15. **قصة الحضارة**. تأليف ويل ديورانت. ترجمة دكتور ذكى نجيب محمود وآخرون. دار الجيل- بيروت. 1408 هجرية ، 1988م

16. **مشكاة المصابيح**. تأليف أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة، 1985

17. **نظرية المعرفة.** دكتور/ ذكى نجيب محمود. مؤسسة هنداوى سى آى سى. المملكة المتحدة. 2018م

18. **#PISSFOREQUALITY: FEMINISTS FALL FOR 4CHAN TROLL CAMPAIGN BY PEEING THEMSELVES.** By Paul Joseph Watson. INFOWARS. October 5, 2015. https://www.infowars.com/pissforequality-feminists-fall-for-4chan-troll-campaign-by-peeing-themselves/. Accessed on February 3, 2018.

19. **About the American Humanist Association.** https://americanhumanist.org/about/

20. **America's Dairy Farmers Dump 43 Million Gallons of Excess Milk.** By Kelsey Gee. Wall Street Journal. Updated Oct. 12, 2016**.** https://www.wsj.com/articles/americas-dairy-farmers-dump-43-million-gallons-of-excess-milk-1476284353

21. **Australian woman pleads guilty to having sex with DOG and then taping it.** By VICKIIE OLIPHANT. Express. Updated Aug 20, 2016. https://www.express.co.uk/news/world/698905/Australian-woman-Queensland-guilty-sex-dog-video-phone ; Accessed February 3, 2018

22. **Constance Dauber Jones**. Disease and medicine in the middle ages. *LABORATORY MEDICINE*. VOL. 10, NO. 1, January 1979.

23. **Dairy Farmers Pour Out 43 Million Gallons of Milk Due to Surplus**. By Melissa Chan. *Time*. Oct 13, 2016. https://time.com/4530659/fanners-dump-milk-glut-surplus/

24. **Definition of Humanism**. https://americanhumanist.org/what-is-humanism/definition-of-humanism/

25. **Evil mum who forced her son to watch her having sex with her brothers to be sentenced.** Mirror. By Jilly Beattie. 21 MAR 2014. https://www.mirror.co.uk/news/uk-news/evil-mum-who-forced-son-3269426. Accessed February 3, 2018.

26. **Galaxies, explained**. BY Michael Greshko. National Geographic, https://www.nationalgeographic.com/science/space/universe/galaxies/ ; accessed March 12, 2020.

27. **Horsfield, John**. (2017). Humanism, humanity and faith؟ 1st Edition; Publisher: Hearts and Minds Media

28. **How big is the Universe**? By Nola Taylor Redd June 07, 2017, https://www.space.com/24073-how-big-is-the-universe.html; accessed March 12, 2020.

29. **Humanism. Its Roots and Development. What humanism consists of?** By .L.J. Elders, S.V.D. CONGRESSO TOMISTA INTERNAZIONALE. L'UMANESIMO CRISTIANO NEL III MILLENIO: PROSPETTIVA DI TOMMASO D'AQUINO. ROMA, 21-25 settembre 2003.

30. **'I NEVER GOT AN APOLOGY' Teen forgives mum who BROILED her in an oven when she was a baby and was sentenced to 25 years behind bars.** By hayley richardson. The Sun. 12 Aug 2016, 20:12. https://www.thesun.co.uk/living/1602083/teen-forgives-mum-who-broiled-her-in-an-oven-when-she-was-a-baby-and-was-sentenced-to-25-years-behind-bars/ Accessed February 3, 2018.

31. **Married lesbian 'throuple' expecting first child.** By David K. Li April 23, 2014. New York Post. https://nypost.com/2014/04/23/married-lesbian-threesome-expecting-first-child/ . Accessed February 3, 2018.

32. **On Heaven and Earth: Pope Francis on Faith, Family, and the Church in the Twenty-first Century.** Chapter 3: On atheists. Translated by Alejandro Bermudez; Howard Goodman. New York: Image Books. 2013.

33. **Pope Francis assures atheists: You don't have to believe in God to go to heaven.** By Michael Day**.** The Independent. 11 September 2013. https://www.independent.co.uk/news/world/europe/pope-francis-assures-atheists-you-don-t-have-to-believe-in-god-to-go-to-heaven-8810062.html

34. **Pope Francis: better to be an atheist than a hypocritical Catholic**. The Guardian. https://www.theguardian.com/world/2017/feb/23/pope-francis-better-to-be-atheist-than-hypocritical-catholic

35. **Pope suggests 'better to be atheist than hypocritical Catholic'.** By Philip Pullella; Editing by Louise Ireland February 23, 2017. https://www.reuters.com/article/us-pope-atheists-idUSKBN1621I3

36. "**Postmodernism and Religious Institutions**". By Dinges, William D. The Way, 36 (3), 215-225. London. 1996. ISSN: 0043 1575. https://www.theway.org.uk/Back/36Dinges.pdf

37. **The artist who lays eggs with her vagina – or why performance art is so silly**. By Jonathan Jones. The Guardian. 22/4/2014. https://www.theguardian.com/artanddesign/jonathanjonesblog/2014/apr/22/artist-eggs-vagina-paintings-performance-art-milo-moire. Accessed on February 21, 2020.

38. **The Cambridge dictionary of philosophy**. Page 396-397. General Editor Robert Audi, second edition. Cambridge University Press. 1999.

39. **The Kingdom, the Power, and the Glory: Megachurches In Modern American Society"**. By Scott Thumma, Dissertation, Emory Univ. 1996. http://hirr.hartsem.edu/megachurch/dissertation.html

40. **THE MONSTER OF MICHIGAN Stepdad 'stabbed his five-year-old daughter to death and set her body on fire with vodka because she asked him for a snack'.** By Maryse Godden, 30 Dec 2016. The Sun. https://www.thesun.co.uk/news/2504049/stepdad-stabbed-his-five-year-old-daughter-to-death-and-set-her-body-on-fire-with-vodka-because-she-asked-him-for-a-snack/ Accessed February 3, 2018.

41. **The Oxford Companion to Philosophy**. Page 375-376. Edited by Ted Honderich. Published in the United States by Oxford University Press Inc. 1995

42. **The philosophy of humanism**. By Corliss Lamont. Chapter1, page 13. Eighth edition, revised. Huamist Press, New York, 1997.

43. **THE REAL OBJECTIVE OF MOB VIOLENCE AGAINST MUSLIMS IN INDIA**. By Isaac Chotiner. THE NEW YORKER. February 28, 2020.

https://www.newyorker.com/news/q-and-a/the-real-objective-of-mob-violence-against-muslims-in-india

44. **Ulf Christian Ewert.** Water, Public Hygiene and Fire Control in Medieval Towns: Facing Collective Goods Problems while Ensuring the Quality of Life. *Historical Social Research*, Vol. 32 — 2007 — No. 4, 222-251

45. **Vials of blood, knife play, kissing her brother, lesbian flings and 'sexual kindergarten': The bizarre history of Angelina Jolie's love life**. By ROSS MCDONAGH. 20 September 2016. Mail Online. https://www.dailymail.co.uk/tvshowbiz/article-3798877/Vials-blood-knife-play-kissing-brother-lesbian-flings-sexual-kindergarten-bizarre-history-Angelina-Jolie-s-love-life.html

46. **WATCH: Nude Protest against the Fascist Plague in France.** Apr 22, 2014. By Rachel Avraham. Jerusalem Online. http://www.jerusalemonline.com/news/world-news/around-the-globe/watch-nude-protest-against-the-fascist-plague-in-france-4915 . Accessed on February 3, 2018.

47. **What Is Dark Matter?** By Nola Taylor Redd. July 19, 2019. https://www.space.com/20930-dark-matter.html

48. **What Is Humanism?** By Fred Edwords, https://americanhumanist.org/what-is-humanism/edwords-what-is-humanism/

49. **WHO**. Global status report on alcohol and health 2014. http://apps.who.int/iris/bitstream/10665/112736/1/9789240692763_eng.pdf ; Accessed February 5, 2018

كتب أخرى للمؤلف

1. هل أهان الإسلام الرقيق؟ نظرات جديدة فى قضية قديمة
2. هل معجزات الأنبياء مستحيلة؟
3. ما بعد الحداثة تجتاح ديار الإسلام
4. لماذا آمنتُ بالآخرة